مجلة مجمع اللغة العربية

بحوث مؤتمر الدورة الحادية والستين

الجزء الثمانون
« القسم الأول »
جمادى الآخرة - ١٤١٧ هـ
نوفمبر ١٩٩٦ م

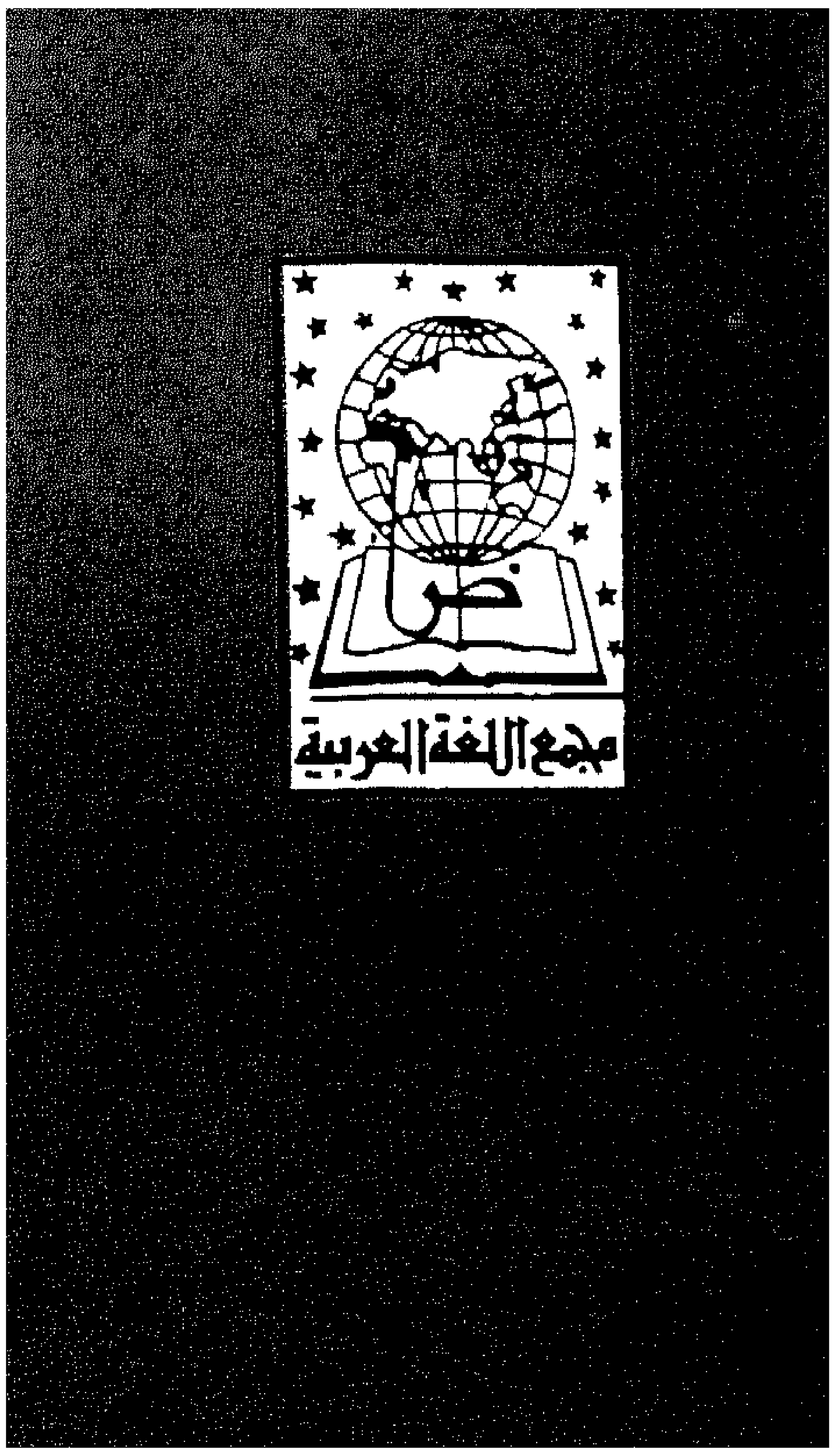

مجمع اللغة العربية بالقاهرة
١٥ شارع عزيز اباظة
المعهد السويسرى سابقا) بالزمالك

مجلة مجمع اللغة العربية

(تصدر مرتين فى السنة)

الجزء الثمانون

« القسم الأول »

جمادى الآخرة رجب ١٤١٧ هـ

نوفمبر ١٩٩٦ م

رئيس التحرير

إبراهيم الترزى

أمين التحرير

سعد توفيق

مساعدة أمين التحرير

سميرة شعلان

الفهـــرس

الموضوع	الصفحة
* افتتاح المؤتمـر	
للأستـاذ الدكتـور شـوقـى ضـيـف	
نائب رئيس المجمع	٧
* كلمـة الأستاذ الدكتور	
حسـين كـامل بهاء الدين وزير التـعليم	
فى افتتاح المؤتمر	٩
* كلمة الأستاذ	
إبراهيم الترزى الأمين العام للمجمع	١٣
* كلمة الأعضاء العرب	
للأستاذ الدكتور إبراهيم السامرائى	٢١
* لغة الشعر (تحية إلى مؤتمر المجمع)	
قصيدة للأستاذ حسن عبد الله القـرشى	٢٦
بحوث ومحاضرات	٢٩
أولاً : بحوث ألقيت فى المؤتمر :	٣١
* الإدريـسـى صـاحب نزهة المشـتـاق إلى	
اختراق الآفاق	
للأستاذ الدكتور عبد السميع محمد أحمد	٣٣
* الأعـلام الجغرافيـة - دراسة فى تكونها	
وفلسفتها	
للأستاذ الدكتور يحيـى جـبر	٣٩

الموضوع	الصفحة
* مدخل لدراسة الأعلام الجغرافية ذات الأصول العربية فى أسبانيا للأستاذ الدكتور محمود على مكى	٥١
* الدهناء للأستاذ عبد الله بن محمد بن خميس	١٠٢
* الجغرافيا فى رسائل إخوان الصفا للأستاذ الدكتور حسن الشافعى	١١٣
* الأعلام الجغرافية عند الطهطاوى للأستاذ الدكتور محمود فهمى حجازى	١٢٩
* السودان مفهومه وحدوده ، وأسماؤه ، وعواصمه ، ولغاته للأستاذ الدكتور حسن الفاتح قريب الله	١٣٦
* الأعلام الجغرافية والأمم المتحدة للأستاذ الدكتور عبد الهادى التازى	١٧٣
* بعض الأعلام الجغرافية المشهورة للأستاذ الدكتور عبد الله الطيب	١٨١
* طائفة من الأعلام الجغرافية فى العراق للأستاذ الدكتور إبراهيم السامرائى	١٨٦

الموضوع	الصفحة	الموضوع	الصفحة

* مجمع اللغة العربية ..غاية شوط

قصيدة للفريق يحيى عبد الله المعلمى ٢١٠

ثانياً : بحوث لم تلق فى المؤتمر ٢١٣

* الجهود العربية فى ضبط الأعلام

الجغرافية لشبه الجزيرة العربية

للأستاذ الدكتور عبد الله يوسف الغنيم ٢١٥

* أعلام الجغرافيا فى موريتانيا

ومكانتها عند شعرائهم

للأستاذ الدكتور محمد المختار ولد إباه ٢٣٦

* الأعلام الجغرافية العربية

للأستاذ الدكتور فؤاد فخر الدين ٢٤٩

كلمة افتتاح المؤتمر

للأستاذ الدكتور شوقى ضيف نائب رئيس المجمع

السيد الأستاذ الدكتور وزير التعليم

الزملاء المجمعيون

أستأذن حضراتكم فى بدء كلمتى أن أبعث باسمكم واسمى أخلص التحيات وأصدق التمنيات إلى الأستاذ الدكتور إبراهيم بيومى مدكور رئيس المجمع ، متعه الله بالصحة التامة والعافية الكاملة .

وهذا اليوم نحتفل فيه بافتتاح مؤتمر المجمع فى دورته الحادية والستين ، وأشكر باسم المجمع السيد وزير التعليم الجليل لحضوره معنا هذا المؤتمر ، وأرحب باسم المجمع بالزملاء الوافدين من البلاد العربية الشقيقة ومن البلاد الإسلامية والغربية وأشكرهم لتلبيتهم دعوته لحضور المؤتمر والمشاركة فى بحوثه وقراراته ، وأهنىء المجمع وأعضاءه بالزملاء الجدد من أعضائه العاملين والمراسلين ، وهم ستة عشر عضواً من الأعلام فى مصر وشرقا وغربا ، وبهم وبأعضاء المؤتمر جميعا سيغمر أعماله كثير من النشاط والحيوية والفاعلية فى خدمة العربية لغة القرآن الكريم الخالدة بخلوده .

وتعلمون - حضراتكم - أن المجمع تعهد- منذ تأسيسه - على أن يجعل اللغة العربية وافية بمطالب العلوم والفنون والحياة العصرية ، واتخذ لتحقيق ذلك الوسائل الفعالة باختياره صفوة من أعلام العلم واللغة والأدب والقانون تألفت منها لجان علمية لوضع المصطلحات العلمية المقابلة لمصطلحات العلوم الغربية ، كما تألفت لجان لغوية وأدبية لتطويع اللغة وقواعدها وأبنيتها حتى تستوعب ما يريده أصحاب المصطلحات العلمية من صحة فى التعبير ودقة فى الأداء .

وظل وضع المصطلحات العلمية والفنية وألفاظ الحضارة فى العربية الشغل الشاغل للمجمع منذ نشأته حتى تصبح العربية لغة علمية مثل اللغات العالمية ، وحتى تصبح لغة للتدريس الجامعى مثلها ، وحتى تستتم وجهها العلمى بجانب وجهها الأدبى العربى ، وحتى تستكمل سيادتها فى وطنها وجامعاتها ، وجدّ المجمع فى وضع المئات بل الآلاف من تلك المصطلحات فى كل علم غربى ، وتكاثرت حتى

استحالت فى كل علم إلى معجم نفيس فى جزء أو جزءين أو أكثر ، وفى المجمع الآن ثلاثة عشر معجما علميا ، والتزم المجمع فى جميع معاجمه العلمية أن يضع مع كل مصطلح تعريفا دقيقا له حتى تستكمل الفائدة العلمية منه ، وإن هذه المعجمات الثلاثة عشر لتعد عتادا معجميا علمياً كبيرا من شأنه أن يجعل تعريب التعليم الجامعى الذى تتطلع إليه الأمة العربية أمراً ميسورا وإنا لنرجو من السيد وزير التعليم الأستاذ الجامعى الجليل المعروف بتعاطفه مع قضايا اللغة العربية أن يطلب إلى مجلس الجامعات الأعلى أن يدرس هذه القضية دراسة وافية ويضع لها خطة محكمة للبدء فى تنفيذها ، ولا يُعْرَفُ بين أمم العالم أمة مهما كانت صغيرة - يدرس أبناؤها العلوم بغير لغتها القومية إلا ما يحدث عندنا فى جامعات الأمة العربية ماعدا جامعات سوريا الشقيقة ، وقد آن للأمة أن تستتم دورها التاريخى الحديث فى وطنها وجامعاته فتتخلص من التبعية العلمية للغرب ، كما تخلصت من التبعية السياسية .

أيها السادة :

اتخذ المجمع لمؤتمر هذا العام موضوعين للبحث والمناقشة ، الموضوع الأول - هو الأعلام الجغرافية والموضوع الثانى - هو توحيد المصطلح العلمى بين الأقطار العربية ، وهو تتمة لموضوع المؤتمر فى العام الماضى ، وكان «تعريب العلوم» والمجمع - منذ تأسيسه - يتخذ هذا التوحيد شعارا له ، ولذلك يضم إليه دائما أفذاذا من أعلام البلدان العربية الشقيقة ، آملا أن يتيح بذلك لمصطلحاته فى العلوم والفنون ضربا من الإجماع العربى .

بارك الله مؤتمركم وأعمالكم فيه وسدد خطاكم .

وأنا - باسم المجمع - أشكر حضراتكم جميعا ، وأشكر ضيوفنا الكرام من الزملاء المجمعيين راجيا لهم طيب الإقامة بيننا فى بلدهم مصر .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

شوقى ضيف

نائب رئيس المجمع

كلمة الأستاذ الدكتور حسين كامل بهاءالدين - وزير التعليم
فى افتتاح الدورة الحادية والستين
لمؤتمر مجمع اللغة العربية

الأستاذ الدكتور شوقى ضيف

نائب رئيس المجمع

أعضاء المجمع الأفاضل

الحفل الكريم

يومٌ أعزُّ ، يومَ لقائكُم ، سدنةَ لغةِ القرآنِ الكريم . ودوماً أسعدُ بلقياكم ، وأعتبرُ يومَ اللقاءِ بكم يوماً مشهوداً ، وفى العقلِ مذكوراً، وفى الفؤادِ أثيراً ، كيف لا ، وهو يومُ مؤتمرِ مَجْمَعِ الخالدين ، الساهرين على حفظ اللغة العربية ، لغةِ القرآنِ الكريمِ والحفاظِ عليها ، والعاملين بكل دأبٍ وإخلاصٍ على أن تَظلَّ العربيةُ حيةً مُبْدعةً رائدة على مر الأيام ، فصيحُها رائقَ ، وجَرْسُهَا يَخْلبُ الألبابَ ، وأسلوبُها يختالُ على أساليبِ اللغاتِ الحيةِ جميعاً رشاقة وجمالاً ، وذلك بما أودعهُ اللهُ عز وجل فيها من مكنونِ البلاغةِ ، وبما تسهرون عليه من الحفاظِ على أسرارِهَا .

أعضاء المجمع الأفاضل حرّاس الفصحَى :

لايقتصرُ جُهْدُكم – الذى نعتزُّ به أشدَّ ما يكون الاعتزازُ – على الحفاظِ على اللغةِ ، وإنما يمتدُّ ليقومَ بوظيفةٍ هامةٍ هى الحرص على أن تظلَّ العربيةُ لغةَ الحضارة ، وفى هذا الإطار يفخرُ أهلُ العربيةِ جميعاً بما يقدمُه مجمعُكم الخالد من ترجمةٍ للمصطلحاتِ الجديدةِ فى فروعِ المعرفةِ ، وألفاظِ الحضارةِ . وها هو برنامجُ دورتِكم الحاديةِ والستين يشتمل على دراسة العديد من مصطلحات الفيزيقا ، والهندسةِ ، والجيولوجيا ، والتربيةِ ، وعلم النفس ، والتاريخِ والآثار ، والقانون ، والطب ، والموسيقى ، والحاسباتِ ، والأحياءِ ، والزراعة والرياضيات ، والجغرافيا .

وأرى الجُهدَ لايقفُ عندَ مجردِ اختيارِ الكلمة العربيةِ المناسبةِ للمصطلحِ الأجنبيِّ وإنما يتركُ نحو توحيدِ المصطلحِ العلميِّ العربيِّ المتخصصِ ليقضىَ على ما أصابِ الحياةَ العلميةَ فى وطنِنا العربيِّ من الاختلافِ فى المصطلحاتِ بين أهلِ التخصص الواحدِ مما جعلَ لغةَ الفهمِ والتفاهمِ بينهم تحتاجُ إلى الرجوعِ إلى المصطلحِ فى لغةٍ أجنبيةٍ ، ومن ثَمَّ تفقدُ الترجمةُ إلى العربيةِ وظيفتَهَا ، وإننى لآمُل معكم من خلالِ البحثِ المقدم فى الجلسة الحادية عشرةَ من دورتكم هذه أن نخرجَ من طورِ الهمِّ فى توحيدِ المصطلحِ العلميِّ العربيِّ إلى طورِ الفعلِ الرشيد ، ولا أحسُبنى مبالغًا إنْ قلتُ مع قائلكم فى الجلسة الثالثة : نعم لقفزةٍ علميةٍ رائدةٍ مبدعةٍ ، نخرجُ بها من دائرةِ النقلِ عن الغيرِ إلى دائرةِ المشاركةِ فى صنعِ الحضارةِ العلميةِ المعاصرة فنعطى ألفاظًا حضاريةً ومصطلحاتٍ علمية - كما نأخذ - وعند ذلك يُمكن أن نحلَّ إشكاليةَ تعريبِ التعليم العالى فى جامعاتِ الوطنِ العربيِّ حيثُ سَتصبُح لغتُنا العربيةُ كما كانت يوماً ما لغةً تُشاركُ فى صُنْعِ الحضارةِ ، ولاتكتفى بدورِ المتلقى وعندها أيضا ستصبحُ لغتُنا الخالدةُ لغةً عالميةً ، وليست مجردَ لغةٍ إقليميةٍ .

السيدات والسادة :

أرى فى برنامج الجلسة الحادية عشرة من دورتكم الحالية بحثاً لأستاذٍ جامعى فاضلٍ، أسهم فى الحياة الجامعية أستاذاً ورئيسا للجامعة ، وشارك فى العمل الثقافى العربى توجيها وتعليماً ، يتناول فيه مسائلَ فى تعلم العربية .

وأود أن أنتهز هذه الفرصة لأضع بين أيديكم بعضاً من سياستنا التعليمية فى تعليم العربية فى إطار المشروع القومى لمصر حتى عام ألفين لتطوير التعليم وإصلاحه إصلاحاً شاملا ، والذى دعا إليه السيد رئيس جمهورية مصر العربية الرئيس محمد حسنى مبارك ، وذلك من خلال إيمانه بأهمية التعليم، واعتباره حجر الزاوية فى الأمن القومى ، وركيزةً من ركائز الاستثمار فى التنمية البشرية ، وطريقا نحو تحقيق النصر فى معركة الحضارة والتنمية والتقدم التى تخوضها جميع دول العالم اليوم ، ونحن على مشارف القرن الحادى والعشرين .

فى ظل هذا المشروع القومى لتطوير التعليم تم عقد مؤتمرين قوميين لتطوير التعليم الابتدائى والإعدادى تحت رئاسة السيدة الفاضلة قرينة السيد رئيس الجمهورية ، ولقد أوصى المؤتمران - من بين ما أوصيا - بالاهتمام بتعليم اللغة العربية .

لقد حدد المؤتمر القوميُ لتطوير التعليم الابتدائى الهدف الجوهرى له - باعتباره جزءاً من التعليم الأساسى الإلزامى ، وركيزة للتعليم قبل الجامعى ، وقاعدة المنظومة التعليمية ككل- على أنه توفيُر أساسيات الثقافة والهوية القومية بمكوناتها فى المستويات الشخصية والوطنية والعربية والإنسانية ، والتى تمكن التلميذ المواطن من أن ينمى قدراته بما فيها تنمية أساليب التفكير العلمى والتفكير المنطقى لديه ومقومات المواطنة والقيم الدينية والأخلاقية ، ومن أن يسهم فى تنمية وطنه قيماً وتمسكاً ، وفكراً وديمقراطية وإنتاجا ، واستثماراً للموارد العلمية والتكنولوجية المتاحة ، وتحقيقاً لهذا الهدف الجوهرى يسعى التعليم الابتدائى إلى تنمية طاقات الطفل وقدراته .. بما يمكنه من ترسيخ الإيمان والاعتزاز بدينه وقيمه السماوية والاجتماعية واحترام عقائد الآخرين ومقدساتهم وشعائرهم .

- اكتساب المهارات الأساسية فى القراءة والكتابة والرياضيات بصورة تؤدى إلى التواصل اليسير والفعال بمختلف وسائلة من خلال اللغة القومية بين مواطنى المجتمع أخذاً وعطاء ، وحواراً ، ورأياً ، وتفاعلا ، وانتماءً ، وتحكيمًا لمنطق العقل .

وتنفيذاً لهذا الهدف الجوهرى روعى فى تخطيطِ مناهجِ التعليمِ الابتدائى إعطاء الوزن النسبى الأكبر من المعرفة لتعليم القراءة والكتابة والخط العربى ، وزيدت فى الخطة الدراسة عددُ حصصِ تعليم العربيةِ ، وأعيد للخطِ العربى مكانه بعد أن أهمل تعليمه أكثر من عشرين عاما وأكمل المؤتمر القومى لتطوير التعليم الإعدادى المسيرة فأوصى من بين ما أوصى بما يلى :

- ترسيخُ القيم الدينية وفهم الدين فهما صحيحا واحترام عقائد الآخرين بعيداً عن التعصب والتطرف ، مع التأكيد على دور الثقافة الدينية فى دعم القيم الاجتماعية

ومبادىء السلوك وعادات العمل النافع .

- تنميةُ مهارات الاتصال والتواصل من خلال الاهتمام بترسيخ مهارات اللغة العربية باعتبارها أساسا لتدعيم الهوية القومية .

الاهتمامُ بتعليم اللغة العربية بصورة تؤدى إلى استخدام الفصحى فى التحدث ، والتعبير والتعامل فى مختلف المجالات والمواقف ، مع الأخذ فى الاعتبار أن اللغة أداةٌ للتفكير والتعبير الدقيق .

وإننا نعد هذه الأيام لعقد مؤتمرٍ قومى تحت رئاسة السيدة الفاضلة قرينة السيد رئيس الجمهورية لتطوير إعداد المعلم ، ونأمل أن نجد فى توصياتكم ودراساتكم ما يفيدنا فى تطوير معلم اللغة العربية بصورة خاصة .

السيدات والسادة :

أرجو ألا أكون قد أطلت عليكم ، ولكنه الحرص معكم على أن نعمل سويا على تيسير تعليم الفصحى ، وتطويرها بحيث تظل إلى أن تقوم الساعةُ لغةً حيةً تستوعب كل جديد ، وتعبر عن كل مستحدث ، وأن نسعى سويا لأن تصبح اللغة العربيةُ اليومَ من لغات الحضارة المعاصرة ، ونحن على مشارف القرن الحادى والعشرين .

وإنَّا بعون الله لقادرون على ذلك ، ولغتُنا الخالدةُ ثريةٌ مِطْوَاعَةٌ قادرةٌ على التعبير عن كل متطلباتِ بنى البشرِ بلفظٍ سهلٍ ودقيقٍ وجميلٍ

﴿ وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون ﴾

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

حسين كامل بهاء الدين

وزير التعليم

* * * *
* * *
* *

كلمة الأستاذ إبراهيم الترزى الأمين العام للمجمع

السيد الأستاذ الدكتور حسين كامل بهاء الدين

وزير التعليم

أستاذى الجليل الدكتور شوقى ضيف نائب رئيس المجمع

أيها السادة :

سلام الله عليكم ورحمته وبركاته . وبعد ...

فكم يعزُّ علينا أن يغيب عن منبرنا المجمعىِّ شيخ المجمعيين وعميدهم فى وطننا العربى : أستاذُنا الجليل الدكتور إبراهيم مدكور رئيس مجمعنا ، ورئيس اتحاد المجامع العربية ، هيَّأ الله تعالى لشيخنا أسبابَ الشفاء ، وقيَّضَ له سُبُلَ العافية ، ومدَّ فى عمره " لنظلَّ ناهلين من علمه وفضله ، مُتَفَيِّئين وارفَ خبرته المجمعية العريقة .

ولعلكم تأذنون لى فى الإبراق بالتحية إلى عميد المجمعيين باسم نائبه أستاذنا الجليل الدكتور شوقى ضيف ، ووزيرنا الجليل الأستاذ الدكتور حسين كامل بهاء الدين ، وأعضاء المجمع الأجلاء ، وباسمكم جميعاً أيها السادة ، سائلين الله تعالى أن يعجل شفاءه ، ويسبغ عليه نعمة العافية .

أيها السادة :

تلبية لواجب مجمعىِّ ،على الأمين العامِّ أن يُؤدِّيَه كل عام ، فى جلسة افتتاح مؤتمر المجمع – أعرضُ عليكم النشاطَ المجمعىَّ بين مؤتمرَينا : السابقِ واللاحق ، وهو بيانٌ أشبهُ بالتقرير ، أرجو أن يَسَعَه صبركم الجميل .. وسأتْلو عليكم منه ذِكْرا .

المؤتمر السابق :

عقد المؤتمر ثلاث عشرة جلسة ، منها أربعُ علنية : أولاها جلسة الافتتاح ، والثلاثُ الأخرياتُ لثلاثِ محاضراتٍ عامة ؛ وهى : « العربيةُ لغةُ علم راسخة » للأستاذ الدكتور شوقى ضَيْف نائب رئيس المجمع ، و« بين الثقافة والفكر » للأستاذ الدكتور كمال بشر عضو المجمع ، و« الأُسُسُ النفسيةُ والفكريةُ لتعريب الطب » للأستاذ الدكتور محمد عماد الدين فضلى الخبير بالمجمع .

والجلساتُ التسعُ الباقياتُ مغلقة ، نظر المؤتمر فيها مصطلحاتٍ فى الطب والكيمياء والصيدلة ، والفيزيقا ، والنّفط ، والهندسة ، والرياضياتِ ، والجغرافيا ، والقانونِ ، والتربية الرياضية ، كما نظر المؤتمر قراراتٍ فى الألفاظ والأساليب ، واللهجات ، ومواد من المعجم الكبير .

وقدّمتْ من الزملاء الأعضاءِ بحوثٌ عديدةٌ فى الموضوع الذى كان مقترحاً فى المؤتمر السابق ، وهو « تعريب المصطلح العلمىّ » وبحوثٌ أخرى فى شئون اللغة والعلم والأدب .

وأصدر المؤتمر فى ختام جلساته قراراتٍ وتوصياتٍ منها :

* إن التعريبَ لايَعْنى بحالٍ من الأحوال التّهاوُنَ فى مجال تعليم اللغات الأجنبيةِ ؛ فإتقانُ لغةٍ أجنبيةٍ واحدةٍ - على الأقل - بمُسْتَوى رفيع ضرورةٌ حضاريةٌ تُواكبُ مسيرةَ التعريب وتَدْعَمُها ؛ إذْ يَتطَلّبُ التعريبُ أن يكونَ المهندسُ أو الطبيبُ أو العالم ضليعاً فى لغة أجنبيةٍ عالمية ، يتواصلُ فيها مع العلماء ومُنْجَزاتهم فى البلدان المتقدمة .

* تعريب التدريس فى الكليات العلميةِ العربيةِ يستلزمُ إنشاء هيئةٍ كبرى للترجمة فى مصر، تَضُمُّ صفوةً من العلماء ، تنهضُ بوضع خُطّةٍ قوميّة للترجمة ، تُحَدِّدُ الأَوْلويّاتِ فى ترجمة العلوم والتكنولوچيا ، وتُلاحقُ التطوراتِ العصريةَ فيهما ؛ خدمةً للتعريب ، وإسراعاً به نحو تحقيق الغايات العلمية ، وتُنَسِّقُ جهودَها فى الترجمة مع مراكز الترجمة ، التى تُنْشَأ على نهجها فى البلاد العربية .

* يؤكد المؤتمر - اعتزازاً بهُويَّتِنا العربية - ما أُوْصَى به مراراً ، من حَظْر كتابة اللافتات على المحال التجارية ، والشركات وغيرها ، بأىِّ لغةٍ غيرِ العربية ، كما يُوصى بحَظْرِ كتابةِ الأسماءِ الأجنبيةِ بحروف عربية ، ويدعو جميعَ الدولِ والحكوماتِ العربيةِ إلى إصدار تشريعات تَحظُرُ استخدامَ هذا الأسلوب ، وتُجَرِّمُ مَنْ يستخدمُه .

المجلس واللجان :

عقد مجلس المجمع خمساً وثلاثين جلسة ، منها اثنتان علنيتان استقبل فيهما ستةً من الأعضاء الجُدد ، هم السادةُ الأساتذة :

* الدكتور أحمد مستجير : نابغةُ علومِ الزراعةِ والهندسةِ الوراثية والأديبُ الشاعر .

* الدكتور محمد السيد غلاب : أحدُ الأوتادِ الرَّواسِي في علوم الجغرافيا ، ورُوَّادها المعاصرين .

* الدكتور محمد الأمين بسيوني : العَلَمُ القَذُّ في العلوم الچيولوچية .

* الدكتور أحمد على سالم الصباغ : أحَدُ أساطينِ العلومِ الهندسية وجَهابذتِها الأعلام

* الدكتور على الحديديّ : أستاذُ الأدب العربيِّ الحديث ، وأحدُ روَّادِ أدب الطفولة .

* الدكتور حسن محمود عبد اللطيف الشافعيّ أستاذُ الفلسفة الإسلامية النّابهُ الجليل .

ولأيّدخرُ المجمعُ وُسْعًا بين الحين والحين - في اختيار الأعضاءِ المراسلين ، من صفوة العلماء الأعلام ، في اللغة والأدب والعلم ، من العرب والمستعربين .

فاختار المجمع من سورية : الدكتور محمد إحسان النُّص ، والدكتور محمد هيثم الخياط والدكتور محمود أحمد السيِّد .

واختار من السعودية : الفريق الأستاذ يحيى بن عبد الله المُعَلِّميّ .

ومن الكويت : الدكتور عبد الله يوسف الغُنَيْم

ومن المغرب : الدكتور محمد محمد بنشريفة .

ومن موريتانيا : الدكتور محمد المختار ولد إبّاه

كما اختار ثلاثة من أعلام المستعربين :

فاختار من ألمانيا : الدكتور فُولفِدِيتريش فِيشَر .

ومن هولاندا : الدكتور فردريك ليمهاوس .

ومن المجر : الدكتور شانْدُور فُودُور

وقد نظر مجلس المجمع في جلساته الباقياتِ مصطلحاتٍ في الطب ، وعلومِ الأحياء والزراعة ، والفيزيقا ، والحاسباتِ ، والهندسةِ ، والرياضياتِ ، والچيولوچيا ، والقانونِ ، والجغرافيا ، والتاريخِ والآثار ، والشريعة ، والتربية وعلم النفس ، والموسيقى كما نظر قراراتِ لجان : الألفاظ والأساليب ، واللهجات ، وأصول اللغة ، وستُعرض كلُّها على المؤتمر ، مع موادَّ من المعجم الكبير .

مطبوعات المجمع :

أصدر المجمعُ مطبوعاته التالية :

- الجزء الخامسَ من كتاب «غريب الحديث»

- الأجزاءَ الخمسة من مجلة المجمع : من السبعين إلى الرابع والسبعين .

- المجموعتْين : الخامسةَ والثلاثين والسادسةَ والثلاثين من مجموعة المصطلحات العلمية والفنية .

صلات المجمع الثقافية :

شارك المجمع فى ندوة « توحيد تعريب المصطلح الجيولوجّى » التى عقدها اتحادُ المجامع فى رحاب مجمع تُونُسَ الشقيق ، وكان لى شرفُ تمثيل المجمع فى هذه الندوة مع الزميل الجليل الأستاذ الدكتور محمد يوسف حسن . وقد عُقدت الندوة فى الثانى والعشرين من أكتوبر وامتدتْ إلى الرابع والعشرين منه .

وقد شارك فى هذه الندوة مع مجامع دمشق وتُونُسَ والقاهرةِ مجمعان جديدان هما مجمعُ اللغة العربيةِ الفلسطينىّ ، ومجمعُ اللغة العربية الليبىّ ، فتحيّة لهما ، ومرحباً بهما ، فى اتحاد المجامع العربية .

ولايفوتنى هنا التنويهُ بانضمام ثلاثة من أعضاء المجمع إلى مَجرَّتِنا المجمعية ، فازوا بجوائز الدولةِ التقديرية ، وهم الأساتذةُ الزملاء : الدكتور محمود على مكى الفائز بها فى الآداب ، والدكتور كمال الدسوقى الفائزُ بها فى العلوم الاجتماعية ، والدكتور أبو شادى الروبى الفائزُ بها فى العلوم الطبية .

أيها السادة :

سُنَّةٌ مجمعيةٌ حميدة : ألاّ يقفَ مؤتمرُ المجمع نشاطَه على نظر ما أعَدَّتْه لجانُ المجمع ، وأقَرَّه مجلسُه ، وهو كثيُر كثير ؛ فالمؤتمر - مع ذلك كله - يَعْمد إلى قضية من قضايا اللغة أو الأدب أو العلم ، يَرْصُدُها للبحث والدراسة ، وقد يُعاوِدُها عاماً بعد عام ، حين تظلُّ معالجتها فى حاجة إلى مزيد ، أو يجدُّ على ساحتها جديد ، فَيُبَوئها منزلةً من الاهتمام العلمىِّ المتواصل ، الذى يأخذُها من كلِّ أقطارها ، ويَسْبُرها فى كل أغوارها ، وبخاصةٍ حين تبلغ القضية من الأهمية أن تصبح أملاً لأمتنا العربية ؛ كقضية توحيد المصطلح العلمى العربى وتعريبهِ ، التى نُتابع معالجتها وقضية الفصحى والعامية ، التى يُعاود

أستاذُنا الدكتور شوقى ضَيفْ معالجتَها فى محاضرة عامة ، بجلسة علنية من جلسات المؤتمر ، بعد أن عالج فى مؤتمر سابق - « لغة المسرح بين الفصحى والعامية » .

والموضوع المقترح لمؤتمر هذا العام كان بمبادرةٍ حميدةٍ من زميلنا الجليل الأستاذ الدكتور عبد الهادى التازى عضوِ المجمع من المغرب الشقيق ، ورئيس المؤتمر الدولى السادس للأعلام الجغرافية بهيئة الأمم المتحدة ، فلقيَتْ مبادرتُه استجابةَ ترحيبٍ واحتفاءٍ من أعضاء المؤتمر السابق ، فأصدروا قراراً فى جلسته الختامية بأن يكون الموضوعُ المقترحُ لمؤتمرنا هذا العام : « الأعلام الجغرافية العربية » وَرَفَدَهُ مجلسُ المجمع بمواصلة البحث فى موضوع « توحيد المصطلح العلميِّ العربيِّ وتعريبه » .

وما أظُنُّ موضوع « الأعلام الجغرافية العربية » سيبلغُ الغايةَ من بحثه واستقصائه فى هذا المؤتمر ؛ فهو موضوع يمتدُّ مع المكان والزمانِ إلى آمادٍ بعيدة ، قديمةٍ وحديثة ، تَقْتضى أن يمتَّد بحثُه كذلك إلى آمادٍ بعيدةٍ ، من الدراسة الفاحصة المُسْتَقْصِيَة ، التى تكشف الأسبابَ والعلَلَ للأسماء الجغرافية ، وإنْ كان من الأسماء مالا يُعَلَّلُ كما يقولون !

وموضوعُ الأعلامِ الجغرافية لايَتصَّدى له إلا أولو العزم من أفذاذ العلماء ؛ فهو موضوع يتطلّب مثابرةً ومصابرة ، وعَلماً مُلماً بأصول هذه الأعلام فى لغاتها الشرقية والغربية ، القديمة والحديثة ، وما تَطوَّر عن هذه اللغات القديمة من لغات حديثة ، وما اتَّصلَ بها من لهجات ، وما وَصَلَ إليه بشأنها « علمُ الصوتيات » ، الذى يُحَلِّلَ ويُعلِّلُ تَطوُّرَ بعض الأعلام الجغرافية ، وما قد يَعْتَرِيها من عوامل « التَّعْرِيَة اللغوية أو الصوتية » ، حين تَلُوكُها الألسُنُ على مدى الأعوام ، فياقوت يقول فى معجم البلدان :

« سامَراَّءُ بلدٌ على دجلة فوق بغداد بثلاثين فرسخا يقال لها : « سُرَّ مَنْ رأى » فخَفَّفَها الناسُ وقالوا : « سامَراَّء » ومن طريف ما ينقلُه بشأنها عن المقدسىِّ قوله : « لمَّا عُمِّرت سامَراَّءُ وكَمُلَتْ .. سُمِّيَتْ «سرُور مَنْ رأى» ثم اختُصرت فقيل : «سُرَّ مَنَ رأى» فلما خُرِّبَتْ وتَشَوَّهَتْ خِلْقَتُها سُمِّيَتْ « ساءَ مَنْ رأى» ، ثم اختُصرتْ فقيل : «سامَراَّء» ، ولزميلنا الجليلِ الدكتور إبراهيم السامَرَّائىّ الذى يُنْسَبُ إلى هذه المدينة تحقيقٌ لاسمها ، مع أعلام جغرافية عراقية أخرى .

ويتطلَّبُ البحثُ فى «الأعلام الجغرافية»- بعد العلم اللغوىّ - علماً واسعاً بالتاريخ : أحداثه وأعلامه ؛ فكثيرٌ من الأسماء الجغرافية يَنْتَسِبُ إلى حَدَث تاريخىّ ، كاسم « جبل المكبِّر » القريب من القُدس الشريف ؛ فقد سُمِّىَ بهذا لأن الخليفة الراشد الفاروقَ عمر بنَ الخطاب - رضى الله عنه - وقف على هذا الجبل مستشرفاً بيت المقدس وهو يصيح مرَدِّداً «الله أكبر»، وتعالت معه تكبيرات المسلمين ؛ فسُمِّى الجبلُ « جبلَ المكبِّر » . ومدينة «الفُسطاط» - العاصمةُ الأُولى لمصرَ العربية الإسلامية - قصة تسميتها بهذا الاسم معروفة

ومِثْلُ ذلك كثير فى أعلامنا الجغرافية على مدى عصور تاريخنا العربىّ ، حتى نصل إلى عصرنا الحديث ، حيث يُطالِعُنا اسمُ « مدينة العاشر من رمضان » ، الذى يحملُ ذكرى أعظم نصر عربىّ فى تاريخنا المعاصر :

وقد ترتبُط الأعلامُ الجغرافيةُ بأحداثٍ طريفة ؛ فقد كانت « القيروانُ» عاصمة تُونُسَ الشقيقة ، ولكنَّ مَلِكَها إبراهيمَ بنَ أحمدَ بنِ الأغلب اسْتَعْصَى عليه النومُ فيها ليالىَ وأياماً عديدة ، فغادرها ضائقا بها وبنفسه ، إلى حيث يَتَلَمَّسُ الراحة فى رحاب الصحراء ، ويَتَنَسَّمُ هواءَها الطَّلْق ، فاستقبلته الصحراءُ السمحاءُ بالرَّحْب والسَّعَة ، ففُوجِىءَ بالأرق والسُّهاد يَشْرُدان منه فى رحاب الصحراء الواسعة ، وبالنوم العَصِىِّ الحَرُونِ يلِينُ له وينقاد ، واستغرَقَتْه لَذّةُ الرُّقادِ ، التى هَجَرَتْه طويلا .. ثم استيقظ الملك الأغلبىُّ من رقاده الهنىء ، وقد استجمعَ قُواه ، واستردَّ عافيتَه واستعاد بهجتَه ، فَأمرَ بإنشاء مدينةٍ فى هذا الموضع سَمّاها «رَقّادَة» ، جعلها قاعدةَ مُلكِه وحُكْمِه ، وكان ذلك عامَ ثلاثة وستين ومئتين من الهجرة الشريفة ، وصارت « رقّادةُ » من أجمل المدن وأحفلِها بالعُمران فى عصره ، كما صارت « رقّادةُ » حاضرة بلاده الثقافية ؛ فقد أنشأ فيها « بيتَ الحكمة » ، الذى حفل بالعلماء والأدباء والطُّلاّب ، فصار مجمعاً وجامعة « وأقبل إليه طُلاّبُ العلم من أوربا ، وبخاصة من إيطاليا وفرنسا ، وبهذا نَهَضَتْ من « رقّادةَ » حضارةٌ علميةٌ وأدبيةٌ عَبَرت البحرَ المتوسطَ إلى أوربا ، بل إن أثَرَ « رَقّادةَ » يمتدُّ إلى عصرنا الحاضر ، حيث تسَمَّى مجمعُ تُونُسَ الشقيقُ باسمِ « بيتِ الحكمةِ »، الذى أُنْشِىءَ فى رَقّادَة » ! .

وإذا كان هذا من قصص الواقع الحقّ ، فهناك من قَصَص الأساطير كثير ؛ فيقال - على سبيل المثال - فى سبب تسمية « عَرَفةَ » أو « عرفات » إنَّ آدمَ وحواءَ- عليهما السلام- تعارفا فى هذا المكان بعد نزولهما من الجَنّة كما نُسِجتْ أُسطورةٌ أخرى فى تسمية مدينة « جُدَّة » ، نَسَبَتْها إلى جَدّتنا حواء !

وبين جُدَّةَ وعرفةَ اختلطت الحقيقةُ بالأسطورة حول أعلام جغرافية أخرى ، مثلِ «أجياد » و« قعَيْقِعان » ، وهما بمكة المكرمة ؛ فقيل فى « أجياد » إنه سُمِّىَ بذلك لأن تُبَّعاً رَبَطَ فيه خيلَه حين قَدِمَ مكة ، وقيل : لأنه الموضعُ الذى كانت فيه الخيلُ التى سخَّرها الله لإسماعيل عليه السلام . وقيل فى « قُعَيْقعان وأجياد » : إن الحرب حين وقعتْ بين الحارث ابن مضاض والسَّمَيْدَع ، خرج الحارثُ من الموضع الأول فتقعْقعَ سلاحُهُ فَسُمِّىَ بـ « قُعَيْقعان » ، وخرج والسَّمَيْدَعُ بخيله من الموضع الآخر فسُمِّىَ بـ « أجياد » ، وقيل غيرُ ذلك مّما يَسْتَصْفى حقائقَه العلمية عَلاَّمةُ الجزيرة شيخُنا « حمد الجاسر » عضو مجمعنا وكذلك زميلنا عبد الله بن خميس .. وغيرهما من جغرافيِّ الجزيرةِ العربيةِ ، فيجعلون زَبَدَه يَذْهَبُ جُفاءً ، ليمكثَ من علمهم ما ينفعُ الناس .

وكم من أعلام جغرافية أخرى فى سائر بقاع الأرض لها قصصُ وأساطير ! وقد تُسَمَّى بعضُ الأعلام الجغرافية باسم حقيقتها اللغوية ، كما سُمِّيَتْ « تُهامةُ » بهذا الاسم لانخفاضها حيث يشتَدّ حَرُّها ويَركُدُ هواؤها ، وسُمِّىَ « نَجْدُ » بهذا لارتفاعه ، وسُمِّىَ « الحجازُ حجازاً » لأنه يَحْجزُ بين « تهامة » و« نجد » . وينتسب كثيرٌ من الأعلام الجغرافية إلى أعلام إنسانية ، لها ذكْرٌ مأثور ؛ كما سُمِّيَتْ مدينةُ « الخليل » باسم إبراهيم الخليلِ عليه الصلاة والسلام ، وسُمِّىَ الجبل الذى رسَا عنده أسطولُ طارق بنِ زياد باسم «جبل طارق» كما سُمِّيَتْ مدنٌ ومواضعُ أخرى باسم مُنْشِئِيها أو مُكْتَشِفِيهَا ، وهى كثيرةٌ شَهِيرة .

وللناس - أحيانًا - وَلَعٌ بالتَّنَدُّرِ فى تسمية بعض المواضع ، وبخاصة فى مصر التى طُبع أهلُها على الفكاهة ؛ فنرى فى القاهرة «شارع أمِّ الغلام » « وسِكّةَ بير المِسّن » ، «ودرب المهابيل» و «دربَ أبى طَبقَ» « ودربَ غريق الزيت » ، « وقنطرةَ الذى كفر » التى سمَّوا باسمها « شارع قنطرة الذى كفر » بل صيَّروا للكلاب قلعةً ، فقالوا : « قلعة الكلاب» ، وسمَّواْ شارعاً باسم « شارع كُوعِ القرد » ، ولم يَسْلَم الجنُّ من إنْسِ القاهرة ؛ فَسمَّوا شارعاً باسم : « شارع الجنّ » بل إن مَلَكَ الموت « عزرائيلَ » نَسَبُوا إلى اسمه موضعاً بالقاهرة فقالوا : « عطفة عزرائيل » !

ولاأظُنُّ العديدَ من البلاد العربية فى المشرق والمغرب ، سَلِمَتْ من تَنَدُّرِ أهلها ، فى تسمية بعض أعلامهم الجغرافية ، التى تُشير أسماؤُها إلى أحداث فى مجتمعاتهم العربية .

أما البحثُ فى تحريف الأعلام الجغرافية الذى يكشف عن ظواهرَ صوتية يُعْنَى بها علماءُ الصوتيات واللهجات - فإنه يكشف

كذلك عن دوافع سياسية وراء هذا التحريف أو التغيير ؛ كما أصاب بعضَ الأعلام الجغرافية الأندلسية ، حيث غُيِّرتْ « طُلَيْطلةُ » إلى « تُوليدُو » و« غَرْناطةُ » إلى «جرانادا» « جبلُ طارقٍ » إلى « جيبر الْتار » !

وفى عصرنا الحاضر تطالعنا فى فلسطينَ الشقيقةِ « يهودا والسافِرة » بدلاً من الضفة الغربية» ، و «أورْ شَليم» بدلاً من «القدس» الشريف ، ومدينةُ « خَبْرُون » بدلاً من مدينة «الخليل» أما قرية « دَيْر طَرِيف » فقد غُيِّرَ اسمُها إلى « كَفَار ترُوحان » الرئيس الأمريكيِّ الذى فى عهده أنشئت إسرائيل ، وكمْ غُيِّرتْ من أعلام جغرافية فى الجمهوريات الإسلامة السِّتّ ، التى ظَفِرتْ باستقلالها بعد انهيار الاتحاد السوفيتى !

أيها السادة :

إن ما يُثيرُ الأسى والعَجَبَ أن أعلامنا الجغرافيةَ العربية ، بعد أن اعتراها ما اعتراها من تغريب واغتراب ، أخذ بعضُنا يستوردُها بفرنَجَتِها وقُبَّعاتِها ، ثم يجعلُها - دون استحياء - أعلاماً على مواضع ومَحالَّ عربية مثلَ « تُوليدُو » و « جرانادا » بدلاً من «طُليطلةَ» ، و« غَرْناطةَ » ، كما أشرتُ من قبل ، ومثلَ « الهَمْبرا » بدلا من « الحمراء » اسمِ قصرِ غَرْناطة « المشهور بالأندلس » .. وغيرُ ذلك كثير !

بل إنَّ منّا مَنْ يستعمل « كازابلانكا » بدلاً من « الدار البيضاء » اسمِ العاصمةِ الاقتصاديةِ للمغرب الشقيق ! .

وكما أوَدُّ - ياسيدى الوزير - ألاَّ تَنْسَى ما خاطبتكم به فى افتتاح مؤتمرنا السابق ، وأن تَدَعَ لنا من شَواغلك وقتاً تُنْجِزُ فيه ما حَمَّلَكم إيّاه المجمعُ من أمانة إصدار التشريعِ الذى يَشْفِى القاهرة من هذا الوباء الذى اسْتَشْرَى داؤه ، بهذه الأسماء الأجنبية التى تَبْدو كالبُثُور فى وجه القاهرة العربيِّ الجميل ، كما يرجو المجمعُ أن تكونوا قد استجبتم له بشأن درجات اللغةِ العربيةِ فى إعلاءِ شأنها بين سائر الدرجات للموادِّ الدراسية .

وشكراً لكم أيها السادة والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

إبراهيم الترزى

الأمين العام للمجمع

كلمة الأعضاء العرب

للأستاذ الدكتور إبراهيم السامرائى

عضو المجمع من العراق

أقول : : والله لولاحرصى على أن أحضر مؤتمر المجمع ولقاء إخوانى وأساتذتى العلماء والأعلام وإفادتى من علمهم ومما يقدّمون من زاد وما يبسطون فى متاع لعدلت عن المجىء إليه لأنى منذ أربع سنوات آتى إليه فأشهد فى مطار القاهرة العذاب ، فقد أبقونى فى المرّة الأولى قبل أربع سنوات خمس ساعات ثم سمح الرجال الشداد الغلاظ أن أخرج مع وجود أحد الإخوان من موظفى المجمع فى استقبالى ، وهكذا فى كلّ عام ، ومازال هذا دأبهم معى لأنى معدود من القرية الظالم أهلها ، ولايدرون من أمرى وبُعدى عن السياسة وأين منى هذه ولاطوق لى أن أضرب فى مضطرب لست فى أهله .

لقد وجدتنى مضطراً أن أعرض لشىء صرفنى عن كلمة بى حاجة إليها هى أن أتوجه بتحيتى باسم الأخوة العرب من أعضاء المجمع لمجمعنا العتيد الذى مافتئ أهله وحماته يحرسون حمى العربية وأنى لأجد فى هذه اللغة التى كرّمها الله فجعلها الصوت العلى فى لغة التنزيل العزيز ميثاقاً يجمع هذه الأمّة التى فرّقتها أنظمة الحكم ليس فى عصرنا هذا بل منذ عصور خلت حتى قال أحدهم فيها فى القرن السابع للهجرة :

عُرْبُ رأيتُ أصحَّ ميثاقٍ لهم

ألاّ يصحَّ لديهمُ ميثاقُ

دع عنك هذا وأمسكْ بلغتكَ واجعلها ميثاقاً تجتمع عليه الأمة فتجمع شتاتها فتكون خير دليل على حضارتها ، ومتى نعى هذا ونصل إلى شىء نرضاه ؟

وإذا كنا أدركنا هذا فلنا أن نولى لغتنا ما تستحق ندرس قديمها ونقف على ماكان قد صنعه الأوائل ونفيد مما أنجزوا ، ولا نحسب

أنهم مبرّءون عن الخطأ إذ كل ابن آدم خطّاء ، وحسبهم أنهم أخلصوا النية وسلكوا الجدد فأمنوا العثار . وإذا كان هذا فعلينا أن نمضى فى المسيرة ونستدرك ما لم يتأتَّ لهم أن يدركوه .

إن عصرنا هذا يفرض علينا أن نرمّ بناء لغتنا التى جهلنا من خصائصها الكثير ، وأن نعود إلى ما كان للأوائل من إنجاز فنكمل النقص ونرأ الصدع ونرمّ البناء . ألم نرَ أن العربية محتاجة إلى أن يكون فيها جديد يقدر بالآلاف فقد عرفنا فى تقارير الأمم المتحدة أن العلم الجديد يُضاف إليه فى كل عام أكثر من ستة آلاف مصطلح ؟

إذا كان هذا فعلينا أن ندرك أن عربيّة عصرنا هى العربية المعاصرة ، وهى بناء جديد ولا أقول إنها انقطعت عما ورثناه من عربية ، ولكننا شئنا أم أبينا قد عُوِّدنا على عربية جديدة فلا يكون موضع فيها لما عُدَّ خطأ فى مطلع هذا القرن . لقد درجنا على أساليب جديدة فتغيرت الدلالة وابتعدت الأبنية ، وصار ماكان مرفوضاً منذ ربع قرن مقبولاً . وإذا كنت أعتقد ويعتقد معى أهل الحفاظ أن لخطبة الجمعة أسلوباً خاصاً تجتمع فيه آية كريمة وحديث شريف وقول مرسل مأثور وكلمات تردّدت فى أدبنا القديم ، فكيف نصدق أن من خطباء الجمعيه فى هذه الأيام من يستعمل مايدرج به الصحفيون ، فقد سمعت من يقول فى خطبته : « إن الأكثرية الساحقة من المسلمين لايعرفون حدود الله » . أقول : من أين لهذا الخطيب هذه العجمة ؟ وسمعت آخر من دعاة المعاصرة والحداثة يقول : إن الرئيس فلاناً يذرف دموع التماسيح .

أقول : إذا كنا قد وصلنا إلى هذا الحدّ ، وغفلنا عما كنّا نردّد من أن لكل مقام مقالاً ، فهل لنا أن نعود فنوطّن أنفسنا فنؤمن أن عربية العصر جديدة ينبغى أن نقف عليها وندرسها ؟

على أنى أعود فأقول : علينا أن نجد الوسائل فى العلم فيكون منا فهم للأصول من تراثنا فى نهجٍ نسلكه دون أن نضطرب فيه لنصل إلى الجديد .

إن هذا المنهج قد سلكه الأوائل ألاترى أنهم قد وطنوا أنفسهم على قبول لغة المولّدين بعد أن غبر عهد كانوا يرون فيها جحوداً وتنكّباً عن الصراط .

وإنى لأحيى مؤتمر المجمع الذى دأب على الجدّ وأدرك هذا الذى ألمعت إليه .

أذنبي ... أدبي ؟

أذنْبِي أنْ سَمَا أدَبي
وأنْ أشْرَقْتُ في كُتُبي ؟
وأنّ جَريرتي أنّي
جَعَلتُ العِلْمَ مُطّلَبي
وأنّي قد سَعَيتُ إلى
رهانٍ سَعْيَ ذي أرَب
فهل أدركْتُ بعضَ الفوز(م)
أو قاربْتُ من قَصَبٍ ؟
وقد يلقاكَ من أمَرِىَ (م)
مايلقاكَ من عَجَبِ
إذا ماجاءكَ الخطبُ
بما ألقاهُ من نَصَبٍ .
وأني قد ألِفْتُ سُرىً
على جسرٍ من التّعَبِ
يكادُ الهَمُّ يألَفُني
وآلَفُه على وصَبِ
كأنّي قد وَجَدتُ به
أخاً ألفيه في النُوَبِ
فلا يَأخُذكَ من أمرىَ (م)
ما يدعو إلى الرِّيَبِ
وأنّي قد سلكتُ الصَّعْبَ (م)
أرقَى كلَّ مُنقَلَبِ
يقيناً أن أصيبَ هُدًى
فلا أشقَى بمُضْطَرَبِ
فإنْ تَرَني قَصَدْتُ الهَمَّ (م)
أرمي رَمْيَ مُحْتَرِبِ
فلي درْعٌ منْ الصَّبر
يَقيني غَولَةَ الحَرَبِ
وهل في الصَّبرِ عافيةٌ
تُداري ضَيمْ مُغْتَرِبِ ؟
أطيحَ به إلى هَجَرٍ
كَئيبٍ غامرٍ تَرِبِ
فهَمَّ بأيِّ مُلتَهِبٍ
من الآهات مُجْتَلَبِ
يكُفّ الطَّرْفَ أن يَسكُبَ (م)
وقْداً غيرَ مُنسَكِبِ
غدا من عامرٍ نَزِهٍ
كريم الرّوض مُؤتَشِبِ
إلى أين ... ؟ يُجيلُ الطَّرفَ (م)
يُذكّي هِزّةَ الطَرَبِ
بهِ مِن شاردٍ عَجِلٍ
إلى صادٍ بِهِ نَصِبِ
يُؤرِّقُه انتظارُ الطَّيْفِ (م)
مَرْمَياً إلى هَرَبِ

وقد تَصرَعُه الحيرة (م)
ما وافَتْهُ من غضَبِ
وماذا يبتغى المُوجَعُ (م)
هل يَسْعَى إلى غَلَبِ ؟

* * *

حَمَلْتُ هَوًى إلى الأردُنِّ (م)
لم أحْرِمْه من أدَبى
وأخْلَصْتُ إليه الدرْسَ (م)
مِمَّا نِلتُ فى طَلَبى
وباركْتُ له زادىَ (م)
ما أوْعَبْتُ فى كُتُبى .

* * *

ومن ثَمَّ عرانى الهَمُّ (م)
فى طيفٍ وفى سَبَبِ
حَدانى الوجدُ فى نَبَأٍ
إلى سَبَأٍ إلى سَرَبِ
ومِلْتُ إليه لا أدرى
أحمولٌ إلى عَطَبِ .
أمِ الأيامُ تسلبُنى
بقيَّةَ شَوطِ مُكتئِبِ ؟
وقلتُ لعلَّ فى « يَمَنٍ »
بعاداً غيرَ مُرتَقِبِ
أصيرُ إليه لا زُلْفَى
ولامَلْقاً لُمنتَجَبِ

وكنت وكانَ من قَدَرى
ضَنَّى يُومِى إلى شَجَبِ
ورُحْتُ أعُدُّ بُعضَ اليوم (م)
أُلفيه من الحِقَبِ
وقد واجَهْتُ من حالَىَّ (م)
فى رَغَبٍ وفى رَهَبِ
وما باليتُ من أمْرىَ (م)
فى جِدٍّ وفى لعِبِ
كأنى قد لَمَسْتُ الصدق (م)
يُطرى بُردَةَ الكَذِبِ
فَلمْلَمْتُ إبائى وهو (م)
من زادى ومن حَسَبى .

* * *

وإنى مَعْ رصيدٍ لىَ (م)
من عِلْمٍ ومن نَسَبِ
لألْفَى أنّ فى هذا
وذا من عَسْكَرٍ لَجِبِ
وإنى ، وشُواظ الداء (م)
يُورى خامدَ اللَّهَبِ
لأ صْعِدُ رَتْلَ أنفاسى
يَرِينُ علىَّ فى صَبَبِ

أزِحْ مـــارَثَّ مـن هَـمٍّ
وخُـذْ مـاكـان من كَـثَبِ
فـإنّ عـجـائبَ الدُّنيـا
بَدَت فى عـصـرنا الخَـرِبِ
فـهل تَقـسـو فـتظلِمَنى
إذا شـمـرّتُ فى أدَبى ؟
أقِلْنى بعضَ هذا الظلمِ (م)
وانسُـبْنى إلى النُّجُبِ
إلـى القـوم الذيـن هُـمُ
عَلَوا قـدْراً مِن العَـرَبِ
غُـذُوا بالطِّيبِ من كَـرَمٍ
ومـن أمٍّ لـهـم وأبِ

ولا تعـجَبْ إذا مـا كـانَ (م)
فـيـهم أشـرَفُ الرُّتَبِ
فـفـيـهمْ كلُّ مُنْتَخَبٍ
وفـيـهم كلُّ مُـحْـتَـسِبِ
ولَسْتُ بمُحْرزٍ مـاهامَ (م)
فـيـه القـومُ من نَشَبِ
سِوَى وَلَهى ببنتِ الضـادِ (م)
قـد أوعَـبْـتُـهـا خُطَبى .
وعِـرْقٍ زانَنى شَـرَفـاً
وُصِلتُ بـهِ بخـيـر نَبى

إبراهيم السامرائى

عضو المجمع

من العراق

٥ - لغة الشعر ...!

(تحية إلى مؤتمر المجمع)

قصيدة للأستاذ حسن عبد الله القرشى

سَطعتْ منذُ بدتْ شمسُ زَمانِ ... لغـةٌ خـارقـةٌ مُـعْـجِـزةٌ
وزَهَتْ وهَّاجَـةٌ بالصَّـوْلجـانِ ... جَمَعَت آلاؤُها شَتَّى المعَـانى
عَـذُبتْ فجـراً ، وعِطراً ، وندًى ... لغـةُ الشِّعـرِ وكَمْ من حِكْمـةٍ
وسَمتْ كـالدُّرِ فى جِيدِ الحِسانِ ... صاغَها الشِّعر لِبؤسَنى أولَيَانِ
فى نَسـيجٍ عَـبـقَـرىٍّ أزْهَرتْ ... أنزلَ اللَّه بِهـا فُـرقَـانَهُ
مِثلُ ما أخْصبَ زَهْرُ الأُقْحوانِ ... يَتـفـذَّى من سَنَاه الثَّـقَـلانِ
صـانَهـا الخـلاَّقُ مـا أعظمَـهُ ... هُوَ دُستُـورٌ لمنْ قـد حَكَمُـوا
فحوتْ من فَضْله عَذبَ المجَانى ... صَـالِحٌ للخَلْقِ فى كُلِ مَكانِ
وَجـلـتْ آيـاتِـه بَـاهِـرَةً ... لوتمسَّكْنابه لانقـشَـعتْ
وَهداهُ الفذُّ ، والسَّبْعَ المثـانى ... غُـمَمٌ ، وانجابَ إعْصـارُ الدُّخانِ
قـد تولاَّهَا بهـا ليلُ النُّهَنى ... وَمَـشْـينا قـمـماً شَـامِخَـةً
مُـثُـلاً عُلْيـا . وأقطابَ بَيـانِ ... فَوْقَ هَامِ الكوْن فِى رفعةِ شَانٍ !
باشـتـقـاقٍ ، واصطِلاحٍ فَـبـدتْ ... مَنَ عـذيرى . والمَصَـابيحُ خَـبتْ
تتـهـادَى غَـادةً فِى المِهْـرَجانِ ... والأناشيدُ غَـدتْ رَهْنَ هَوانٍ ؟
إنَّهـا الفُـصْحى وأكْـرمْ بالَّذِى ... والمآسِى شُـرَّعٌ لاتَنْتَـهِى
فَجَّرَ الفُصْحى على خَيرِ لسانِ ... والمناراتُ أسِـيـراتُ ارتِهـانِ

ألقيت هذه القصيدة فى الجلسة الافتتاحية لمؤتمر المجمع بتاريخ ٢٦ من شوال سنة ١٤١٥ هـ الموافق ٢٧ من مارس (آذار) سنة ١٩٩٥ م .

ورِفَــاقُ الجُــرْحِ فيِ غَــفْــوتهمُ
سادرُوا الأحْلام. مَحصورُ والكيانِ !

***

يابنى الإسـلام يا هَدْى الورَى
والمجدُّونَ لِتـحـقـيقِ الأمَـانى
والألُى كَمْ رَفَــعت أمَّــتُـهُمْ
رايةَ الفَــتْحِ بأطرُافِ السِّنانِ
بَهَــرُوا الدُّنيــا بإرغـام العـدى
لم يَلينوا لِوَغًى أو عُنْفُــوانِ
قَــد مُنينا بسَــلام شَــائه
الشَــريكان بهِ مُنقَــبِضَــانِ
هُو سَلْمُ خَــادعُ مُنكفِئُ
سوفَ ينهارُ صَريعاً فى الرِّهانِ
جـاءَ كى تضلعَ فــيــه أمَّــةُ
نَســيتْ أمــجــادَها أخْطرَانِ
وَمَــشتْ حــائرةً هــائمــةً
كـحـصـانٍ شَبَّ من غَـيـرعِنانِ
شَرقت ، واستسلمْت حتَّى غدَتْ
رَهْنَ خِذْلانٍ ، وذلٍ ، وامـتـهـانِ
(الزغـاريدُ) به مُـقْـبضَـةُ
والتـحـيـاتُ وليـداتُ اضْطغَـانِ
أى سَلْمٍ ضَـائعٍ مُنْحــرفٍ
أخرسٍ رُغْمَ صَـفَـاقـانِ القِرانِ

فانتهاكُ (القُدْس) يُدمِى كَبدِى
فَـهْى و (الكعبةُ) دَوْمًا توأمانِ
وعَلى (الجوْلانِ) أطيافُ الوَغَى
فـ (يَهوذا) صِيغَ من حَرْبٍ عَوانِ
شِـرعَــةُ الحقِ أمَــانٌ خـالدٌ
لَيْس من غــدْرٍ به أوْ شَنآنِ
وَرُؤى عُـلوِّيـةٌ من مَــــلأٍ
آثروا شِـرعـتَـهم دُونَ امـتـنانِ
حَـفِظوها ذِمَّـةً من (أحْـمـدٍ)
ورعَـوها فى تضـاعـيفِ الجَنانِ
هى إرْثُ الغَـد للجـيـل الَّذِى
عَاشَ مـحفـوفًـاً بنار الحدَثَانِ !

***

جئتُ أسَتنْخى الألى فىِ مَجْدهِمْ
صَـعْـقَةُ الشُـهْب وأشْذاءُ الجِنانِ
أمَّـةَ العُـرْبِ ومـا شَطَ المدى
(خالدٌ) منهم أخو السَّيفِ اليمَانى
و(علىٌ) منهـمُـو فَـذُّ الحِـجى
مَن أضَـاءتْ مـن سَناه النيِّـرانِ
و(الرشيدُ) النجدُ مِصباح الدُّجىُ
وابنُه (المعْتَصِمُ) الماضى الطِّعانِ
والبـهـاليلُ بتَـاريخٍ حَـوَى
مُـثُلَ العِـزَّةِ غـابَ السنْديانِ

أنْ يُفيقوا من رُؤَى غشْيتِهم

ويُعيدوا عَهْد قربَى وتداني

ويَفيئُوا لالتمام ، وَهُدًى

فهم الأعْلَونَ فى كلِ امتحانِ

إنَّ نَصْر اللهِ مَعقودٌ لنَا

إنْ نَصرناهُ .. بظلِ المعمعانِ !

* * *

(مَجمع الفُصحَى) أتينا زُمَراً

نتروَّاكَ شذَى أثْلٍ وبَانِ

نَتراءك تُراثاً عَبِقاً

ونرَى الماضِىَ موصلَ الأوانِ

حَقَل الماضى بأفذاذِ النُهَى

وسَمَا الحاضِرُ بالفِكْرِ المُصَانِ

ونحيِّي فيكَ حِصناً باذخاً

شُعلةُ المجدُبه ذُخْرائتمانِ

كلَّ عامٍ نَجتلى مُؤتَمراً

تَرتَدى فيهِ عُقوداً من جُمانِ

وتُباهي بالألَى قد وَفَدوا

لِلقاءٍ حَفَّه الشُوق المُدانى

لَهُمو من عِلْمِهم مَنزلَةٌ

فذَّةٌ ميد إشارات البنانِ

عِشْتَ للفُصحى مَلاذاً خالداً

رَمْز إعْجازٍ ، ونبراسَ افتنانِ !

حسن عبد الله القرشي

عضو المجمع المراسل من السعودية

بحوث ومحاضرات

أولاً : بحوث
ألقيت فى المؤتمر

الإدريسى

صحاب « نزهة المشتاق إلى اختراق الآفاق » ★

للأستاذ الدكتور عبد السميع محمد أحمد

يصف المسلمون العرب « علم الهيئة » فيقولون إنه علم وصف الأرض : ساكنها ومتحركها ، بحارها وأنهارها وخلجانها ، رياحها العاصفة ونسميها . ولم يسمها المسلمون « جغرافيا » كما كان يسميها بطليموس(١) . وأول وجود علم الهيئة كان برسم صورة الأرض على أساس قياس خطوط الطول والعرض ، وأول من رسم الأرض على هذا الأساس محمد بن موسى المعروف بالخوارزمى فى زمان المأمون فإنه عين مواقع المدن والبحور بالدرجات مبنية على علم الفلك ، ثم ترك المسلمون العرب المقاييس بالدرجات وصاروا يرسمون الخرائط اعتماداً على زوايا يضعونها فى مقدمة رسمهم فاختلط بذلك موقع المدن كما حدث فى أوائل القرن الرابع الهجرى حين رسم الخرائط أبو زيد البلخى ثم رسمها بنفس الطريقة ابن حوقل والإصطخرى والمقدسى فى أواسطه .

على أن الأبعاد بين المواقع حددت بعد ذلك ، وأقدم من عينها جماعة منهم الإدريسى .

والإدريسى هو أبو عبد الله محمد بن محمد عبد الله بن إدريس الحمودى الحسنى ، على اختلاف المؤرخين .

وقد توفى الإدريسى فى عهد روجار الثانى ، وبناء على أمره ، على كتابة كتابه : نزهة المشتاق إلى اختراق الآفاق» ، على اختلاف فى عنوان كتابه .

---

(١) أول ماسميت « جغرافيا » فى العصر الحديث سنة ١٣١١ م . - دائرة المعارف الإسلامية .

★ ألقى هذا البحث فى الجلسة الثالثة من مؤتمر المجمع بتاريخ ٢٧ من شوال سنة ١٤١٥ هـ الموافق ٢٨ من مارس (آذار) سنة ١٩٩٥ م .

وقد نَشَر هذا الكتاب كاملا العالمُ الإيطالى جوزيبى توتس بدءا من سنة ١٩٥٥ حينما اتفق مع مطبعة الحكومة الإيطالية على نشر كتاب علمى ، وكوّن له لجنة من العلماء درست الكتاب باهتمام والتزام بقواعد العمل فى نشره إلى جانب لجنة باشرت العمل ، تحت رعاية المعهد الإيطالى لدراسة الشرقين الأوسط والأقصى .

وأخذت لجنة العمل تجوب الآفاق للبحث عند أصوله وبقايا المخطوطات بالمكتبة القومية بباريس وبمكتبات بودلين وصوفيا واسطنبول والقاهرة والموصل ولينينجراد وجمعت أصوله وقارنت بينها وضحت نتائج مقارناتها ورموز أصحاب هذه المقارنات فى هوامش الكتاب [١] .

وذكر الإدريسى ، وهو من نسل النبى (صلى الله عليه وسلم) ومن ثم يلقب بالشريف، فى مقدمة كتابه ويبلغ تسعة أجزاء من القطع الكبير : « إن أفضل ما عنى به الناظر واستعمل فيه الأفكار والخواطر ماسبق إليه الملك المعظم رجار المعتز بالله المقتدر بقدرته ملك صقلية وإيطالية وإنكبردة وفلورية (معز) إمام رومية الناصر للملة النصرانية إذ هو خير من ملك الروم بسطاً وقبضًا وصرف الأمور على إرادته إبرامًا ونقضاً ودان فى ملته بدين العدل واشتمل عليهم بكنف التطول والفضل .... وافتتح البلاد شرقاً وغربا وأذل رقاب الجبابرة من أهل ملته بُعداً وقربًا بما يحويه من جيوش متوافرة العُدد والعَدد وأساطيل متكاتفة متناصرة المدد صدق فيها الخُبر الخبر وتساوى فى معرفتها السمع والبصر ... ثم جمع إلى كرم الأخلاق طيب الأعراق مع شجاعة النفس وصفاء الذهن وغور العقل ... والمعرفةِ بتصاريف الأمور من نهاية الفهم الثاقب ومراقبة كالهم الصائب ... »

وفى هذا النص يذكر الإدريسى فضائل رجار الثانى ، ابن رجار الأول فاتح جزيرة صقلية «ومنتزعها من يدى العرب بعد أن بقيت معهم نحو ثلاثة قرون ، كما تقول هونكه فى كتابها » .

شمس الله تطل على الشرق ، الذى ترجمه إلى العربية الدكتور فؤاد حسنين . وقد ظلت المعالم العربية سائدة حتى بعد فتح الجزيرة ، ومن أبرزها هذا الكتاب

---

(١) ترجمت هذه المعلومات من الإيطالية أ . د . سوزان بديع إسكندر أستاذ الأدب الإيطالى والترجمة بكلية الألسن ، ج . عين شمس .

العربى اللفظ البليغ الكلمة . وسنعود إليه إن شاء الله ، بعد قليل .

ومن مزايا النص أنه يزكر فى شوال سنة ٥٤٨ هـ . الموافق يناير من سنة ١١٥٣ م . اهتمامه بمآثر الملك رجار وتوحيده الشرق والغرب . (على ماذكر الإدريسى » وأساطيله المحيطة ، وبلاده التى أحاط بها ، وأخلاقه : من العدل ، وطيب الأعراق ، وعطاياه الزواخر .

ويذكر معرفته بالعلوم والرياضيات ، فيقول الإدريسى :

وأما معرفته بالعلوم الرياضيات والعمليات فلا تدرك بعد ولاتحصى بحد ... فمن بعض معارفه السنية ونزعاته الشريفة العلوية أنه كما اتسعت أعمال مملكته وتزايدت همم أهل دولته وأطاعته البلاد الرومية . وأحبَّ أن يعرف كيفيات بلاده حقيقة ويقتلها يقينا وخبرة ، ويعلم حدودها ومسالكها برا وبحرا وفى أى إقليم هى وما يخصها من البحار والخلجان الكائنة بها مع معرفة غيرها من البلاد والأقطار فى الأقاليم السبعة ... بطلب ما فى الكتب المؤلفة فى هذا الفن من علم ذلك كله » ...

وفى النص السابق يجد القارئ معلومات رجار الرياضية ، وحبه لمعرفة حدود بلاده الخاضعة له ، وحدود غيره من الأقاليم السبعة ، والكتب والمراجع التى قرأها وراجعها الإدريسى . وأجاب الإدريسى عن ذلك كله .

إن السبب الحقيقى الذى دفع الإدريسى لكتابة ماكتب هو قراءته بعض المراجع التى لم يجد فيها طلبته ، فلم يجد الوصف الذى يصف به الأقاليم السبعة : نظام الحدود والمسالك لها ، وما يختص به كلٌ بلد من عوائد ، وتجارة ولغة ، وما يختص بمؤا كلاتهم وما يخص الخارج والداخل فيها .

وإن السبب كذلك أمر رجار له بأن يترجم كل ذلك فى كتاب ، شأن جميع الكتاب حين يضعون أسباب لكتبهم .

وكذلك فيما صنعه رجار من من كرة الفضة الخالصة تكون عنوانا لملكه ولما يصفه فيها ، من وزن أربعمائة رطل رومى ، كل رطل منها مائة واثنا عشر درهما ، وأن ينقل العمال فيها صور الأقاليم السبعة وأقطارها ، وسوقها وريفها ، وخلجانها وبحارها ، وعامرها وغامرها ، وما بين كل بلاد منها من طرق

ومسالك ، وأن يرسم كل شئ على « هيئته وصورته ، وأن يُؤلَّفَ له كتابٌ يجمع كل ذلك ؛ وسمى هذا الكتاب باسم يختاره هو ، «نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق » .

أما الكتب التى قرأها الإدريسى ولم يجد فيها طلبته فقد عددها بنفسه فى كتابه ، وهى :

كتاب «العجائب» للمسعوى (ت ٣٤٦ هـ .) ، وكتاب أبى نصر سعيد الجيهانى، وكتاب أبى القاسم عبيد الله بن خَرّداذبة (ت أواسط القرن الثالث الهجرى » وكتاب أحمد بن عمر العذرى ، وكتاب أبى القاسم محمد الحوقلى البغدادى (أواسط القرن الرابع الهجرى) ، وكتاب خاناخ بن خاقان الكيمائى ، وكتاب موسى بن قاسم القردى ، وكتاب أحمد بن يعقوب المعروف باليعقوبى (ت ٢٧٩ هـ . [١]) ، وكتاب إسحق بن الحسن المنجم ، وكتاب قدامة البصرى ، وكتاب بطلميوس الأقلودى وكتاب أرسيوس الأنطاكى .

والأقاليم السبعة التى عناها الإدريسى وغيره ممن ألف فى علم الهيئة أو فى الجغرافيا فتبدأ من بحر الظلمات (المحيط الأطلسى) وتنتهى ببحر الصين ، ومن الجنوب الربع المسكون من الأرض . وقد وصف الإدريسى فى كتابه شكل الأرض بعد ما قدم أن خط الاستواء يقسم الأرض قسمين وأن الجغرافيين يتبعون ماذكره بطلميوس الأقلودى وماكتبه غيره ممن ألف فى علم الهيئة ، وأن هذه الأقاليم السبعة كانت معروفة لدى المؤلفين المسلمين العرب ، وكانت معروفة لدى صاحب معجم البلدان وأشار إليها كثيرا .

وبعد المقدمة لكتابه يبدأ الإدريسى حديثه عن الإقليم الأول بقوله : « وها هنا نفضى إلى ذكر الجزء الأول من الإقليم الأول والحمد لله رب العالمين » .

ويقّسم الإدريسى الإقليم الواحد إلى أجزاء عشرة غير البدء والنهاية ؛ فعدد أجزاء الكتاب أو عدد صوره ، (والتعبيران مأخوذان من كتابه) ، اثنان وسبعون صورة .

ويقول فى الصورة الأولى : « وأول ما أبتدئ به من ذلك الكلام على صورة الأرض المسماة بالجغرافية كما سماها بطلميوس

---

(١) السنوات المبينة ليست من صنع الإدريسى .

ووصفها به ومن الله نستمد المعونة والتوفيق والتسديد فى كل منهج وطريق فهو جلت قدرته بذلك جدير وعليه قدير » .

ويقول فى الإقليم الأول : « إن هذا الإقليم الأول مبدؤه من جهة المغرب من البحر الغربى المسمى ببحر الظلمات وهو البحر الذى لايعلم ماخلفه وفيه هناك جزيرتان تسميان بالخالدات ومن هذه الجزائر يبدأ بطلميوس بأخذ الطول والعرض ... » (حـ ١ /١٧) .

ويصنف بعد ذلك المدن ومايوجد فيها ويسير إلى موقع النيل ، فيتحدث عن مجراه وعدد جزره التى يضمها فرعه إلى انقسامه ، ثم ضم فرعيه الرئيسيين بعد القسمة ، شرقه وغربه ، وكثرة مائه وقلته ، ويقول :

« إن الناظر إذا نظر إلى هذه الصفات المصورة (صـ ١٣ - ١٤ من نفس الجزء) والبلاد المذكورة رأى منها وصفا صحيحا وشكلا صبيحا ... » (حـ ١ صـ ١٧) .

فالصورة التى عناها الإدريسى هى نفس تصويره وما كتبه فى هذا الكتاب .

وفى الجزء الثالث من الإقليم الثالث (حـ ٣ / صـ ٣١٧ إلى صـ ٣٤٦ ، وهو آخر الجزء) : بعد أن يتحدث عن « أسوان » ويلحقها بإقليم النوبة ويصف الطريق من «برقة» إلى « الإسكندرية :

« يدخل النيل الغربى منها (الإسكندرية) تحت أقبية دورها كلها ....» وبعد أن يصفها وصفا كاملا ، يتحدث عن النيل ومدته وكوره وقراه ، مدينة مدينة ، حتى أسوان .

وفى الإسكندرية : يتحدث عن المنارة حديثا ممتعا ، وعن ارتفاعها ، وأن المراكب ترى النار فى وسطها من بعيد فتعرف مكانها وتهتدى . وفى القاهرة ، ويسميها الناس كما سماها الإدريسى « مصر » يعنى «الفسطاط» ، يصف « دار المقياس » وصفا ممتعا ، وكيف يصل ماء النيل إليها ، وعمود المقياس وماكتب عليه ، ويقول « أخبر الحوقلى فى كتابه أن لها سحرا ، «وبها مسجدان جامعان للجمعة والخطبة » (حـ ٣ / ص ٣٢٤ س ٢) .

وفى مدينة الفيوم : يذكر سبب تسميتها « الفيوم » (حـ ٣ / صـ ٣٢٨ / ٥ من أسفل) . ويذكر الإدريسى « وادى اللاهون » ونهره وإجراء الماء فيه ، وإقطاع يوسف عليه

السلام هذه المدينة . ويصف كل مدينة فى النيل حتى «أسوان» فيذكر كيفية الوصول إليها ، وطول المسافة بين ما قبلها وما بعدها ، وفر روعاتها ودخلها وخرجها ، وأسواقها إن وجدت ومواعيد عقدها . وهكذا فى الأقاليم السبعة . وفى نهاية كل جزء يذكر الإدريسى : تجز هذا الجزء ، أوهذا الإقليم .

وفى أول *الجزء الثانى* أو الإقليم :

يذكر ما يشتمل عليه الجزء من المدن أو البلاد ، وما سوف يصنعه فيه .

ويقول فى *الجزء العاشر* من : *الإقليم السابع* :

« إنّ هذا الجزء العاشر من الإقليم السابع كله مظلم لا عمارة فيه ألبتة ولايعلم ما خلفه فهذا جميع ما اتصل إلينا من أوصاف الأرضين من معمور وغير معمور فتبارك الله رب العالمين وهو على كل شئ قدير والله تعالى حسبنا ونعم الوكيل .

وهنا انقضى الكتاب المعروف بنزهة المشتاق فى اختراق الآفاق والحمد لله رب العالمين (حـ ٨ / ص ٩٦٣ / س٢ » .

وهذا الكتاب ، كما نرى من نصوصه المدونة هنا ، خالٍ من علامات الترقيم المعروفة، (فاصلة ، وفاصلة منقوطة ، ونقطة ، وعلامات استفهام أو تعجب) ،

ووليه جزء تاسع ينتهى بصفحة ١٠٩٠ وكله ما نشر فى هوامش أجزائه الثمانية .

وأسلوب الإدريسى فى كتابه ينتمى إلى عصر ابن العميد ، وهو مزدوج الفقرات ، مسجوع فى المواضع التى يجوز فيها الازدواج ، والسجع ، وتعبيراته رصينة ، والتكلف فى ذلك غير ملاحظ إذا نظر أنه فى عصر يجوز فيه ماصنعه الإدريسى .

وقد جاءنى هذا الكتاب جزءا جزءا وآخر ما جاءنى كان الجزء الثامن ، وتاريخ وصوله ٧/٥/١٩٨٠م .

أما *الجزء التاسع والأخير* :

فتاريخ انتهاء طبعه كان يونيو ١٩٨٤م. وبقى كتاب « المحبين لدراسة الترحال فى بقاع الأرض» وعسى أن يصلنى إن شاء الله كما وصل إلى «نزهة المشتاق» ، بعناية ورعاية الأستاذ الدكتور كليليا سارنيللى تشاركوا أستاذ وعميد معهد الدراسات الإفريقية والشرق أوسطية ، وهو معهد بين معاهد كثيرة جامعية فى نابلى بإيطاليا ، فشكرا كثير لعنايتها ورعايتها .

عبد السميع محمد أحمد

عميد الألسن الأسبق

عضو المجمع

الأعلام الجغرافية - دراسة فى تكونها وفلسفتها★

للأستاذ الدكتور يحيى جبر

مدخل :

عاش الإنسان دهرا على الأرض دون أن تكون به حاجة إلى تسمية المواقع التى مر بها أو عاش فيها ، وما نراه اضطر إلى ذلك إلا بعد ان استقر فى أماكن بعينها ، واعتاد السير فى مسالك معلومة ، لأن تلك المواقع كانت قد أصبحت جزءا من معرفته ، ومعرفة قومه ، فأطلقوا عليها أسماء هى بمنزلة العلامات ، من شأنها أن تميز موقعا عن موقع ، وتستحضره فى مخيلة السامع ... وهكذا المعارف كلها .. تراكمات مكتسبة تولدها الحاجة على نحو ما نجده فى قول الجاحظ من أن « البيان ضرورى للاجتماع ، وهو الذى جعله الله تعالى سببا فيما بينهم ، ومعبرا عن حقائق حاجاتهم ، ومعرفا لمواضع سد الخلة ورفع الشبهة ومداواة الحيرة ... » (الحيوان - طبعة البابى الحلبى ١٣٥٧ هـ - تحقيق عبد السلام هارون ١/٤٤ ، ٤٥) .

والحديث عن الأعلام الجغرافية لا يختلف عن الحديث عن أعلام الناس وغيرهم ، ذلك أن العلم - هو بمعنى العلامة ، وكلاهما يقومان دليلا على المعلوم - لا يكون إلا بالتحديد عن قصد ، وبنية مسبقة ، فما أكثر ما يمر به الإنسان من مواقع ، ويراه من نجوم ... ولكن قليلا منها اختص بعلاقة مميزة بالإنسان . ليجد نفسه مضطرا إلى تمييزه بعلامة (عَلَم) أو وسم (اسم) ، والاسم إن لم تكن معنيا بمدلوله ومسماه فإن معرفتك وجهلك به يستويان ، ككثير من الناس وهم جميعا يعرفون بأسمائهم ، تمر بهم لا يعنونك ، ولا تجد

★ ألقى هذا البحث فى الجلسة السادسة من مؤتمر المجمع بتاريخ غرة ذى القعدة سنة ١٤١٥ هـ .
الموافق الأول من أبريل (نيسان) ١٩٩٥ م

فى نفسك حاجة لمعرفة أسمائهم ، تماما على نحو ما يظهر فى قول الشاعر :

ونحن الثريا وجوزاؤها

ونحن السماكان والمرزم

وأنتم كواكب مخسولة

ترى فى السماء ولا تعلم

إذ نراه جعل قومه كأعلام النجوم ، وجعل الآخرين كسائر النجوم التى نرى فى السماء دون أن يعرفها الناس بأسمائها ، لأنها ليست من نجوم الأخذ (المنازل) ولا هى من نجوم الهداية .

وأسماء الأعلام تواضع واصطلاح ، والأكثر فيها أن تكون مرتجلة أو أعجمية لا مساغ فيها للاشتقاق (ياقوت الحموى - معجم البلدان بيروت ١٩٥٥ ، ١ / ١٥) ومنها كثير نقل على جهة التخصيص وقصر الدلالة ، ولكن الواضع لم يفعل ذلك دون فلسفة توجه التسمية ، بل كان ينطلق من علاقة بين الاسم والمسمى على نحو ما سنوضحه فيما بعد (راجع بحثنا حول العلاقة بين الاصطلاح ومدلوله ودورها فى إشاعته وانتشاره ، مجلة التعريب ، العدد الثامن) وهى مما يختلف من أمة لأخرى ، ومن زمان لآخر ، وذلك لارتباطها بمستوى التمدن ومنهج التفكير . وفى هذا المعنى يقول جرجى زيدان (التمدن الإسلامى - القاهرة ١٩٥٨ ٢/٢٦٦) :

« إن لأسماء الأعلام تاريخا طويلا فى علم العُمران ، وهى تختلف صورة ومعنى باختلاف العصور ، وباختلاف الأمم ، فكل أمة تختلف التسمية فيها عما سواها ، وتختلف فى الأمة الواحدة باختلاف أدوار تمدنها » .

وتدخل دراسة الأسماء الجغرافية ، والأعلام منها بوجه خاص فى ما يعرف بعلم الـ Onomastic ، أى فلسفة الإنسان فى تسمية ما حوله ، وفى علم الـ Toponomy الذى يبحث فى الأعلام الجغرافية والمكانية (انظر يوسف توتى - المعجم الجغرافى - المقدمة) .

ونستعرض فيما يلى أبرز مذاهب العرب فى تسمية الأعلام الجغرافية ، انطلاقا من بضعة معاجم ، ومن معرفتنا الشخصية .

أبرز مذاهب العرب فى تسمية الأعلام الجغرافية :

أولا - تسمية الموقع باسم أول من سكنه ، أو نسب إليه :

وهذا منهج قديم نجد له جذورا فى التوراة (انظر مقدمة كتابنا معجم البلدان الأردنية والفلسطينية - عمان ١٩٩١ ، ص ٣) وعليه

درج كثير من علماء العربية فى تخريج أسماء بعض المواقع ، يقول جرجى زيدان فى هذا الصدد (المرجع السابق ٢/ ٤٠) : « وقد بالغ العرب فى الرجوع إلى الأجداد حتى رجعوا بأسماء المدن إلى أسماء بعض أجدادهم ، والغالب أن ينتهى النسب بأحد آباء التوراة ، فإذا سئل أحدهم مثلا عن الأندلس من بناها قال : بناها أندلس بن يافث بن نوح .. » انظر الماوردى - الأحكام السلطانية ١٩٤

ولو استعرضنا معجم البلدان لياقوت الحموى لوجدناه يعيد أسماء كثير من المواقع والبلدان إلى أسماءِ من بنوها أو نزلوها ابتداء . **ومن قبيل ذلك** :

- **ألهان** : مخلاف باليمين سمى بألهانَ بنِ مالك بن زيد من قحطان (١/ ٢٤٨) .

- **تبالة** : التى تقع فى الطرف الشرقى من عسير جنوب السعودية ، سميت بتبالة بنت مدين ابن إبراهيم فى ما ذهب إليه ابن الكلبى ، وبتبالة بن مكنف بن عمليق وَفقا لياقوت (٢/ ١٠) .

وقد فعل الهمدانى مثل ذلك ، فنجران (على الحدود السعودية اليمينية) مسماه بنجران ابن زيدان بن سبأ ابن عبد شمس (الأكليل فى أخبار اليمين وأنساب حمير . الكتاب العاشر - ط السلفية ، القاهرة ١٣٦٨ ١/ ١٤) .

- **والحبش** : درب بالبصرة ، سمى بحبش كان عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه ، أسكنهم هناك (ياقوت - المشترك ١٢٠) .

- **وثور** : جبل بمكة سمى بثور بن عبد مناة ، أول من سكنه (ابن بنين ، اتفاق المبانى وافتراق المعانى - تحقيقنا ، دار عمار - عمان ١٩٨٥ ص ٨٢) .

- **وقائم بن احمدينى** : بلدة بمنطقة جازان، سميت بالرجل على ما ترى (العقيلى ١٨٣) .

- **والقرافة** : اسم مقبرة بالفسطاط ، وهما قرافتان متصلتان : الصغرى ، وبها قبر الإمام الشافعى - والكبيرة .. وكانتا فى أول الأمر خطتين لقبيلة من اليمن هم بنو قرافة من المعافر بن يعفر ، ثم صارتا مقبرتين (المشترك ٣٤١) .

- **قلت** : طريف أن المصريين راحوا يستخدمون كلمة القرافة بمعنى المقبرة مطلقا ، فانتقلت بذلك من الخصوص إلى العموم .

- **حضرموت** : وقيل فى تسميتها غير قول ، منها إنها سميت بحضرموت بن يقطن بن عابر بن شالخ (ياقوت ٢٩٢/٣ وجواد على (المفصل ١٢٤/٢) .

- **أبو حامد** : علماً على جبل بصقلية كان يعرف باسم Erixe ، ويعـــــرف الآن باسم San Joliano (أحمد زكى - قاموس الجغرافية القديمة . القاهرة ١٣١٧ ص ١٩) .

ثانيا - تسمية العلم بصفته :

وهذا من باب إقامة الصفة مقام الموصوف . وهو من أبرز الموجهات التى تقف وراء تخصيص بعض الأسماء أعلاما لمواقع بعينها ، وذلك أن الموقع يشتهر بين الناس بصفة لا يلبث حتى يعرف بها ، فتستقر فى الأذهان علماً عليه . **ومن أمثلة ذلك :**

- **المزمزمة** : علما على بئر فى موريتانيا ، كان أحدهم قد صب فيها ماء من بئر زمزم (مقلد ١٦٧) فكأن الأصل : البئر المزمزة ، فشاعت الصفة حتى ساغ الاكتفاء بها عن المركب الوصفى .

- **الجماء** : علماً على ثلاث عيون بالمدينة المنورة (المشترك ١٠٦) والمعنى : التى تجم كلما نُزِفت ، أى يجتمع فيها الماء من جديد .

- **السوانى** : جميع سانية ، وهى قرية فى الشُّقيق من تهامة عسير (العقيلى ١٢١) .

وأعرف بلدة قرب طرابلس الغرب تحل الاسم نفسه ، والأصل أن السانية هى الناقة التى يسنى بها الماء ثم توسع القوم فى دلالة الكلمة حتى أطلقت على الآبار التى يسنى ماؤها ، ثم ازدادوا فأطلقوها على المزارع التى تروى بها ، وأعقب ذلك إطلاق اللفظ على الأحياء والقرى التى تكتنف ما سبق ، حتى بالرغم من أن العُمران اكتسح المزارع وأحالها إلى مبان وعمارات .

- **المنشار** : اسم مكان كثير الرؤوس الجبلية بليبيا ، ولذا سمى به (الزاوى ٣٢٥) وهو كما ترى ، مسمى بصفته .

- **السوداء** : بلدة أعرفها فى الجنوب السعودى تقع على قمة سوداء فى جبال عسير تطل على رجال ألمع فى تهامة ، وهى إلى جانب ذلك كثيرة الشجر ، ومن الناس من يسمى سلسلة جبل السراة من الطائف جنوبا باسم ساق الغراب لدقتها وسوادها ، على التشبيه .

ثالثا - قصر الدلالة :

وهو أنْ يُطلق على الموقع اسم جنسه علماً عليه دون سواه ، وذلك كثير فى كلام العرب ، وهو من باب تخصيص العام ، مفرداً كان ذلك أم جمعا ، معرفة كان أم نكرة . ونستعرض فى ما يلى طائفة من الأمثلة توضح ما سلف .

- **البيداء :** علماً على أرض ملساء بين مكة والمدينة (ياقوت - البلدان ٥٢٣/١) والبيداء أصلا هى الصحراء .

- **الرهوة :** علماً على عدة أماكن ، منها رهوة التى تقع إلى الشمال من درب بنى شعبة من منطقة جازان السعودية (العقيلى ١١١) ، ورهوة تنومة من بلاد بنى شهر السعودية أقمت بها عامين ، والرهوة فى اللغة من الأضداد إذ تأتى بمعنى ما ارتفع من الأرض . وما انخفض (ابن بنين ٢١٦) .

- **الجبل :** علما على ثمانية مواضع استناداً إلى ما ذكره ياقوت فى المشترك (ص ٩٤) والجبل فى اللغة معروف .

- **الرملة :** علماً على خمسة مواقع استناداً إلى ما ذكره ياقوت فى المشترك (ص ٢١٠) والرملة فى اللغة معروفة ... ومن ذلك رملة فلسطين ، وهى أشهرها على الإطلاق .

وقد أحصينا أكثر من خمسة وسبعين علماً من جنس ما تقدم ، تنتشر مسمياتها فى أرجاءٍ مختلفة من الوطن العربى .

رابعا - التسمية بالمصادر المائية :

كان للماء أثر بالغ فى توجيه نمط الحياة العربية قديما ، ومن هنا لم يكن غريبا أن نجد كثيرا من الأماكن سميت بأحد مصادر المياه التى تكون فيها ، **ومن ذلك :**

- **الأحساء :** الإقليم السعودى المعروف وغيره ، مفرداً ، مثل : حسى وحاسى (مسعود مثلا) فى الجزائر و جمعا ، على نحو ما نجده فى قول زهير :

كأن سحيله فى كل فجر
على أحساء ب عؤودٍ دعاء

(المشترك ١٤) والحسى فى اللغة هو الماء تنشفه الأرض من الرمل ، فإذا صار إلى صلابة أمسكته ، فتحفر عنه الناس نحواً من متر وتستخرجه .

- **الأبيار :** مدينة فى الشرق الليبى . وهى مسماه بجمع «بئر» الماء .

- **الحَمّة** : وبالتصغير " الحميمة علماً على أربعة عشر موضعاً (المشترك ١٤٦) ، والحمة هي العين تسيل بماء حار .

- **رأس العين** : علماً على مواقع كثيرة ، قديمة (المشترك ١٩٧)

- **النّهي** : علماً على عدة مواقع (المشترك ٤٢٦) والنهي والتنهية والتنهاة هي منتهى المسيل إلى الرياض ونحوها .

- **العين ، العيون ، العوينات** : أعلاماً على بلدان ومواقع في الإمارات العربية والسودان وليبيا وعُمان وموريتانيا .

خامسا : التسمية بنبات أو حيوان أو غير ذلك مما يكثر وجوده في الموقع :

وربما تم ذلك بالحيوان أو جزئه أو نسبة إليهما ، وبالنبات وموضعه ، وأمثلة ذلك كثيرة جداً ، ومنها :

- **الأفاعي** : علما على واد قرب القلزم (السويس) من أرض مصر (ياقوت ١/٢٦٦) .

- **الخنزيرة** : علماً على بلدة بجازان جنوب غرب السعودية ، قرب قرية الجعافرة (العقيلي ٩٨) .

- **الذئبة** : علماً على موضع ذكره ياقوت (المشترك ١٩٥) .

- **كراع الناقة** : علماً على واد في موريتانية فيه شجر كثير (مقلد ١٥٤) وأراه سمي به لجامع الشبه في طولهما .

- **الجوش** : وهو الصدر من الدابة ، ويطلق علماً على بلدة في سفح جبل نفوسة (الغربي) بليبيا ، قال الزاوي (ص ١٠٨) كأنها مأخوذة من الجوش بمعنى الصدر لأنها واقعة في سفح الجبل . وقد سمعت أهل تهامة رجال المع يسمون أسافل سفوح الجبل أصداراً وصُدُراً

- **القمري** : علماً على بلدة بجازان (العقيلي ١٩١) .

- ومن ذلك في فلسطين حمامة ، وفي موريتانية مدينة نواكشوط، إذ يرى بعضهم أن الأصل في اسمها «نواق الشط» جمع ناقة ، والشط هو الشاطىء ، شاطىء الأطلسي .

- ومن التسمية بالنبات ، الأثلة ، واحدة الأثل ، وهو من شجر الحمض ، منابته الرمال ، وورقه دقيق كالإبر ، وقد استخدم

هذا الاسم علماً على عدة مواقع ذكرها ياقوت (البلدان ١/٩١ والعقيلي ١/٥١)، وربما سموا بمصغره، الأيثل. كقول قنيلة بنت النضر أو أختُه:

ياراكـــبـــاً إن الأثيل مظنة

من صبح خامسة وأنت موفق.

- **والسنطة**: شجرة الشوك المعروف كالطلح والقرظ، وقد أطلقت علماً على قرية بمصر (المشترك ٢٥٧).

وغير ذلك كثيرة، والعلل التى تكمن وراء إطلاق الأسماء أعلاماً على المواقع الجغرافية كثيرة جدا إلى درجة يتعذر حصرها وإحصاؤها، ولذلك نكتفى بما تقدم، لننتقل إلى البحث فى الأعلام الجغرافية من حيث تركيبها.

أبنية الأعلام الجغرافية:

يمكن تصنيف الأعلام الجغرافية من حيث أبنيتها وتراكيبها إلى عدة أقسام، وذلك باعتبارات مختلفة، تماما كما هى الحال فى أعلام الناس (انظر ابن هشام قطر الندا وبل الصدا ص ١٣٣ وما بعدها) إذ أن ثمة ما يعرف بعلَمَ الشخص، كزيد وعمرو، ويناظرهما فى المواقع والبلدان مكة والقاهرة، وذؤالة للذئب، ويناظرها فى الأعلام الجغرافية تَحُوط وكَحْل علمين على السنة الجدبة، ومَحْوة علما على ريح الشمال.

والأعلام: من باب آخر، إما مفردة أو مركبة، ومن الأول فى الناس زيد، وفى البلدان ونحوها صنعاء، أما الثانى، فهو على أربعة أوجه هى:

١ - مركب إضافى:

مثل دارة جلجل، وبيت المقدس، ووادى الآجال جنوب ليبيا، وسوق السبت فى السعودية والمغرب، ودير دبوان فى فلسطين وكفر الشيخ فى مصر، وخشم القرية فى السودان، وهجرة زهير، ووادى حلى وهما فى السعودية.

٢ - مركب وصفى مثل:

المدينة المنورة، ومكة المكرمة، والواحات الداخلة والخارجة والربع الخالى، والصحراء الكبرى والنعام الوارد، والنسر الواقع من نجوم الأخذ، التى هى منازل القمر.

٣ - مركب إسنادى مثل:

سر من رأى، وحضرموت.

٤ - مركب مزجى مثل

بعلبك: وبنغازى، وجدّايم (جود دائم).. بليبيا.

ويمكن تقسيم الأعلام الجغرافية إلى مثل ما تقسم له أسماء الناس ، فمنها ما هو اسم ، ومنها ما هو لقب وكنية ، وكل ذلك على تشبيه المكان بالإنسان والحيوان ، إذا نجد من المواقع ما سمى بالمركب مبدوءاً بالأب والأم مثل : أبو المظ والمظة بلدة قرب بيشة فى السعودية) ورمان البر ، ينور ولايعقد وأبو النبع نبع الماء ، أوجمع نبعة ، وهو الشجر الذى تصنع منه القسى وهما علمان على موضعين يقعان قريبا من بيش بتهامة عسير (العقيلى ٥٣) .

والمكان أبو كذا ، أى ذو كذا ، تماما كقولهم ذو الخَلَصَة ، علما على صنم كان بتبالة، وذات عرق ، وما بدىء بالأم ، بمعنى ذات أيضا ، كأم الأرانب علما على بلدة بليبيا ، وأم القرى علما على مكة المكرمة ، وأم عبيد علما على الأرض الخلاء ، وأم مرزم علما على ريح الشمال ، وأم أوعال علما على هضبة باليمامة ، (ياقوت البلدان ٢٤٩/١) وأم الطيور علما على منطقة بعينها فى موريتانية (مقلد١٥٨) وأم قيس علما على بلد فى الأردن ، وأم درمان فى السودان معروفة.

وينسجم مع ما تقدم تسميتهم المواقع والبلدان بابن كذا أو بنت وبنات كذا ، ومن ذلك « ابن غراب » علما على موقع قرب مسلاته بليبيا ، وبنات نعش علما على مجموعة نجمية تظهر فى نصف الكرة الشمالى. وابن مزنة علماً على القمر . كقول ابن أحمر :

كأن ابن مزنتها جانحًا

فسيط لدى الأفق من خنصر .

أما صرف الألقاب أعلاما على المواقع الجغرافية فكثير جداً ، ومن ذلك الفيحاء والشهباء علمين على دمشق وحلب على التوالى ، والمضنونة علما على بئر زمزم ، وغير ذلك . ونعتقد أن هذه الألقاب صفات فى الأصل ، وأنَّ ما كان مستخدما فى الأصل هو المركب الوصفى ، ولما شاع استخدامه طويلا ساغ الاجتزاء بالصفة عن المركب فكان .

أعلام فى مبنى الفعل :

من الملاحظ أن نسبة الأعلام الجغرافية التى جاءت على وزن الفعل أكبر من نسبة ذلك فى أعلام الناس . وقد اجتهدنا فى البحث عن علة توجه ذلك فلم نظفر بما يقنع ، **ومن أمثلة ذلك :**

- **تجيب :** علما على خطة بمصر ، سميت باسم قبيلة تجيب من كندة ، أول من سكنها (ياقوت ٢ / ١٦) .
- **تدمر (تتمر ، لعلاقة بالتمر فيما نرى)** سميت بتدمر بنت حسان بن أذينة بن السميدع (ياقوت ١٧/١) قلت : وتسمية البنت بهذا الاسم يشبه التسمية العبرية «تامارا» بمعنى الحلوة كالتمر .

- **تبشع** : بلد بالحجاز لفهم (ياقوت ١٣/٢)
قلت : واسم واد فى عسير .
- **تدوم** : موضع ذكره لبيد (ياقوت ١٩/٢) .
- **تروق** : اسم هضبة (ياقوت ٢٨/٢) .
- **تريم وشبام** : علمين على موضعين بحضرموت (ياقوت ٢٨/٢) .
- **تذكر** : اسم موضع (ياقوت ٢٧/٢) .
- **تصلت** : اسم موضع وماء لبنى إنسان من جشم . (ياقوت ٣٢/٢) .
- **تضارع** : تضرع ، تعكر ، تعمر ، تغوث ، تقوع ، تقيد ، تكتم وغيرها مواضع ذكرها (ياقوت ٢/ ٥٠ - ٦٨) .

ويمكن تخريج هذه الأسماء بكونها جملا فعلية وقعت صفات لمسميات بعينها ثم شاعت حتى استغنى بالجملة الفعلية (الفعل) عن الموصوف .

التفسير الأسطورى لبعض الأعلام :

يقف المطالع فى كتب البلدان كمعجم ياقوت الحموى على كثير من الأعلام الجغرافية التى خصت بأسمائها لعلاقة لا سبيل إلى الأخذ بها ، وتعود إلى حكايات خرافية ، لاسيما تلك التى تقوم الأدلة على تسميتها لعلاقات صحيحة مختلفة .

فمن المعروف أن مدينة نابلس الفلسطينية سميت بهذا الاسم نسبة إلى أسرة فلافيا نيا بولس ، وهى نظير مدينة نابولى الايطالية، ولكن الحموى يخرج تسميتها بطريقة مختلفة، محللا الاسم إلى مركب إضافى « ناب لس » مفسرا «لس» بأنها حية كانت تسكنها ،وهو نابها. (ياقوت/نابلس) .

كما نعتقد أن الحكاية التى ساقها ياقوت (أجأ/سلمى - ١/ ٩٤ ، ٩٧) فى تعليل تسمية جبلى طىء هى من قبيل ما تقدم ، فقد ذهب إلى « أجأ » وهو علم مرتجل لاسم رجل سمى به الجبل ، ويجوز أن يكون منقولا ، ومعناه الفرار كما حكاه ابن الأعرابى ، يقال : أجا الرجل : إذا فر ، وسلمى اسم امراة ، وكان من خبرها أن رجلا من العماليق يقال له أجأ بن عبد الحى عشق امراة من قومه يقال لها سلمى ، وكانت لها حاضنة ويقال لها العوجاء، وكانا يجتمعان فى منزلها حتى نذر بهما أخوة سلمى ، وهم الغميم والمضل وفدك وفائد والحدثان ، وزوجها ، فخافت سلمى فهربت هى وأجا والعوجاء وتبعهم زوجها وإخوتها ، فلحقوا سلمى على الجبل المسمى سلمى فقتلوها هناك فسموا المكان بها ، ولحقوا أجا

بالجبل المسمى بأجا ، فقتلوه فسمى به ، وأنفوا أن يرجعوا إلى قومهم ، فسار كل واحد إلى مكان ، فأقام به فسمِّى ذلك المكان باسمه .

وشبيه بذلك تسمية وثنى أساف ونائلة ، والنجوم قلاص النجم والحويجزين (الفرقدان) وقلاص النجم على التشبيه بقلاص الإبل ، وحضرموت (جواد علي ١/١٢٤) .

ويبدو أن الجغرافيين العرب ، كانوا يرون أنفسهم ملزمين بتفسير الأسماء ، ولعلهم كانوا يرون فى تسمية الأعلام الجغرافية بمن سكنها أو ملكها مخرجا سهلا فأكثروا من ذلك ، وربما تكلفوا غيره . جاء فى تعليل تسمية تباله (ياقوت ٢/ ١٠) إنها «سميت بتبالة بن مكنف من بنى عمليق ، وزعم الكلبى أنها سميت بتبالة بنت مدين بن إبراهيم . ولو تكلف متكلف تخرج معانى كل الأشياء من اللغة العربية لساغ أن يقول : تبالة من التبل ، وهو الحقد ...» فتبالة ابن فى رأى ، وبنت فى رأى آخر ، وأن شئت فهى من التبل ؟؟

مصادر الأعلام الجغرافية :

١ - الأصل العربى :

تعرف معظم البلدان والمواقع بأسماء عربية خالصة ، سواء أكانت تسميتها وضعا وابتداء ، أم كانت نقلا من أسماء مواقع فى الجزيرة العربية . فقد أطلق المسلمون العرب على الأماكن التى دخلوها بعد الإسلام أسماء ها ، ومنها ما أسموه باسم موقع أو بلد مما عرفوه فى جزيرة العرب ، ذلك أن من شأن الشعوب أن تكرر فى أسماء الأعلام سواء فى ذلك المواقع والبلدان وأعلام البشر ، وأكثر ما يكون ذلك تعلقا بالمسمى به . جاء فى (المشترك ١٥) «فاتفاق الأحَصّ وشبيب متجدد والأخص شبيب بحلب عجب ولا أبعد أن تكون قبائل ربيعة انتقلت من نجد والشام فسموا هذه بتلك على وجه التعلل والتشوق إلى أوطانهم وقد فعلوا ذلك فى نجران ، ودومة ، الجندل ، وغيرهما ، ولما انتقل بنو هشام إلى الأندلس سموا بلاده بأسماء بلاد الشام » وانظر أيضا ص ٤١٦ . والمطالع فى الأطلس العربى يقفُ على كثير من الأعلام الجغرافية المتفقة هنا وهناك .

٢ - الأصول الأعجمية :

ونعنى بذلك الأعلام الجغرافية التى تنتمى للغات غير العربية ، ومن هذه الأعلام ما يقع فى الجزيرة العربية ، ولكنه مسمى باسمه

لعلاقة بالفرس أو بالروم أو بغيرهم . فكلمة «بيشة» (علما على مدينة تقع فى الجنوب السعودى) تعود لأصل فارسى يعنى حائط النخل ! «وزنجبار» هى بر الزنج العربية ، ولكنها مركبة وفقا للقاعدة الفارسية فى تقديم المضاف إليه على المضاف ، ومن الأعلام رومانى كالإسكندرية (المشترك ١٦ موصفا) والإسكندروية ، وطرابلس ، فى لبنان وليبيا ، ونابلس وقيسارية فى فلسطين .

ومنها يونانى كقورينا ودرنة فى ليبيا ، وكوستى فى السودان ، وغير ذلك .

٣ - الأصول المحلية - إن صح التعبير :

ونعنى بها الأعلام التى تنتسب للغات السكان الأصليين قبل امتزاجهم بالمسلمين العرب ، كما هى الحال فى كثير من الأعلام الجغرافية فى المغرب العربى ، التى تعود للغات التماشق والفلانية والشلحية والقبائلية وغيرها من لغات البربر ، وقد مثل ذلك فى أسماء بعض البلدان والمواقع فى مصر ، لا سيما التى تبدأ بشبين وميت وشبرا ، وهذه المفردات ترتد بأصلها إلى القبطية والفرعونية . ونظير ذلك أعلام كثيرة تنتشر فى السودان كواو ورمبيك وجوبا ونيمولى وغيرها ، مما يعود إلى مجموعة اللغات النيلية التشادية .

كما يقف المطالع فى أطلس بلاد الشام والعراق على كثير من الأعلام الجغرافية التى تعود أصولها إلى اللهجات العربية العادية (اللغات السامية فى اصطلاح آخر) كأسماء بعض البلدان الفلسطينية مثل : عورتا ، عنبتا ، خربتا التى تحمل الطابع الآرمى السريانى ، وجديتا فى الأردن ولبنان من الفصيلة نفسها ، إضافة إلى بعض المواقع التى تحمل أسماء كردية فى العراق ، أو كنعانية أو عبرانية فى فلسطين وغير ذلك كثير .

***

وخلاصة لهذا البحث نستطيع أن نقول : إن الأعلام الجغرافية ، كغيرها من الأعلام ، إنما كانت إنطلاقا من فلسفة وجهت واضعيها وأغرتهم بها ، وهى أنواع شتى من حيث أصولها وأنواعها ، وقد تطورت عبر العصور ، وكثرت حتى صح لدى الإنسان أن يرمز لها بالحروف والأرقام ، وهى تلقى الضوء ساطعا على مذاهب الناس فى تسمية ما حولهم من المواقع والبلدان ، إضافة إلى ما يكشفه بعضها من أوجه التطور الدلالى والاستخدام المجازى للمفردات .

يحيى جبر

رئيس مجمع اللغة العربية الفلسطينى

المصادر

- مقلد ، محمد يوسف - موريتانيا الحديثة ، بيروت ١٩٦٠

- الزاوى ، الطاهر - معجم البلدان الليبية ، القاهرة ١٩٦٨

- الجاحظ - الحيوان ، تحقيق عبد السلام هارون ، مطبعة البابى الحلبى القاهرة ، ١٣٥٧ هـ .

- زيدان ، جرحى ، تاريخ التمدن الإسلامى القاهرة ١٩٥٨ ، منشورات دار الهلال .

- العقيلى ، المعجم الجغرافى للبلاد السعودية ، مقاطعة جازان . طبعة الرياض ١٩٦٩ج ١ .

- ياقوت - معجم البلدان ، طبعة بيروت ١٩٥٥

- المشترك وضعا والمفترق صقعا ، بعناية فردناندوستنفلد . جوتنجن ١٨٤٦

ابن بنين - سليمان ، اتفاق المبانى وافتراق المعانى - تحقيق د. يحيى جبر ط دار عمار، عمان ١٩٨٥

- جبر ، يحيى ، معجم البلدان الأردنية والفلسطينية ، منظمة التحرير الفلسطينية دار اللوتس ، عمان ١٩٩١

- زكى ، أحمد ، قاموس الجغرافية القديمة . القاهرة ١٣١٧ هـ .

- الهمدانى ، محمد بن الحسين ، الإكليل من أخبار اليمن وأنساب حمير . الكتاب العاشر المطبعة السلفية . القاهرة ١٣٦٨ هـ .

مدخل

لدراسة الأعلام الجغرافية ذات الأصول العربية فى إسبانيا

للأستاذ الدكتور محمود على مكى

تمهيـــد :

لسنا فى حاجة إلى تأكيد ما خلفته الحضارة الأندلسية على أرض شبه جزيرة إيبريا (أى إسبانيا والبرتغال) من آثار فى كل مظاهر الحياة ، ولعل خير ما يصور هذا التأثير هو اللغة ، فقد احتفظت اللغتان الإسبانية والبرتغالية بقدر كبير من المفردات العربية أصبح جزءا لايتجزأ من ذخيرة هاتين اللغتين ، وهى ظاهرة تميز لغتى هذين القطرين عن سائر اللغات الأوربية . وقد تشاركهما فى ذلك أيضا اللغة الإيطالية التى انتقل إليها عدد لا بأس به من الألفاظ العربية ، وذلك من خلال الوجود العربى الذى استمر قرونا فى جزيرة صقلية وفيما يتاخم هذه الجزيرة من أرض قلورية Calabria فى جنوبى إيطاليا ، على أن ظاهرة التأثير اللغوى العربى أوضح بكثير فى إسبانيا والبرتغال ، إذ إنه كان أطول زمنا وأوسع رقعة . كذلك علينا أن ننبه إلى أن كثيرا من الألفاظ العربية التى انتقلت إلى اللغات الأوربية إنما كان انتقالها عن طريق اللغة الإسبانية بوجه خاص .

وكما اهتم الباحثون بدراسة تأثير اللغة العربية فى الإسبانية والبرتغالية فقد كان موضوع الأعلام الجغرافية ذات الأصول العربية فى البلدين مما شغل الباحثين أيضا منذ زمن طويل . وطبيعى أن يكون الرعيل الأول من هؤلاء الباحثين من الإسبان منذ منتصف القرن الثامن عشر حينما بدأت مراجعة تاريخ إسبانيا والاهتمام بإعادة النظر فى عصوره الأندلسية بروح أكثر تجردا وأقل تعصبا مما كان عليه الأمر فى القرنين السابقين حينما حملت كراهية الإسلام المفكرين على محاولة طمس الماضى العربى وتجاهل تأثير الإسلام الحضارى .

وقد كان أول من عمل على كتابة التاريخ الإسلامى لشبه الجزيرة فى ظل هذا الاتجاه الجديد هو خوسيه أنتونيو كوندى José Antonio Conde (١٧٦٥ - ١٨٢٠) الذى كان أول مؤلف إسبانى يكتب تاريخا

* ألقى هذا البحث فى الجلسة الثامنة من مؤتمر المجمع بتاريخ ٣ من ذى القعدة سنة ١٤١٥ هـ الموافق ٣ من أبريل (نيسان) سنة ١٩٩٥ م .

كاملا لما سماه « الاحتلال العربى لإسبانيا » ، وقد صدر هذا الكتاب بعد وفاته فى سنة ١٨٢٠/١٨٢١[١] .

وكان كوندى قد كتب قبل ذلك بسنوات (فى ١٧٨٧) مقدمة للمعجم الإسبانى اللاتينى العربى الذى وضعه الراهب فرانسسكو كانيس جعل عنوانها « أهمية معرفة اللغة العربية لدراسة تاريخ إسبانيا »[٢] . وفى هذه المقدمة التى بين فيها أنه لا غنى عن معرفة العربية لتبين أصول كثير من الألفاظ الإسبانية أشار أيضا إلى أن هذه المعرفة ضرورية لتبين أصول عدد كبير من الأعلام الجغرافية الإسبانية ، ثم طرح بعد ذلك مشروعا طموحا لكتابة « معجم جغرافى لإسبانيا » ، ووضع تخطيطا لمواد هذا المعجم واقترح أسماء من يمكنهم العمل فيه .

وبعد فرانسسكو كوديرا Francisco Codera (١٨٣٦ - ١٩١٧) مؤسس المدرسة الاستشراقية الإسبانية الحديثة ، وقد كان من أكثر الباحثين تجردا ونزاهة فى الحكم على الحقبة الإسلامية من تاريخ إسبانيا . وإليه يرجع الفضل فى نشر ما سُمِّى بالمكتبة الأندلسية التى أصدر منها عشرة مجلدات ، وكان معظم هذه المجلدات معاجم لتراجم علماء الأندلس . وقد أمدته هذه الكتب بعدد كبير من الأعلام الجغرافية ، واستهوته مقابلة هذه الأسماء على أسماء المواضع الإسبانية الحالية ، فقام برصدها فى بطاقات أورثها تلاميذه من بعده ، فانتفعوا منها فى دراساتهم .

وأبرز هؤلاء التلاميذ ثلاثة ، أولهم إدواردو ساڤيدرا Eduardo Saavedra (١٨٢٩ - ١٨٩٨) الذى نشر دراسة قيمة بعنوان « جغرافية إسبانيا كما يصورها كتاب الأدريسى »[٣] . والثانى هو فرانسسكو سيمونيت (١٨٢٩ - ١٨٩٧) صاحب الدراسة الخاصة «بوصف مملكة غرناطة بحسب كتاب معيار الاختبار لابن الخطيب»[٤] وفيها عنى بمقابلة الأعلام الجغرافية فى كتاب الوزير المؤرخ المشهور لسان الدين بن الخطيب على أسماء المواضع الحالية فى آخر دول الإسلام فى الأندلس ، وهى التى تشمل غرناطة والمرية ومالقة . وأما المستشرق الثالث فهو أليمانى بولوفر الذى نشر دراسة وافية حول « جغرافية شبه جزيرة إيبريا طبقا لكتابات الجغرافيين العرب»[٥] .

وقد شارك بعض العلماء الأوربيين فى بحث موضوع الأعلام الجغرافية ذات الأصول

العربية . وكان من أولهم هامر بورجشتال فى بحث نشره فى سنة ١٨٥٤(٦) ، وقد سجل فيه أسماء ٨٣٣ موضعا ، غير أن معظم ما أورده من اشتقاقات هذه الأسماء من الأصول العربية كان خاطئا مما ذهب بقيمة هذا البحث المبكر فى الموضوع .

أما فيما يتعلق بالبرتغال فإن أهم ماتم من دراسات حول أعلامها ذات الأصول العربية هى التى قام بها المستشرق البرتغالى دافيد لوبس(٧) .

وقد توالت بعد ذلك أبحاث جزئية اشترك فى إصدارها باحثون إسبان وأوربيون حول أعلام بعينها لم تكن أصولها العربية معروفة ، فاستطاع هؤلاء إماطة اللثام عنها ، كما أحرزت الدراسات الخاصة بالموضوع تقدما كبيرا بفضل ماقام به عدد من اللغويين من أبحاث حول القواعد الصوتية والصرفية التى حكمت انتقال الألفاظ العربية إلى الإسبانية . وأهم هذه الأبحاث هى التى قام بها أرنالد شتايجر فى كتابه حول « صوتيات لغة أهل الأندلس وصقلية »(٨) ، ورامون مننت بيدال فى كتابه « أصول اللغة الإسبانية »(٩) ، ثم الدراسة الجامعة التى اضطلع بها عضو مجمعنا المراسل فيديريكو كورينتى ، وهى بعنوان « تخطيط نحوى لمجموعة اللهجات الأندلسية »(١٠) .

وأول دراسة جامعة للأعلام الجغرافية ذات الأصول العربية هى التى قام بها العالم الإسبانى ميجيل أسين بلاثيوس بعنوان «دراسة للأعلام الجغرافية العربية فى إسبانيا »(١١) وقد جمع فى هذا الكتاب أسماء نحو ألف وخمسمائة موضع أرجعها لأصولها العربية وألحق بالكتاب قائمة بنحو أربعمائة وخمسين علما رجح أنها من أصول عربية وإن لم يستطع معرفة الأصول التى أخذت عنها . وهو جهد تتجلى فيه سمات كل عمل ريادى بما فيه من ميزات ووجوه نقص ، فقد كان موفقا فى تتبع أسماء هذا العدد الكبير من أسماء المواضع وفى الاهتداء إلى أصول اشتقاقها ، غير أن الكثير من المواضع الأخرى قد فاته ، فمن المؤكد أن قائمة الأسماء تزيد على ما جمع أضعافا مضاعفة ، وأن فى تحقيقه لأصولها ما يحتاج إلى تصحيح وإعادة نظر فى ضوء ما تكشفت عنه النصوص والدراسات الكثيرة التى نشرت خلال السنوات الأخيرة . وعلينا أن نذكر أن قائمة أسين بلاثيوس قد وضعت منذ أكثر من نصف قرن أحرزت خلاله الدراسات

الأندلسية تقدما هائلا سواء من ناحية الكم أو الكيف .

ملاحظات عامة :

١ - كان شبه جزيرة إيبريا منذ أقدم عصور التاريخ ملتقى لهجرات كثيرة متعاقبة قادمة إليها من الشرق أو من شمال إفريقيا أو من الشمال الأوربى . وقد كان الفينيقيون من أول الجماعات التى هاجرت من السواحل الشامية وامتدت مستوطناتها على طول الساحل الإفريقى الشمالى ، ثم فى جنوبى إسبانيا حيث أنشأوا عددا من المدن التى كانت من أزهر مدن العالم القديم . ومنها جادر Gadir ومالاكا Malaka . ويرجع تاريخهما إلى نحو القرن الحادى عشر قبل الميلاد . ومن المعروف أن الفينيقيين شعب سامى وأن لغتهم تنتمى إلى نفس المجموعة اللغوية التى تنتسب إليها العربية . فلفظ «جادر» مشتق من القدرة ، وقد حرفه الرومان إلى جادس Gades وحافظ العرب على صيغة اللفظ فأطلقوا على المدينة اسم قادس ، وهى بإسبانية اليوم Cádiz . أما مالاكا فاسمها مشتق من لفظ الملك وأطلق عليها العرب اسم مالقة ، وعرف الرومان هذا الاسم ولو أنهم أطلقوا عليها اسما آخر هو ترجمة للفظ الفينيقى فسموها Reggio أو Reyyo المشتق من لفظ Rex أى الملك ، وعرف العرب هذا الاسم أيضا فسموا به المنطقة التى كانت مالقة قصبتها ، وكانوا يعرفون معنى اللفظ ، فابن سعيد يقول فى وصف مالقة «ويكفيها من الإطناب مايتضمن شرح اسمها ، إذ معنى ريُّه عند النصارى (يعنى الرومان) سلطانة ، فهى سلطانة البلاد »(١٢) .

٢ - وخلال القرن السادس قبل الميلاد نشأت على سواحل شمال إفريقيا دولة قوية جديدة هى قرطاج Cartago والقرطاجيون ينحدرون من الفينيقيين وهم ورثة دولتهم ، وقد استطاعوا فى امتدادهم على سواحل البحر المتوسط أن يستولوا على أجزاء كبيرة من جنوبى إسبانيا وسواحلها الشرقية ، واختطوا مدينة سموها قرطاجة الجديدة ، وهذا هو اسمها الرومانى Cartago Nova ، ولم يبتعد العرب فى تسميتها كثيرا عن هذا الاسم الرومانى ، إذ أطلقوا عليها قرطاجنة وهو بالإسبانية اليوم Cartagena ، وما زالت هذه المدينة تعد من أهم القواعد البحرية الإسبانية .

٣ - وعلى أرض شبه الجزيرة أنشأ القرطاجيون حضارة زاهرة استمرت على مدى نحو ثلاثة قرون ونصف قرن . ثم بدأ النزاع بينهم وبين الرومان فدارت بين الجانبين حربان طويلتان الأولى كان ميدانها جزيرتا صقلية وسردانية ، وذلك فيما بين سنتى ٢٦٤ و ٢٤١ ق.م. ثم تجدد القتال فيما يعرف باسم الحرب البونية الثانية بين سنتى ٢١٨ و ٢٠٢ ق.م. وانتهت بهزيمة القرطاجيين واندثار دولتهم فى شبه الجزيرة . ومنذ هذا التاريخ بدأ غزو الرومان لإسبانيا ، ولكنهم قوبلوا بمقاومة شديدة من قبل أهل البلاد ، فلم يتمكنوا من بسط سيطرتهم على البلاد إلا بعد قرنين من الزمان . وابتداء من القرن الميلادى الأول تبدأ البلاد فى الاصطباغ بالصبغة الرومانية ، فيتخذ أهلها اللاتينية لغة لهم ، ويبدأ الرومان فى تقسيم البلاد إلى مقاطعات إدارية وفى تشييد عدد كبير من المدن الجديدة، وكان الرومان مغرمين بالعمران والعناية بتشييد المبانى البالغة الفخامة .

٤ - وفى أواخر القرن الرابع الميلادى بدأ انحلال الامبراطورية الرومانية ، فتعرض شبه جزيرة إيبريا لغزو القوط ، وهم شعب جرمانى بدوى شديد المراس ، واستطاع هؤلاء فى سنة ٤٠٩ للميلاد الاستيلاء على شبه الجزيرة . ولم يضف القوط شيئا إلى عمارة الرومان ، بل إن الاضمحلال أصاب كثيرا من المدن التى أنشأها الرومان حتى كاد كثير منها يتلاشى ويندثر . وأما الريف فقد كان أسوأ حالا ، وتحول المزارعون إلى مايشبه العبيد(١٣) .

٥ - وحينما فتح العرب شبه الجزيرة لم يروا حاجة إلى التوسع فى إنشاء مدن جديدة ، وإنما اكتفوا بتنمية المدن التى أنشأها الرومان والتوسع فى عمارتها ، واحتفظوا بأسمائها الرومانية القديمة محرفة بعض الشئ بما يتفق مع طبيعة لغتهم مع اختصارها قليلا فمثلا مدينة Hispalis أصبحت إشبيلية ، و Caesar Augusta (أى مدينة القيصر أغسطس) : سرقسطة ، و Augusta Emerita : ماردة . وTarraco : طركونة . وهناك مدن كانت فى طريقها إلى الضمور والاضمحلال مثل Iliberris التى سموها إلبيرة ، فرأى المستوطنون العرب أن ينتقلوا إلى موضع مجاور لها كان قلعة صغيرة ، فاتخذوها قاعدة وحاضرة للإقليم بعد أن تزايد

العمران فيها وإن كانوا قد احتفظوا باسمها اللاتيني أيضا ، وهي غرناطة Granada .

مدن عربية جديدة :

لابن خلدون في « مقدمته » مقولة تلقفها أهل العصبية من المستشرقين المبغضين لحضارة العرب والإسلام ، وهي « أن المباني التي كانت تختطها العرب يسرع إليها الخراب ... وذلك لقلة مراعاتهم لحسن الاختيار في اختطاط المدن ... في المكان وطيب الهواء والمياه والمزارع والمراعي »(١٤) . والحقيقة أن ابن خلدون حينما تحدث عن العرب في هذا النص وفي غيره من نصوص الكتاب فهو إنما يقصد الأعراب البدو . وإلا فإننا نجد العرب الذين دخلوا الأندلس قد اختطوا في هذه البلاد مدنا تكذب تلك المقولة ، صحيح أن هذه المدن الجديدة كانت قليلة بالقياس إلى المدن القديمة التي كانت من منشآت الفينيقيين أو الرومان ، ولكنها كانت جيدة الاختطاط وراعى فيها مؤسسوها حسن اختيار المواقع ومايضمن لها العمران من طيب الهواء والمياه والمزارع . ونورد فيما يلي بعض هذه المدن المستحدثة في عهد المسلمين والتي كانت عامرة مزدهرة أثناء حكمهم للبلاد ثم ظلت كذلك بعد استيلاء المسيحيين عليها ، مما يدل على أن العرب كانوا يحسنون اختيار المواقع لبناء المدن ، وسنرى كيف ظلت هذه المدن المستحدثة محتفظة بأسمائها التي أطلقها عليها العرب .

- جبل طارق Gibraltar ، وهو أول موقع نزل به فاتح الأندلس الأول طارق بن زياد ، وقد عرف المسلمون منذ البداية قيمة هذا الموقع الاستراتيجية ، فعملوا على العناية بتحصينه ، وتحول في ظل الخليفة الموحدي الأول عبد المؤمن ابن علي (سنة ٥٥٥/١١٦٠) إلى مدينة كبيرة كانت تدعى «جبل الفتح» ، وظل طوال دولة الإسلام أحد المعابر الرئيسية بين الأندلس والمغرب ، وتداوله المسلمون وأعداؤهم خلال القرن التاسع الهجري حتى انتهى الأمر بسقوطه الأخير في أيدي المسيحيين ، وكان سقوطه نذيرا بنهاية دولة الإسلام في الأندلس ، وصور ذلك الشاعر البسطي في بكائية مؤثرة يقول فيها :(١٥)

وقائلة : ما لي أراك مقطبا
كأنك للتقطيب هددت بالذبح

فقلت : دعيني الحزن فرض على الورى
أما قد حوى أعداؤنا «جبل الفتح»

حرام علينا البشر والسمح بعده
وفي القلب من آلامه أعظم الجرح

غير أن إسبانيا المسيحية لم تنعم كثيرا بالاستيلاء على هذا الموقع الذى كان يتحكم فى المدخل الغربى للبحر المتوسط ، فلم تمض قرابة قرنين حتى انتزعته منها بريطانيا العظمى فى سنة ١١١٥/١٧٠٤ ، وتحول فى ظل السيادة البريطانية إلى مستعمرة بالغة الخطر ، مازالت حتى الآن مثار نزاع بين إسبانيا وإنجلترا .

- الجزيرة الخضراء Algeciras ، وهى من أهم مرافئ جنوبى إسبانيا ، ويرجع بناؤها إلى بداية نزول المسلمين بها إبان الفتح ، وتعد من أهم المعابر بين المغرب والأندلس ، وتقع على مدخل مضيق جبل طارق مواجهة لمدينة سبتة المغربية . واختصر الإسبان اسمها إلى الجزء الأول من اسمها العربى . ومن الطريف أن هذه المدينة البحرية الجميلة تقع على مصب نهر صغير كان العرب يدعونه وادى العسل(١٦) وقد ترجم الإسبان اسمه العربى ترجمة حرفية ، فأطلقوا عليه Rio de la Miel .

- طريف Tarifa ، وهى ثالثة المعابر بين الأندلس والعدوة المغربية على مضيق جبل طارق ، فى أقصى جنوبى إسبانيا ، ومازالت حتى اليوم تحمل اسم أول قائد مسلم اضطلع بحملة الاستكشاف الأولى قبل طارق بن زياد ، وهو أبو زرعة طريف بن مَلّوك مولى موسى بن نصير ، وكان موسى قد وجهه على رأس سرية لاختبار الشاطئ الأندلسى ، وكان ذلك مقدمة للفتح الكبير .

- قلعة أيوب Calatayud ، وهى منسوبة إلى ثالث ولاة الأندلس أيوب بن حبيب اللخمى ابن أخت موسى بن نصير ، وتقع فى الثغر الأعلى إلى الجنوب الشرقى من سرقسطة .

- مدينة سالم Medinaceli ، عاصمة الثغر الأوسط فى عصر الخلافة ، وتدين بفضل إنشائها واسمها الذى لا يزال يطلق عليها إلى أحد قادة البربر سالم بن ورعمال وكان من موالى بنى مخزوم ، وهى الآن مدينة متوسطة تتبع محافظة سرية Soria . وكان بها قبر المنصور بن أبى عامر .

- وادى الحجارة Guadalajara من كبريات مدن الثغر الأعلى ، وكان يطلق عليها أيضا اسم « مدينة الفرج » نسبة إلى منشئها الفرج بن مسرة بن سالم حفيد ذلك القائد البربرى سالم بن ورعمال الذى أنشأ مدينة سالم .

وهى الآن عـاصـمـة إحـدى مـحـافظات إقليم قـشـتـالة ، وتقع على الطريق بين مـدريد وسرقسطة .

وقد انتقل اسم المدينة إلى أمريكا فهو يطلق الآن على ثانى مدن المكسيك .

- مـرسـيـة Murcia ، وهى مـدينة مستحدثة أمر بإنشائها الأمير عبد الرحمن الأوسط سنة ٢١٦ (٨٣٢) وتقع على نهر كان العرب يدعونه النهر الأبيض أو نهر شقورة Rio Segura وهو الاسم الذى يطلق عليه الآن ، ويروى منطقة مرسية ذات الخصوبة البالغة ، وكان الجغرافيون القدماء يشبهونه بنهر النيل ، ومن أجل هذا فقد نزل جند مصر هذه المنطقة منذ أول الفتح . وقد تزايد عمران المدينة خلال عصرها الإسلامى ، وإليها ينتسب عدد من كبار رجال الفكر نذكر منهم اللغوى الكبير ابن سيدة الضرير صاحب أول معجم دلالى هو «المخصص» ، وثلاثة من أعلام التصوف : هم محيى الدين ابن عربى نزيل دمشق وابن سبعين نزيل مكة ، وابو العباس نزيل الاسكندرية ووليها الكبير .

- بطليوس Badajoz ، وكان منشئها الثائر على إمارة بنى أمية بقرطبة عبد الرحمن ابن مروان المعروف بالجليقى ، وذلك بعد مسالمته للأمير محمد بن عبد الرحمن فى سنة ٢٦٢ (٨٧٦) وكانت فى أول أمرها تابعة لمدينة ماردة Mérida قاعدة غرب الأندلس ، ثم أخذت فى النمو والاتساع حتى أصبحت فى عصر ملوك الطوائف حاضرة لواحدة من أكبر الممالك ، وهى دولة بنى الأفطس . وهى الآن عاصمة لإحدى محافظتى الإقليم الذى يدعى Extremadura (أى الطرف الأقصى) وتقع فى أقصى غربى إسبانيا على حدودها مع البرتغال . أما الاسم الذى أطلق على المدينة فمن الواضح أنه غير عربى . وقد اختلف اللغويون على أصل اشتقاقه ، على أن اتخاذ اسم عجمى لمدينة بنيت فى العهد الإسلامى يبدو أمرا غريبا ، ولكن تفسيره يكمن فى ظاهرة الازدواج اللغوى الذى كان فاشيا فى الأندلس سواء فى ذلك المسلمون والنصارى . وسنرى على هذه الظاهرة أمثالا كثيرة .

- قلعة رباح Calatrava ، وهى بلدة صغيرة تقع الآن فى غربى محافظة لامانشا La Mancha وهو الذى كان يعرف فى أيام المسلمين باسم « الجوف » . وقد ذكر بعض العلماء ومنهم تسايبولد وأسين بلاثيوس أن بناء القلعة يرجع إلى على بن رباح ، وهو

أحد التابعين الذين دخلوا الأندلس فى بداية الفتح مع موسى بن نصير . غير أن ذلك لايبدو مؤكدا .

- البسيط Albacete ، وهى مدينة محدثة أنشئت فى عصر الموحدين فى أواخر القرن السادس الهجرى ، ويرجع اسمها إلى وقوعها فى سهل منبسط ، وهى الآن بعد أن اتسع عمرانها عاصمة لإحدى محافظات الإقليم المعروف باسم لامانشا ، متاخمة لمحافظتى مرسية وبلنسية .

- المرية Almeria ، وهى مدينة محدثة أمر ببنائها الخليفة الأموى عبد الرحمن الناصر لدين الله فى سنة ٣٤٤ (٩٥٤) وسرعان ما أصبحت قاعدة الأسطول الأندلسى فى البحر المتوسط ، ثم نمت نموا كبيرا فى العصور التالية ، وأصبحت من أشهر مراسى الأندلس وأعمرها ، إذ كانت مركزا تجاريا يربط البلاد بموانى الشمال الإفريقى والمشرق ، وكانت ثانية مدن الدولة فى عصر بنى الأحمر بعد العاصمة غرناطة ، وهى الآن عاصمة إحدى محافظات الجنوب الشرقى ، متاخمة لمحافظتى غرناطة ومرسية . أما اشتقاق الاسم فمختلف فيه ، فهناك من يقول إنها تصغير غير قياسى للفظ « المرآة » لصفاء ماء البحر لديها ، وهناك من يقول إن اللفظ صفة للمدينة ومعناه « الطيبة » وهو تفسير يذكرنا بالعبارة الشعبية التى يرددها أهل الاسكندرية تمدحا ببلدهم : « اسكندرية مَرِيَّة » .

- المنكب Almuñecar ، مدينة ساحلية صغيرة تعد من مرافئ غرناطة ، ويبدو أنها قديمة البنيان أنشئت بعد فتح الأندلس بقليل إذ يرد ذكرها فى أقدم المصادر الأندلسية ، وقد ارتبط اسمها بحدث تاريخى له أهميته الكبرى ، فقد كانت أول موضع ينزله عبد الرحمن بن معاوية الداخل « صقر قريش» بعد فراره من الشرق ومغامرته التى انتهت بإقامته لدولة بنى أمية فى الأندلس ، وذلك فى سنة ١٣٨ (٧٥٦) . وبهذه المناسبة أذكر أن بلدية المدينة أقامت منذ سنوات تمثالا كبيرا فى أكبر ميادينها لعبد الرحمن الداخل وهو على صهوة جواده مذكرا بتلك اللحظة التاريخية . أما أصل اشتقاق الاسم فهو من الفعل « نكَّب » أى مال وانحرف ، وفى ذلك تصوير لموقع المدينة ، فهى تقع على سفح منحدر بين الجبل والبحر . وكانت المنكب مشتهرة - ولا تزال -

بمزارع قصب السكر ، وهى صناعة أدخلها العرب لهذه المنطقة لملاءمتها لذلك المحصول .

- قصر آش ، وتكتب أيضا قصرش Cáceres ، وهى مدينة محدثة فى عصر متأخر ، إذ لا نجد لها ذكرا فى المصادر الأندلسية قبل عصر المرابطين فى أوائل القرن السادس الهجرى ، ولم تبق فى أيدى المسلمين إلا نحو قرن من الزمان ، إذ استولى عليها ملك ليون يعاونه جيش من قشتالة ومن فرسان قلعة رباح فى سنة ٦٢٤ (١٢٢٧) بعد حصار استمر خمس سنوات . واسم هذه المدينة يبدو مولدا (hibrido) مؤلفا من لفظ «قصر» العربى و « آش » العجمى ، فهو إذن ثمرة لما سبق أن ذكرناه حول ظاهرة الازدواج اللغوى فى الأندلس . ولفظ آش هو الذى نجده ملحقا بـ « وادى » فى اسم مدينة « وادى آش Guadix » التى كانت من كبريات المدن التابعة لغرناطة ، وأصله إيبيرى قديم (Acci) ، وهو يعنى الماء . وقد نمت تلك المدينة الحصينة بعد استيلاء المسيحيين عليها حتى أصبحت الآن عاصمة لإحدى محافظتى إقليم إكستريمادورا Extremadura فى غرب إسبانيا (والأخرى هى محافظة بطليوس التى أسلفنا الحديث عنها) .

- ونختم هذا الحديث عن المدن التى يرجع للمسلمين فضل استحداثها بتلك المدينة التى تتمثل فيها العبقرية الأندلسية ، وهى مجريط التى تحولت بمضى الزمن إلى عاصمة إسبانيا منذ سنة ١٥٦٢ حتى اليوم بعد أن تحرف اسمها إلى « مدريد » Madrid .

وإنشاء مدريد يرجع إلى الأمير محمد بن عبد الرحمن الأوسط (الذى حكم بين سنتى ٢٣٨ و ٢٧٣/ ٨٥٢-٨٨٦) . وكان هذا الأمير حريصا على تحصين ثغور الأندلس فيما بين الثغر الأعلى (سرقسطة) والثغر الأدنى (طليطلة) ، ومن هنا كان اهتمامه بعمارة المدينتين اللتين تحدثنا عنهما من قبل وهما : وادى الحجارة ومدينة سالم ، ثم رأى أن يعزز الخطوط الدفاعية الفاصلة بينه وبين مملكة ليون ، فعمل على إنشاء سلسلة من القلاع الحصينة على السفوح الجنوبية لجبال وادى الرمل Guadarrama التى تشق الهضبة الوسطى . ويذكر المؤرخون من هذه القلاع : طلمنكة Talamanca وولموش Olmos وقنالش Canales وقلعة خليفة Calatalifa . ونلاحظ أن جميع هذه الأسماء فيما عدا الأخير عجمية ، وهو ما يؤكد ظاهرة الازدواج اللغوى التى تحدثنا عنها من قبل .

وقد نمت مجريط فى ظل المسلمين فتحولت من قلعة منيعة إلى « مدينة شريفة » على حد قول ابن عبد المنعم الحميرى(١٧) ، وذلك بفضل النظام الذى وفق المسلمون إليه فى إمدادها بالماء اللازم للتوسع فى مرافقها ، وذلك بعد أن اكتشفوا أن المدينة تقوم على بحيرة من المياه الجوفية الصالحة للشرب . فكان أن عملوا على حفر عدد كبير من الآبار ثم التوصيل بينها بشبكة معقدة من القنوات تتجمع تحت الأرض فى عدد من الصهاريج ، ومنها تمتد أنابيب توصل المياه إلى أحياء المدينة ومنازلها . وبفضل هذا النظام الهندسى الذى نماه المسيحيون بعد ذلك اتسعت المدينة وازداد عمرانها حتى وقع الاختيار عليها لتكون عاصمة لإسبانيا فى عهد الملك فيليب الثانى سنة ١٥٦٢ . وقد أفاض فى شرح هذا النظام الباحث الإسبانى خايمى أوليفر أسين فى كتابه « تاريخ اسم مدريد »(١٨). وفصلنا الحديث عنه فى كتابنا الذى أفردناه للمدينة : « مدريد العربية » ، القاهرة ١٩٦٧

أما اسم « مجريط » الذى أطلقه المسلمون على المدينة فقد كان مثار خلاف عريض بين المؤرخين واللغويين . وقد انتهى خايمى أوليفر أسين فى كتابه الذى أشرنا إليه إلى أن اللفظ يتألف من لفظ عربى هو « مجرى » ثم اللاحقة « يط » المأخوذة من اللاتينية etum والدالة على التكثير ، أى المكان الذى تكثر فيه المجارى ، والمقصود بالمجارى تلك القنوات الجوفية التى كانت تؤلف شبكة من الأنابيب هى التى كان اعتماد السكان عليها فى إمدادهم بما يلزمهم من مياه(١٩) . على أن اللغوى الكبير فيديريكو كورينتى عضو مجمعنا المراسل كان له رأى آخر يبدو أنه أكثر اتساقا مع المنهج اللغوى السليم ، وهو أن اللفظ العربى تطور من اللاتينية المتأخرة Matrice الذى يعنى « المستودع الأم » للمياه ، وهو ما يقابل بالعربية « مطريج » ، ثم حدث قلب موضعى بين حروف اللفظ - وهذه ظاهرة لغوية تتكرر فى كثير من الأسماء فأصبح « مجريط » وانتهى فى القرن الثالث عشر الميلادى إلى « مدريد »(٢٠) وبهذا يكون الاسم مأخوذا من لفظ لاتينى خالص ، وهو أمر لايستغرب إذا ذكرنا أن معظم القلاع التى أنشأها الأمير محمد مع مجريط كانت تحمل أسماء عجمية .

ومن العرض السابق يتبين أن عدد المدن الكبرى التى استحدثها العرب أثناء حكمهم شبه الجزيرة الإيبيرية والتى تحولت بعد ذلك إلى عواصم للمحافظات كان قليلا بالقياس إلى المدن القائمة عند الفتح العربى مما بُنى فى ظل الحضارات السابقة . هذا على حين نرى الأسماء العربية شائعة شيوعا كبيرا بين المدن الثانوية والقرى . وليس فى هذا مأخذ على الحضارة العربية الأندلسية ، بل لعله شاهد على الحس الحضارى الذى اتسم به العرب فى استيطانهم لما فتحوه من بلاد فى المشرق والمغرب ، فهم حيث رأوا مدنا قائمة لم يروا حاجة لتغيير بنيتها أو أسمائها ، وإنما أضافوا إلى عمرانها ماجعلهم أولى بها من منشئيها . ويكفى أن نشير إلى ماقاموا به فى مدن قديمة كانت من إنشاء الفينيقيين أو الرومان ، مثل مالقة وقرطبة وإشبيلية وطليطلة وسرقسطة ، فقد نموا عمران هذه المدن وحولوها إلى حواضر كبرى زاخرة بالنشاط من كل نوع . ولنتأمل تاريخ مدينة مثل قرطبة وهى من المدن التى أسسها الرومان فقد ظلت على عهدهم ثم فى أيام القوطيين مدينة متوسطة ، فلما اتخذها مسلمو الأندلس قاعدة لهم أخذ عمرانها فى النمو حتى أصبحت فى ظل الخلافة الأموية أكبر الحواضر فى الغرب كله سواء الإسلامى أو المسيحى ، وبلغ عدد سكانها نحو مليون نسمة ، وكان فيها من العمائر والقصور والمساجد والحمامات والمتنزهات والأسواق مالم يكن يضاهيها فيه إلا بغداد والقسطنطينية . وحينما استولى القشتاليون على قرطبة فى سنة ٦٣٣ (١٢٣٦) أخذ عمرانها فى التراجع حتى أصبحت من مدن الدرجة الثالثة وإن كانت قد استعادت بعض عظمتها القديمة خلال السنوات الأخيرة .

أما ظاهرة شيوع الأسماء العربية بين المدن الصغيرة والقرى والقلاع فإنها تدل على مدى عناية مسلمى الأندلس بتعمير الريف ومايتطلبه ذلك من استنباط المياه وشق القنوات وتحسين نظم الرى . وما أكثر ماسمعنا الفلاحين فى منطقة شرق الأندلس – وهى أخصب أراضى إسبانيا وأغناها – يشهدون بأن نظم الرى التى يستخدمونها هى التى ورثوها عن أسلافهم المسلمين ، ويدل على ذلك أن كثيرا من الألفاظ المتعلقة بالمياه والرى والفلاحة مما أصبح جزءاً من المعجم الإسبانى مأخوذ عن العربية ، كما يتمثل ذلك فى العدد الكبير من مؤلفات

الأندلسيين فى الفلاحة والنبات والتقاويم الزراعية مثل كتب ابن حجاج القرطبى وأبى عبيد البكرى والغافقى وابن البيطار وابن العوام الإشبيلى وابن الرومية .

ويرجع اهتمام الفاتحين العرب بالريف ونشاطهم فى تعميره إلى فترة مبكرة ترجع إلى أول عهدهم بالفتح إذ تخبرنا المصادر التاريخية أنه حينما قدم أبو الخطار الحسام بن ضرار الكلبى واليا على الأندلس سنة ١٢٥ (٧٤٣) راعه تفاقم النزاع بين البلديين - وهم الجيل الأول من الفاتحين - والجند الشامى - وهم الجيل التالى لهم ، فاستقر رأيه على أن يخرج الشاميين من قرطبة ويسكنهم فى نواحى الأندلس المختلفة ، فاختارت كل طائفة من طوائف هؤلاء الجند منطقة تشبه المنطقة التى قدموا منها ، وهكذا استقر المصريون منهم - وكانوا أكثرهم عددا - فى ثلاث نواح من الريف هى تدمير (مرسية) وأكشونية (فى جنوب البرتغال) وباجة (فى البرتغال الوسطى) ، ونزل جند حمص فى إشبيلية ، وجند فلسطين فى شذونة ، وجند دمشق فى إلبيرة (غرناطة) وجند قنسرين فى جيان(٢١) . وبهذا تحول أولئك المحاربون بعد استقرارهم فى تلك المناطق الريفية إلى زراع مقتدرين يعملون على استصلاح الأراضى واستثمار الحقول وتنمية الموارد . والملاحظ أن العرب ومن كان معهم من الموالى كانوا يفضلون السهول والبسائط ، على حين استقر شركاؤهم فى الفتح من البربر فى المناطق الجبلية التى كانت تشبه البلاد التى قدموا منها فى شمال إفريقيا(٢٢) . ولم يكن من الغريب أن تتسمى القرى والقلاع التى نزل بها كلا الفريقين بأسماء الأسر العربية أو البربرية التى عملت على استيطانها .

ضوابط لتعرف الأصول العربية :

تعرضت أسماء الأعلام الجغرافية العربية على ألسنة الإسبان بعد استيلائهم على ماكان بأيدى المسلمين لكثير من التحريف حتى لم يعد من السهل الاهتداء إلى أصولها القديمة . وقد تطلب هذا من الباحثين جهودا مضنية ، ولاسيما حينما كان المعروف من النصوص الأندلسية قليلا ، على أن العقود الأخيرة شهدت نشاطا متزايدا فى تحقيق عدد كبير من تلك النصوص ، وأدى ذلك إلى زيادة معرفتنا بتلك الأصول . كذلك أعان على هذه المهمة ماقام به الباحثون الإسبان من نشر الوثائق

القديمة التى تم بمقتضاها توزيع ماستولى عليه المسيحيون من أرض الأندلس على الفاتحين ، فقد سجلت هذه الوثائق أسماء القرى التى وزعت بصفتها إقطاعات على النبلاء وقادة الجيوش المشتركين فى الفتوح . ومن هذه الوثائق المنشورة أخيرا والمدعوة « بالتوزيعات » (Repartimientos) ماهو خاص ببلنسية وإشبيلية ومالقة وجزيرة ميورقة . وبفضل هذه الوثائق استطاع الباحثون الإسبان ممن يعرفون العربية أو ممن استعانوا بالمتخصصين فى هذه اللغة أن يستكشفوا أصول عدد كبير من أسماء المواضع . ومن حصيلة هذه المعارف أخذ اللغويون فى وضع ضوابط لتبين الأصول العربية لتلك الأسماء . وكان من أسبق هؤلاء الباحثين أرنالد شتايجر فى كتابه الذى أشرنا إليه من قبل عن « صوتيات اللهجة الأندلسية »(٢٣) وماطرأ على الألفاظ العربية التى انتقلت إلى الإسبانية من تغيرات صوتية . على أن هناك أمرا ينبغى التنبه إليه ، وهو ما استطاع أسين بلاثيوس أن يدركه بحسه اللغوى ، وهو أنه لم تكن هناك لهجة أندلسية موحدة ، بل لهجات عديدة اختلفت باختلاف المناطق ، فلم تكن لغة الخطاب الدارجة التى يتحدث بها أهل غرناطة مثلا هى نفسها لغة أهل بلنسية أو سرقسطة أو غيرها من أقاليم الأندلس ، ومن هنا اختلفت الصور التى تم بها انتقال اللفظ العربى الواحد إلى هذه أو تلك من بقاع إسبانيا . ونضرب على ذلك بعض الأمثلة :

- لفظ « القصر » وهو شائع فى الأعلام الجغرافية الأندلسية نراه قد انتقل بعدة صور تتمثل فى الأعلام الآتية : فهو فى منطقة الثغر الأعلى (أرغون الحالية) Alquézar ، وفى بلنسية Alcácer مع نبر حرف الـ a الأول ، وفى البرتغال {Alcaçer {do sal (وكان العرب يسمون هذا الموضع قصر أبى دانش ، أو قصر الملح) ، وفى سائر أنحاء الأندلس Alcázar .

- لفظ « المدوَّر » ، أصبح فى قرطبة Almodóvar ، وفى أرغون Almudévar

- لفظ « السهلة » ، نجده فى لقنت Alicante فى صورة Adsaila وفى تيروال Teruel : Azaila

- لفظ «الزاوية» : تحول إلى Adsubea أو Adsubia فى لقنت و Azoya فى مرسية و La Zubia فى غرناطة .

- لفظ « البحيرة » : نجده فى صورة Albuhera فى قصراش Cáceres

وفى المدينة الملكية Ciudad Real ، و Albufera فى بلنسية ومرسية وميورقة ولقنت ، و Albuera فى قصراش وبطليوس ، و Albogaira فى المرية .

- لفظ « الخندق » : أصبح Alfandeche فى بلنسية ، وAlhándiga فى مالقة ، و Alfántega فى وشقة و Alfándiga فى لك Lugo .

- لفظ « الضيعة » : نجده معرفا ومنكرا فى صور عديدة : Aldaya فى بلنسية ، و Aldea وهى أشيع الصور ، فهناك ٢٢٩ موضعا فى إسبانيا تحمل هذا الاسم مشفوعا بصفة مميزة ، أو فى صيغة التصغير ، وAdaya فى منورقة Menorca، و Daya فى لقنت ، و Deyá فى جزر البليار .

وللتباين فى صور الكلمة العربية الواحدة أمثلة كثيرة ، نكتفى منها بما ذكرنا . وجدير بالذكر أن لهذه الظاهرة قيمة كبيرة فى إلقاء الضوء على لهجات مختلف مناطق الأندلس ، وذلك لأن هذه الألفاظ العربية لم تنتقل إلى الإسبانية عبر لغة الكتابة الفصيحة ، وإنما من خلال لغة الخطاب الشفاهية ، ومن هنا فإنها تصور لنا الطريقة التى كان الأندلسيون ينطقون بها تلك الألفاظ فى بقاع البلاد المختلفة .

وتتفاوت الأعلام الجغرافية كما ينطق بها الإسبان اليوم فى مدى قربها أو بعدها عن أصولها العربية ، فهناك منها ما يسهل الاهتداء إلى أصولها إذا سلمت من التحريف أو أصابها منه قليل ، ولكن هناك ألفاظا أخرى تعاقبت عليها مراحل من التحريف حتى بعدت كثيرا عن أصولها ، وهنا يصبح الاهتداء إلى صورها الأولى أمرا من العسر بمكان . وحينئذ قد يعين على معرفة أصولها الرجوع إلى الوثائق الإسبانية التى قد تكون سجلت أسماء تلك المواضع فى زمن قريب العهد بوجودها الإسلامى ، هذا إذا أسعدنا الحظ بوجود تلك الوثائق . غير أن ذلك لايتوافر فى جميع الحالات .

ومن أمثلة المواضع التى لانجد صعوبة فى الاهتداء إلى أصولها العربية تلك التى تبدأ بألفاظ مثل القصر Alcázar ، والقلعة Alcalá ، أو Calat بصيغة التنكير ، أو مصغرة فى صورة القليعة Alcolea ، أو التى تحمل اسم علم مثل التى تبدأ بلفظ ابن Aben أو Ben أو اسم قبيلة أو أسرة

بنى Beni ، وسنرى نماذج لأمثال هذه المواضع .

وهناك أسماء تتألف من جزأين : جزء عربى وآخر عجمى ، وهو أمر راجع إلى ما ذكرناه من ظاهرة الازدواج اللغوى bilingüismo التى كانت شائعة فى الأندلس ، فبعض المواضع عجمية الأصول ، غير أنها تحمل فى بدايتها أداة التعريف العربية مثل البونت Alpuente ، فلفظ puente المعرف بأل يعنى القنطرة ، و Almonte ، وهو تعريف عربى للفظ monte الذى يعنى الجبل ، و Fuentealbeitar التى تتألف من Fuente أى عين والبيطار ، و Torrealhaquime (Torre بمعنى برج + Alhaquime الحكيم) و Tordomar (Tor اختصار للفظ الذى يعنى برج + d اختصار لحرف الإضافة de + Omar أى عمر) و Castiel fabit (Castiel بمعنى حصن + Fabit اسم حبيب محرفا) و Villacadima (Villa بمعنى بلدة + قديمة Cadima) . وقد يضاف إلى الاسم العربى لاحقة التصغير الإسبانية مثل Alcazarejo (القصر Alcazar + ejo - وهى إحدى لواحق التصغير) ، و Alcantarilla (القنطرة + illa Alcántara وهى لاحقة أخرى تفيد التصغير) .

وليست نادرة أمثال هذه الحالات من التداخل اللغوى بين العربية واللاتينية أو اللاتينية الدارجة (إسبانية اليوم) . فقد كان الرومان يطلقون على سلسلة الجبال الشاهقة التى تطل على إقليم غرناطة اسم Mons Solarium أى الجبل المشمس ، ونقل المسلمون هذا الاسم مع تعريبه محتفظين بصورته اللاتينية ، فسموه « جبل شُلَيْر » ، وكان يضرب به المثل فى برودته ، ثم أطلقوا عليه اسما عربيا خالصا : « جبل الثلج » وترجمه الإسبان بعد ذلك ترجمة حرفية ، إذ دعوه Sierra Nevada ، ثم نقله الإسبان إلى القارة الأمريكية فتسمت به إحدى الولايات فى الولايات المتحدة وهى الواقعة على السفوح الشرقية لجبال روكى العالية . وكانت هناك قلعة تقع جنوبى مدينة ماردة كان الرومان يدعونها Castrum Colubri ، فترجم العرب هذا الاسم ترجمة حرفية إلى « قلعة الحنش » واحتفظ الإسبان بهذا الاسم العربى محرفا حتى اليوم فى صورة Alanje .

ولعل أكثر مايكشف عن الأصول العربية لأسماء المواضع دلالتها الواضحة على الأعلام العربية سواء أكانت مفردة أو منسوبة إلى الأب في صورة ابن (Aben أو Ben أو Vin) أو على سبيل الكنية : أبو فلان (Abo ، أو Bo) . فمن الأسماء المفردة : طريف القائد الذى ترك اسمه على المدينة الواقعة فى أقصى الجنوب Tarifa ، وسليمان الذى أصبح اسم قرية فى محافظة « البسيط » تدعى اليوم Zulema ، وسالم وهو اسم إحدى قرى بلنسية : Salem ، ومن أسماء الإناث زيدة Zaida فى محافظة سرقسطة ، وسكينة Zucayna فى محافظة قشتليون Castellón . ومن أسماء الأعلام المضافة إلى لفظ Villa (أى قرية أو ضيعة) : Villanazar (قرية نصر) فى محافظة سمورة Zamora ، Villacelama (... سلامة) فى محافظة ليون Leon ، Villambrús (... عمروس) من أعمال برغش Burgos، Villahamete (... أحمد) و Villabráhima (... إبراهيم) ، وكلتاهما من أعمال بلدوليد Valladolid . والملاحظ أن هذه القرى الأخيرة توجد فى مناطق لم تخضع أبدا لسلطان المسلمين ، ولهذا فوجود أمثال هذه الأسماء العربية يبدو غريبا لأول وهلة ، غير أن لهذه الظاهرة تفسيرا سوف نبينه فى موضعه .

ونذكر فيما يلى عددا من أسماء المواضع التى تبدأ بـ «ابن» : فى محافظة بلنسية : Abenromá (ابن رومان) ، Bengéber (ابن جابر) ، Benaguacil (ابن الوزير) ، وفى محافظة لقنت Alicante : Benasán (ابن حسن) ، Benamer (ابن عامر) ، Benalfaqui (ابن الفقيه) ؛ وفى المرية : Abenzuete (ابن سويد) ، Bentarique (ابن طارق) ، وفى البسيط : Abengibre (ابن جبر) ؛ وفى غرناطة Abenzaide (ابن سعيد) وقد كان بنوسعيد - الذين ينتمى إليهم ابن سعيد مؤلف كتاب «المغرب فى حلى المغرب» - هم سادة البلدة التى كانت تدعى «قلعة بنى سعيد» التابعة لغرناطة فلما استولى عليها المسيحيون احتفظت باسمها (Alcalá de Abenzaide) ثم أصبح اسمها الآن «القلعة الملكية» (Alcalá la Real) ، وفى مالقة : Bengalbón (ابن غلبون) ؛ وفى قادس Benamahoma

(ابن محمد) ؛ وفى وادى الحجارة : Benalaque (ابن الحكم) ؛ وفى سُرْية Benamira : Soria (ابن عميرة) وفى قصرش : Benafayán (ابن حيان) ، وفى لاردة Bingaña : Lérida (ابن غانية) ؛ وفى ميورقة : Bennasar (ابن نصر) ؛ وفى قشتليون Benasal : Castellón (ابن عسّال) ، وكذلك Vinaroz (ابن عروس) .

ومن الأسماء التى تحمل كُنًى عربية : Abofageg (أبو حجاج) فى محافظة نبرة Navarra ؛ و Albocabe (أبو كعب) فى سُرْية ، و Albolafia (أبو العافية) فى قرطبة ، و Albuixech (أبو إسحاق) فى بلنسية ؛ و Boadilla (أبو عبد الله) فى سلمنكة Salamanca ؛ و Bobadilla (أبو عبد الله) فى جيان .

وكثير من أسماء المواضع تحمل حتى الآن أسماء قبائل عربية أو بربرية أو أسر عمرت قرى مازالت تحمل أسماءها . ونذكر فيما يلى بعض هذه الأسماء :

من أسماء القبائل العربية : Alcaicia (القيسية) فى بلنسية ؛ Almoradi (المرادى) نسبة إلى بنى مراد وهى قبيلة يمنية معروفة ، فى لقنت ؛ و Alhendin (همدان) وهى إحدى كبريات القبائل اليمنية أيضا ، فى غرناطة ؛ و Ojén (خُشَيْن) ، إحدى بطون قضاعة ، فى مالقة ؛ Alfamin ، وكذلك Alaminos, Alamin (الفهميين ، نسبة إلى بنى فهم ، إحدى قبائل قيس عيلان بن مضر) ، فى طليطلة ووادى الحجارة .

ومن أسماء القبائل البربرية Albornoz فى قرطبة وإشبيلية ، وكذلك Albornos فى آبلة Avila ، وهو بُرْنُس بن بر ، جد شعب كبير من شعوب البربر يدعى فى صيغة الجمع بالبرانس ، وإليه تنتمى مجموعة كبيرة من القبائل مثل كتامة وصنهاجة ومصمودة وأوربة وهوارة ؛ ومنها Azuaga فى بطليوس ، وهى قبيلة زواغة إحدى قبائل البرانس ؛ Cehegin فى مرسية ، وهو اختصار للفظ «الصنهاجيين» ؛ Zaneta فى قشتليون ، و Ceneta فى مرسية ، واللفظان مأخوذان من «زناتة» ؛ Mequinenza فى سرقسطة ، وهى مكناسة إحدى قبائل زناتة ؛ Mestanza فى Ciudad Real أى المدينة الملكية ، وهى مسطاسة ، بطن من ازداجة إحدى قبائل البرانس ؛ أندارة Ondara فى لقنت ،

وهى إحدى قبائل هوارة ؛ Alcalá de los Gazules وهى قلعة بنى جزولة ، وهم أيضا من البرانس ، فى قادس ؛ وغمارة Gomara فى سرية ، وغمارة من قبائل الريف المغربى المعروفة وهى من البرانس ؛ Zacatena سكتان ، فى المدينة الملكية ، وسكتان إحدى بطون مصمودة ؛ Orba أوربة فى لقنت ودانية Denia ، وأوربة إحدى قبائل البرانس .

وأما المواضع التى تحمل أسماء أسر عربية فهى من الكثرة بحيث تستعصى على الاستقصاء ، ومعظمها يبدأ بلفظ «بنى» ، ونذكر بهذه المناسبة أننا أحصينا بصورة مبدئية عددا من هذه الأسماء فوجدناها فى إسبانيا أكثر مما نجده فى بعض البلاد العربية ، وتوجد معظم هذه الأسماء فى منطقة شرق الأندلس : المرية ومرسية ولقنت وبلنسية وقشتليون وطركونة وجزر البليار . ونذكر من هذه الأسماء :

فى المرية Benitagla بنى تغلب ؛ فى مرسية Beniaján بنى عجّان ، فى لقنت : Benicais بنى قيس ، Beniasim بنى عاصم ، Beniali بنى على ، Benigálip بنى غالب ، Benimaclet بنى مخلد ، Benijáfar بنى جعفر ، Benihomar بنى عمر ، Benihumeya بنى أمية ، Benifató بنى فتحون ، Benifarés بنى حارث ، Benisa بنى عيسى ، Beniomer بنى عمير ؛ وفى بلنسية Benicalaf, Benicalap بنى خلف ، Benicanena بنى كنانة ، Benifayró بنى خيرون ، Benifayó بنى حيون ، Beniganim بنى غانم ، Benimuslem بنى مسلم ، Benisanó بنى سحنون ، Benisoda بنى سودة ؛ Benibrahim بنى إبراهيم ، Benifaraig بنى فرج ، Beniflá بنى فلاح Benimámet ، بنى محمد Benimodó ، بنى مودود ، Beniopa بنى أبّا (واسم أبّا ليس عربيا وإنما هو حفيد لأمير قوطى كان من بين كبار الفقهاء المسلمين) ، Benioquer بنى عقيل ؛ وفى قشتليون Benicásim بنى قاسم ، Benigasló بنى غزلون ، Benifazá بنى حسن ؛ وفى طركونة Tarragona : Benifallet بنى خالد ؛ وفى جزيرة ميورقة Benifaldó بنى خلدون ، Beniali بنى على ، Benisalem ،

بنى سالم أو سلاَّم ، Beniamar بنى عمار أو بنى أحمر ؛ وفى جزيرة منورقة Benillant Menorca : بنى لمط ، وهى قبيلة بربرية وهم إخوة صنهاجة .

وهناك مجموعة من أسماء الأسر تنتهى بلاحقة جمع المذكر السالم (ين) ، رأينا بعضها فيما سبق مثل Alfamin أى الفهميين ، ومنها أيضا Zaidin (الزيديين) فى سرقسطة ، و Alfagarin (الحجَّارين) فى سرقسطة أيضا ، و Celemin (السليميين) فى قادس ، ولابد أن هؤلاء ينتمون إلى أسرة بنى السليم وكان منهم عديد من الوزراء ورجال الدولة فى قرطبة على عهد بنى أمية ، وإليهم تنسب «مدينة ابن السليم» على مقربة من قادس ، وهى التى تدعى الآن Grazalema ويلاحظ فى هذه الأسماء اختفاء ياء النسب تخفيفا للنطق ، وذلك أسوة بما حدث فى النسبة إلى بعض الأسماء فى المشرق ، مثل اليمانين والأشعرين .

القلاع والحصون :

لعلنا غير مبالغين إذا قلنا إننا لانكاد نجد قطرا فى أوربا حفل بالقلاع والحصون مثل قطرى شبه جزيرة إيبريا أى إسبانيا والبرتغال ، ومن اليسير تعليل هذه الظاهرة ، فقد كانت هذه الأرض مسرحا لصراع لم ينقطع بين المسلمين وجيرانهم من الإمارات والممالك المسيحية على مدى ثمانية قرون ، وقد اقتضى ذلك من الجانبين إقامة منظومات من القلاع على طول الحدود التى كانت دائما فى حركة لاتنقطع بحسب قوة كل طرف من أطراف الصراع أو ضعفه . وأعانت طبيعة البلاد وتضاريسها الجبلية الوعرة على إنشاء ذلك العدد الهائل من الحصون ، إذ كان ما يبنى منها فى موقع بالغ الارتفاع يتحول إلى قلعة منيعة يمكن أن تقاوم الحصار شهورا بل سنوات .

وقد برع مسلمو الأندلس فى بناء الحصون واختيار المواقع الملائمة لتشييدها على طول خطوطهم الدفاعية ، ولهذا فقد بقيت هذه المواقع حتى اليوم شاهدة بأسمائها على أصولها العربية . وتنوعت مفردات المعجم الدال عليها ما بين القلعة والحصن والقصبة والمدينة (بالتصغير) والبرج والسور والمحرس . بل إننا نجد لفظا كالقصر لايعنى مجرد المنزل الفخم الجدير بسكنى الأمراء وعلية القوم كما يتبادر إلى الذهن ، بل هو فى أغلب الأحوال أشبه

بقلعة حصينة ، فهو أقرب إلى العمارة الحربية منه إلى العمارة المدنية المعتادة .

ويعد لفظ «القلعة» أكثر الألفاظ شيوعا في هذا الضرب من ضروب العمارة وقد دخل إلى اللغة الإسبانية في صورة Alcalá ، وهو شائع شيوعا مفرطا في معظم محافظات إسبانيا : في إشبيلية وجيان وتيروال وسرقسطة وكونكة والبسيط وقادس وقشتليون ووشقة ومجريط . وفي هذه المدينة الأخيرة (مدريد) يطلق هذا الاسم على أحد شوارعها الرئيسية لأنه كان يمتد من القصر الملكي - وكان على عهد المسلمين هو قصر الحاكم العربي وأكثر مواقع المدينة حصانة - إلى آخر أطراف المدينة . بل إننا نجد هذه القلاع قد تحولت إلى مدن عامرة مازالت تحمل اسمها العربي . نذكر منها على سبيل المثال Alcalá de Henares على بعد ثلاثين كيلومترا من مدريد ، وكانت على عهد المسلمين تدعى «قلعة عبد السلام» . كذلك نجد مواضع تحمل مشتقات من لفظ «القلعة» مثل «القليعة» Alcolea - بالتصغير - في عديد من المحافظات : في قرطبة والمرية ووادي الحجارة ولقنت ولاردة .

وقد نجد اللفظ في صيغة التثنية Alcalatén في قشتليون .

ويستخدم لفظ «القصر» Alcázar مرادفاً للقلعة في عدد كبير من المدن : في قرطبة وإشبيلية وغرناطة وكونكة وشقوبية وأورنسي ، وجدير بالذكر أن المدينتين الأخيرتين لم تخضعا أبدا لحكم المسلمين ويستخدم اللفظ مصغرا في صورة Alcocer في لقنت ووادي الحجارة وبلنسية وبصيغة التثنية Alcazarén في سلمنكة وبلد وليد ، وهما بلدان لم يخضعا لسلطان المسلمين . أما القصبة Alcazaba فنجده في غرناطة ومالقة والمرية وبطليوس .

ويستخدم لفظ «قلعة» مضافا إلى اسم أو لفظ آخر ، كما رأينا في اسمي قلعة أيوب Calatayud وقلعة رباح Calatrava ، وكذلك في Calataraje قلعة الأعرج في مالقة و Calaceite قلعة زيد في تيروال ، و Calatorao قلعة التراب في سرقسطة ، و Calatañazor قلعة النسور ، وهو الموقع الذي تزعم المدونات المسيحية أنه دارت فيه معركة هزم فيها المنصور بن أبي عامر ، ولو أن ذلك لم يثبت تاريخيا .

ويشيع لفظ «الحصن» ومشتقاته في عدد آخر من المواضع نذكر منها Alisne,

Iznajar حصن آشر في قرطبة ، و Iznalloz حصن اللوز في غرناطة ، و Iznatoraf حصن التراب في جيان . ويظهر أن أهل إشبيلية كانوا ينطقون لفظ الحصن بفتح الحاء ، يدل على ذلك بلدان تابعان لإشبيلية ، يدعى أولهما Aznalcázar حصن القصر ، والآخر Aznalfarache حصن الفرج . ويرد الاسم مصغرا في صورة الحُصَيْن Aljocén في قادس وبطليوس ، و Alocén في وادي الحجارة ، والحصينة Alozaina في مالقة . وفي المدينة الملكية نلتقي بحصن ينسب كما يبدو إلى «هارون» Aznarón . ومن مشتقات هذا اللفظ المحْصَن Almazán الذي يطلق على بلدة تابعة لسُرْية .

ومن الألفاظ الأخرى التي تتضمن معنى المناعة «المحرس» Almaraz أي الموضع الذي يعهد للقائمين عليه بحراسة الثغر ، وهو يطلق على عدة مواقع في قصرش ، وبلد وليد ، وسمورة . والبلدان الأخيران لم يخضعا لسلطان المسلمين .

ومن الألفاظ المرادفة للقلعة المُدَيْنَة Almudaina ، وهو تصغير غير قياسي للفظ المدينة ، وقد استخدم في لقنت وفي جزيرة ميورقة ، واستعمل في صيغته الدارجة بإمالة كسرة الدال Almudena مرادفا للفظ القصبة في مجريط .

وقد يكون الحصن منسوبا إلى بانيه كما نرى في لفظ الـ Aljaferia الجعفرية في سرقسطة ، وهو القصر الحصين المنسوب لأبي جعفر المقتدر بن هود أحد ملوك الطوائف من بني هود الجذاميين في القرن الخامس الهجري ، وهو لايزال محتفظا بكثير من معالم عمارته الرائعة . وأحيانا يكتفي بنسبة الحصن إلى الأسرة أو القبيلة التي ينتمي إليها بناته مثل حصن « Canena » في جيَّان ، وهو اسم قبيلة كنانة .

وقد يكون الاسم وصفا لهيئته مثل لفظ «المُدَوَّر» الذي أطلق على العديد من الحصون في مناطق مختلفة ، وإن اختلف هجاء اللفظ باختلاف لهجات المناطق ، فهو في قرطبة وكونكة والمدينة الملكية Almodóvar ، وفي وشقة Almudévar ، أو يكون في الاسم إيحاء بالتفاؤل مثل «المُظَفَّر» ، وهو مانراه في الحصن المسمى Almudáfar في وشقة ، و Almudéfar في طركونة .

ويرتبط بمهام الدفاع بناء الأبراج ، وكانت تبنى فى مواقع متقدمة من الحدود ، ووظيفتها المراقبة وإنذار الخطوط الخلفية بأى بادرة لهجوم العدو . ولاتكاد تخلو منطقة فى إسبانيا من برج يحتفظ باسمه العربى أو مترجم إلى الإسبانية فى صيغة torre . ومن أجمل نماذج هذه الأبراج العربية التى مازالت محتفظة بعمارتها القديمة «برج الذهب» المطل على الوادى الكبير فى إشبيلية ، وقد أنشأه عامل المدينة إدريس بن يوسف بن عبد المؤمن فى سنة ٦١٧ (١٢٢٠) ، وهو يدعى الآن La Torre del Oro ترجمة عن اسمه العربى .

واحتفظت بعض المواضع باسم «برج» العربى ، منها Borge فى مالقة ، و Burch فى لاردة ، و Alborge فى سرقسطة ، وفى صيغة التصغير «البريجة» نجد Alboreya فى بلنسية و Alborayet فى ميورقة و Alborache فى بلنسية و Alborax فى البسيط . ونجد اللفظ فى صيغة الجمع مُعَرفاً : Alborox فى طليطلة . وقد يأتى لفظ البرج مضافا كما نرى فى Borjabad (برج عباد) فى سُرْية ، و Bujaları (برج هارون) فى وادى الحجارة ، و Bujaraloz (برج العروس) فى سرقسطة ، و Bujalance (برج الحنش) فى قرطبة ، و Bujarrabal (برج الربض) فى وادى الحجارة ، و Bujasot (برج السد ، والسُّد بضم السين مثل السَّد بفتحها أى خزان المياه) . وكانت الأبراج التى تبنى خارج أسوار المدينة تسمى «البَرّانية» Torres Albarranas ، وقد شاعت هذه التسمية خاصة فى غرب الأندلس ومن أمثلتها ما نجده فى قصرش وبطليوس .

وكانت الأبراج أو القلاع التى تبنى على الخطوط الدفاعية المتقدمة تدعى «الطلائع» Atalayas ، ولاتكاد تخلو محافظة فى إسبانيا من مواضع تحمل هذا الاسم . ويصور الطابع الحربى لهذه المنشآت أن بعضها سمى «العسكر» مثل البلدة التى لاتزال تحمل هذا الاسم Alasquer فى بلنسية ، وقد انتقلت إحدى مشتقات هذا الاسم إلى إسبانيا المسيحية ، إذ نجد فى محافظة ليون بلدة تدعى Almázcara (المعسكرة) . والطريف أن الجغرافى الإدريسى يذكر أن هذا الاسم نفسه يطلق على بلدة فى المغرب الأوسط بين تنس

وتلمسان ، وهى قائمة حتى الآن باسمها محرفا إلى «مسكرة» .

وكان لكثير من هذه المنشآت طابع خاص هو مزيج من الصبغتين العسكرية والدينية ، إذ كان يقيم فيها عدد من المتطوعين الزهاد أو المتصوفة برسم الجهاد ، وكانت تدعى الروابط (جمع رابطة) . وفى المصادر الأندلسية كثير من أخبار هذه الروابط وأخبار المجاهدين فيها وماكانوا يضطلعون به من حسن البلاء فى الدفاع عن الثغور الإسلامية ومعاونة الجيوش النظامية ، وكانت حياة هؤلاء مزيجا من التعبد وعمارة الأرض المحيطة بحصونهم والمساهمة الفعالة فى المعارك . وكانت مجريط (مدريد) من أهم تلك المراكز الدفاعية التى يتردد عليها المتطوعون المحتسبون من سائر أنحاء الأندلس بل ومن المغرب العربى أيضا ، وقد أشرنا فى كتابنا عن «مدريد العربية» إلى اثنين من فضلاء المغاربة وفدا عليها خلال القرن الرابع الهجرى برسم الرباط هما جساس الزاهد السجلماسى (من سجلماسة فى أقصى جنوب المغرب) وأبو ميمونة دراس بن إسماعيل الفاسى الذى توفى بعد ذلك فى بلدة فاس سنة ٣٥٧ (٩٦٧) وما زال ضريحه فى «باب الجديد» بفاس من المزارات المشهورة(٢٤) .

وانتشرت تلك الروابط فى كل أنحاء إسبانيا وعرفت باسمها العربى فى صور متعددة : Rábida فى ولبة وسلمنكة ، Rávita فى غرناطة وجيان ومالقة ، Rápita فى لاردة وطركونة . وقد كان لفظ الرباط ومشتقاته والأعلام الجغرافية المرتبطة به موضوعا أفرده بالدراسة فى كتاب كامل المستشرق الإسبانى خايمى أوليفر أسين(٢٥) .

الجبال والمرتفعات والكهوف :

لم يترك المسلمون موضعا فيما عمروه من شبه الجزيرة إلا مهروه بتوقيعهم متمثلا فى اسم عربى لايزال علما عليه حتى اليوم . حتى المرتفعات والمواضع الجبلية الوعرة حمل كثير منها تلك الأسماء . ونذكر فيما يلى أمثلة عليها :

من الطبيعى أن تكثر هذه الأسماء فى المناطق الجنوبية والشرقية من شبه الجزيرة حيث كان للمسلمين وجود أطول أمدا ، ومع ذلك فلم تخل المناطق الواقعة فى أقصى الشمال من تلك الأسماء العربية ، بل نراها حتى فى مواضع لم يقدر فيها للمسلمين وجود فعلى. وقد رأينا

من قبل كيف أطلق المسلمون اسم «جبل الثلج» على سلسلة الجبال الممتدة إلى جنوبى غرناطة بينها وبين المرية ، وهو الاسم الذى ترجم إلى الإسبانية فى صورة Sierra Nevada . وأعلى قمة فى هذه السلسلة هو الذى يدعى «مولاى الحسن» (Mulacén) وهو اسم مركب مختصر من «مولاى أبى الحسن» ، وأبو الحسن هى كنية أحد سلاطين غرناطة من بنى الأحمر فى آخر عهدها الإسلامى ، وهو على بن سعد الملقب بالغالب بالله . ويبلغ ارتفاع هذا الجبل ٣٤٨١ متراً ، وهو أعلى قمة فى جبال شبه الجزيرة كلها .

وهناك العديد من الجبال يتألف كل منها من لفظ جبل منسوباً أو مضافاً إلى لفظ آخر ، منها جبل طارق Gibraltar ، وجبل العيون Gibraleón فى ولبة ، وجبل فاروق (Gibralfaro) فى مالقة وجبل الكحل (Jabalcol) الممتد بين غرناطة وبسطة (Baza) ، وجبل كنتُهْ Jabalquinto فى جيان (وهو اسم مُهَجَّن من لفظ جبل العربى ولفظ Quinto اللاتينى الأصل ويعنى الخامس) ، وجبل عمرو Jabalambre فى تيروال وجبلىّ بياء النسبة Jabali . وفى مالقة عدد من سلاسل الجبال تحمل إحداها اسم «الحامة Alhama » ، وأخرى اسم عبد العزيز Abdalajis ، وثالثة ممتدة بين مالقة وغرناطة تدعى Almijara ومن الواضح من بنية الاسم أنه عربى ولو أننا لم نهتد إلى أصله . وفى المرية جبل يدعى ميمون Maimón ، وآخر يدعى Almagro وهو مأخوذ من اللفظ العربى المغرة الذى يعنى الطين الأحمر ، إشارة إلى لونه . وإلى غربى إشبيلية سلسلة تمتد منها إلى ولبة تدعى الشرف Aljarafe ، ويصفها ابن عبد المنعم الحميرى بأنها على مسافة أربعين ميلا كلها فى ظل شجر الزيتون(٢٦) . وفى قادس عدة سلاسل منها جبال جزولة (قبيلة بربرية) Los Gazules وطاحونة Tahona والمنارة Almenara ومدينة ابن السليم Grazalema . وفى مرسية جبل عربى Arabi وجبل طيبية Taibilla وسلسلة جبال Mazarrón ويلوح أنه اسم عربى وإن لم نتحقق من أصله . وبين البسيط وبلنسية جبل يدعى المنصف Almansa (وهو يعنى على حد قول ياقوت وسط الطريق وبه سمى أحد المواضع فى الجزيرة العربية(٢٧)) وباسم هذا

الجبل دعيت إحدى قرى البسيط . وفى جنوبى المدينة الملكية تمتد سلسلتا جبال المعدن Almadén (وسميت بذلك لما فيها من مناجم) والكدية Alcudia أى الربوة . وفى تيروال تقوم جبال «بنى رزين» وتقع على سفوحها المدينة التى تحمل نفس الاسم Albarracin وكانت عاصمة مملكة صغيرة من ممالك الطوائف تدعى سهلة بنى رزين وهى منسوبة إلى أسرة بربرية الأصل من قبيلة هوارة . وفى أقصى الشمال تنحدر عدة سلاسل من جبال البرتات (البيرينيه) منها جبال القاضى Sierra del Cadi مابين لاردة وجرندة . وفى محافظة قصراش تقوم سلسلة جبال وادى لب Guadalupe التى يتسنمها جبل شاهق الارتفاع (١٥٥٨ مترا) يدعى «رأس العربى Cabeza del Moro» . ولم يكن أصل هذه السلسلة معروفا حتى كشف لى نص قمت بنشره للمؤرخ القرطبى ابن حيان أن هذه الجبال منسوبة فى الحقيقة لأحد الثوار على إمارة بنى أمية فى سنة ٢٦٢ (٨٧٦) ويدعى على بن لب(٢٨) . ويقرب مدينة آبلة فى الهضبة الوسطى - وآبلة مدينة لم تخضع للمسلمين إلا على نحو عابر - جبل شاهق يدعى المنصور Almanzor . ولاشك فى أن السبب فى تسمية هذا الجبل باسم المنصور بن أبى عامر أكثر حكام المسلمين حملات على إسبانيا المسيحية هو ماعلق بأذهان المنطقة من ذكريات الغزوة الهائلة التى دمر فيها المنصور مدينة آبلة فى سنة ٣٨٤ (٩٩٤)(٢٩) .

ويكثر فى جغرافية إسبانيا استخدام لفظ الكدية Alcudia فى صيغته العربية وهو يعنى الأرض الغليظة المرتفعة ، فهناك أكثر من عشرة مواضع تحمل هذا الاسم وكثير منها يطلق على مدن واقعة على مرتفعات عالية .

وكثير من أسماء الجبال العربية هو فى الأصل وصف لهيئة هذه المعالم أو لونها أو سماتها المميزة ، مثل الخابية Alfabia وهى سلسلة جبال تقع شمالى مدينة بلمة عاصمة جزيرة ميورقة Palma de Mallorca وهى تخترق الجزيرة من الشمال الغربى إلى الجنوب الغربى . والخابية هى الجرة الضخمة ، فلعلهم شبهوا بها تلك الجبال . والفخار Alfacar اسم جبال وإقليم وقرية تقع إلى شرقى مدينة غرناطة ، ويرجع أصل التسمية إلى تميزها بنوع من الطفل تصنع منه الأوانى الفخارية . وقريبا من تيروال يقوم جبل يدعى الحمراء Alfambra وذلك لأنه من مادة طفلية حمراء .

ومدينة مجريط (مدريد) تقع على السفح الجنوبى لسلسلة الجبال المعروفة باسم وادى الرمل Sierra de Guadarrama ، وكان هذا الاسم يطلق أيضا على نهير متفرع من نهر تاجه ، وكان هناك من يخلط بينه وبين النهر الصغير الذى يخترق مجريط والذى يدعى الآن «نهر التفاح» Rio Manzanares ، وظل هذا الخلط حتى القرن السادس عشر ، ولكن الثابت أنه نهير آخر ينبع من سلسلة الجبال المذكورة . والتسمية قديمة إذ إننا نرى الاسم مذكورا بمناسبة بعض الأحداث الواقعة فى عهد يوسف بن عبد الرحمن الفهرى آخر ولاة الأندلس فى عهد الخلافة الأموية فى المشرق ، فى نحو سنة ١٣٢ (٧٥٠).(٣٠) وقد كان الاسم فى لغة أهل الأندلس الدارجة بفتح الميم ، وهو مابقى فى النطق الإسبانى الحالى بعد حذف اللام الأخيرة .

وهناك عدد من الألفاظ التى تتعلق دلالتها بالجبال بقيت أعلاما على عدد من المواضع مثل الغار Algar وهو شائع فى أنحاء كثيرة : فى قادس ولقنت ووادى الحجارة وميورقة وبلنسية . ونجد اللفظ مؤنثا (Algara) فى أبيط Oviedo فى أقصى الشمال .

ويوجد اللفظ فى صيغة «الغورة» Algora فى وادى الحجارة ، وفى صيغة التصغير «الغُوَيْر» Alguaire فى لاردة .

واستخدم لفظ «العِقاب» بمعنى التلال أو المرتفعات ، وهو جمع عَقَبَة . ولكنه لم يدخل إلى اللغة الإسبانية إلا مترجما فى صورة Navas ، وأشهر المواضع حاملة هذا الاسم Las Navas de Tolosa الذى دارت فيه المعركة الهائلة «العقاب» سنة ٦٠٩ (١٢١٢) والذى انهزمت فيه جيوش الخليفة الموحدى محمد الناصر أمام ائتلاف مسيحى ، وأدت هذه الهزيمة إلى سقوط معظم الحواضر الأندلسية .

الانهار والعيون والآبار :

الذى يطالع المصادر العربية التى تصف الأندلس يتصور أن هذه البلاد كانت جنة الله فى أرضه ، إذ يكثر فى هذه الأوصاف الحديث عن السهول الخضراء والمزارع الخصيبة والحدائق الغناء ، ومايتردد فى أشعار الأندلسيين من التمدح بما تميزت به بلادهم من طبيعة ساحرة ، مثلما نجده فى قول ابن خفاجة الشُّقرى :

يا أهـــل أندلس لله دركم

ماء وظـــل وأشجار وأنهار

ما جنـــة الخلد إلا فى بـلادكم

وهـــــــذه كنت لو خُيرت أختار

لا تتقوا بعدها أن تدخلوا سقراً

فليس تدخل بعد الجنة النار(٣١)

غير أن الحقيقة الجغرافية تسجل غير ذلك ، فشبه جزيرة إيبريا إذا قورنت بغيرها من البلاد الأوربية هى أكثر أقطار القارة جفافا وأقلها مياها وأحفلها بالصحارى القاحلة والأراضى المجدبة . ومع ذلك فإن أبيات ابن خفاجة وغيره من واصفى الأندلس لم تصدر عن فراغ ، بل كانت تصويرا صادقا معبرا عن حقيقة حضارية ، وهى أن هذه الطبيعة التى كانت مشاهدها تبهر الأبصار ، ومجاليها تفعم الأنوف بطيب نفحاتها إنما هى ثمرة لجهد بشرى كبير قام به الأندلسيون فى تعهد أرضها وحسن استخدام مواردها المائية بأقصى قدرة يمكن أن تتفتق عنها عبقرية الإنسان .

وقد وهب الله شبه الجزيرة خمسة أنهار كبيرة واحد منها يصب فى البحر المتوسط وهو نهر إبْره وأربعة فى المحيط الأطلسى هى دويرُه وتاجُه ووادى آنة والوادى الكبير . غير أن هذه الأنهار قليلة المياه بسبب قلة المطر وتبخر نسبة كبيرة منها خلال فصل الصيف الطويل . ولهذا فيعتمد جزء كبير من شبة الجزيرة على المطر فى الزراعة .

وكان المسلمون خلال القرون الأربعة الأولى من تاريخ الأندلس يملكون معظم أحواض الأنهار الخمسة ، ومابين أواخر القرن الخامس الهجرى وأوائل السادس فقدوا ماكانوا يملكونه من أحواض الأنهار الثلاثة الأولى : إبرة ودويره وتاجه وحتى منتصف القرن السابع فقدوا أيضا ماكان لهم فى حوضى النهرين الأخيرين . ويدلنا هذا على أن نصيب المسلمين من مياه الأنهار الكبرى كان قليلا ، غير أنهم عرفوا كيف يعتصرون من هذه المياه كل ماتحتوى عليه من طاقة ، كذلك ألجأتهم الحاجة إلى البحث عن موارد مائية فى باطن الأرض ، فكانت لديهم قدرة هائلة على استنباط المياه الجوفية والانتفاع منها إلى أقصى حد ، وهكذا استطاعوا أن يحولوا مالديهم من أرض قليلة العطاء بطبيعتها إلى حقول عامرة ورياض تتفجر بالخير ، وتموج بالزروع والغراسات والثمار .

ولعل أوضح دليل على ذلك أن كثيرا من الألفاظ المتعلقة بالمياه وبطرق استنباطها

واستخدامها من رى وشق قنوات وإنشاء سدود ومستودعات - كل ذلك مما أصبح من ذخيرة اللغة الإسبانية إنما هو من أصول عربية . ويبقى عدد كبير من هذه الألفاظ يطلق على مواضع كثيرة فى البلاد .

وكما فعل العرب بالنسبة لأسماء المدن الكبيرة المنشأة من قبل ، فإنهم تركوا الأنهار الثلاثة الكبرى الأولى بأسمائها الإيبيرية أو الرومانية القديمة : الإبره والدويره والتاجه . أما النهران الباقيان فقد لحق اسميهما بعض التغيير ، فنهر آنه (الذى كان اسمه اللاتينى Ana Fluvium) احتفظ بالجزء الثانى من اسمه ولكن الجزء الأول استبدل به لفظ «وادى» ، والوادى فى اصطلاح الأندلسيين يطلق فى الغالب على النهر ، فأصبح وادى آنه ، وانتقل بهذه الصيغة المزدوجة إلى اللغة الإسبانية فى صورة Guadiana . وأما النهر الخامس الذى يجرى فى أقصى الجنوب فقد كان اسمه Baetis وعرفه العرب باسم بيطى ، ولكنهم اتخذوا بعد ذلك له اسما عربيا خالصا هو «الوادى الكبير» وورث الإسبان عنهم هذا الاسم إذ يدعى الآن Guadalquivir .

«الوادى» فى جغرافية إسبانيا :

رأينا لفظ الوادى ماثلا فى اسمى اثنين من كبار أنهار إسبانيا مما بقى من التراث الأندلسى . على أن هذا اللفظ قد دخل أيضا فى عدد هائل من المعالم الجغرافية الإسبانية كثير منها أنهار صغرى أو نهيرات وإن كان بعضها مدنا وقرى تقع على ضفاف تلك المجارى المائية . وقد اهتم بتتبع لفظ «الوادى» على الجغرافية الإسبانية العالم البحاثة إلياس تيريس فى دراسة قيمة(٣٢) . فأحصى من هذه الأسماء أربعمائة وأربعة وستين اسما نصفها يبدأ باسم «وادى» العربى . ولايتسع المجال هنا للحديث عن هذه الأسماء ودلالاتها ، وإنما يكفى أن نعرض بعضها مضافا إلى ألفاظ ذات دلالات مختلفة بعضها نسبة إلى اسم علم أو طائفة أو مهنة ، وبعضها صفات لما يتميز به الموضع من لون بعينه أو بما يكثر حوله من نبات أو حيوان . فمن هذه الأسماء :

- وادى سليط Guadacelete واسمه الحالى Guazalete وهو يقع على مقربة من طليطلة إلى جنوبها الغربى ، علما على نهير متفرع من نهر تاجه El Tajo وعلى ضفاف هذا النهير ، وقد كان مسرحا لأحداث حربية

مذكورة فى المصادر الأندلسية ، منها معركة وقعت فى منتصف القرن الثانى الهجرى بين العرب بقيادة الوالى عبد الملك بن قطن والبربر ، وفى عهد الأمير محمد بن عبدالرحمن وبين أهل طليطلة الثائرين على سلطة الإمارة فى سنة ٢٤٠/٨٥٤ ويبدو أن لفظ سليط الذى ينسب إليه هذا الوادى اسم علم(٣٣) . وللعالم الشاعر الأندلسى المشهور عباس بن فرناس - صاحب محاولة الطيران المعروفة - قصيدة فى تهنئة الأمير محمد بانتصاره فى هذه المعركة وفيها يصف الموقع بأنه وادٍ يحف به جبلان عاليان :

بكى جبلا وادى سليطٍ فأعولا
على النفر العُبْدانِ والعصبة الغلف(٣٤)

- وادى لب Guadalupe ، وهو يطلق على عدة مواضع ، فى قصراش وبطليوس وطليطلة والمرية ، ولكن أشهر هذه المواضع هو الأول الذى تحمله بلدة على مقربة من لقرشان Logrosán فى محافظة قصراش Cáceres ، وفيه مشهد كبير يتعبد له كثير من أهل إسبانيا وينسب إلى من يسمونها «عذراء وادى لب» وقد انتقل التعبد لها إلى أمريكا ، فأصبح أهل المكسيك يعدونها راعية لبلادهم . وقد كان العلماء الذين درسوا هذا الاسم مثل البرتغالى دافيد لويس والألمانى تسايبولد والإسبانى أسين بلاثيوس يعتقدون أن لفظ لب الذى أضيف إلى الوادى يعنى «الذئب الإسبانى» lobo (من اللاتينية lupus) ، وقد كان الأندلسيون المسلمون يعرفون هذا الحيوان باسمه الإسبانى «لبّ» وتسمى به كثير منهم ، غير أن نص «المقتبس» لابن حيان الذى قمنا بتحقيقه دلنا على أن هذا الموضع يدين باسمه لشخصية أحد الثوار ويدعى على بن لُبّ كان فى غرب الأندلس حليفاً لابن مروان الجليقى زعيم مولدى الغرب فى أيام الأمير محمد ومنشئ مدينة بطليوس ، وذلك خلال السنوات المنحصرة بين ٢٦١ و ٢٧٦ (٨٧٥ - ٨٩٠) .

- وادى سلمة Guatizalema ، اسم نهر صغير ينبع فى إقليم وشقة Huesca ويتجه جنوبا حتى يصب فى نهر Alcanadre (وهو نهر آخر يحمل اسما عربيا : القناطر) من فروع نهر إبره ، وهو منسوب إلى أسرة كانت تحكم مدينة وشقة وهم بنو سلمة الذين ينتمون

إلى قبيلة تجيب العربية ، وكانوا قد نزلوا هذه المنطقة من أقصى شمال إسبانيا فى السنوات الأولى للفتح العربى[٣٦] .

- وادى الكلبيين Guadacabrillas ، وقد اختصر الاسم مؤخرا إلى Cabrilla ، وهو نهير يصب فى الوادى الكبير على مقربة من بلدة تحمل إيضا اسما عربيا هى المدوّر Almodóvar del Rio ، وبجوار هذا النهر دارت معركة ضارية انتصر فيها عبدالرحمن الداخل «صقر قريش» على الثوار عليه من اليمنية ، وإلى هذه القبائل القحطانية ينتمى الكلبيون الذين حمل ذلك الوادى اسمهم ، فبنو كلب بن وبرة هم أحد بطون قبيلة قضاعة . وإليهم تنتسب أسرة بنى أبى عبدة الذين منحوا دولة بنى أمية عددا من أكفأ الوزراء والقواد ، ومنهم كان بنو جهور أصحاب قرطبة فى عهد ملوك الطوائف[٣٧] .

- وادى البربر Guadalbarbo ، نهير ينبع شمالى قرطبة ثم يلتقى بنهر كزنة Rio Cuzna ، وهناك نهير آخر بنفس الاسم يصب فى الوادى الكبير بالقرب من قرية تدعى القليعة Alcolea ، ويبدو أنه هو الموضع الذى ذكره ابن حيان فى معرض حديثه فى أخبار سنة ٣١٧ (٩٣٠) من استجلاب الخليفة الأندلسى عبد الرحمن الناصر لفصائل من فرسان البربر وحماة رجالهم إلى حضرته ، وقد جلب هؤلاء معهم جرائد من عتاق الخيل قاموا باستنتاجها فى وادى البربر المذكور[٣٨] .

- وادى النساء Guadalmesi ، نهير ينبع من جبال الجزيرة الخضراء فى محافظة قادس ويخترق إقليم طريف ويصب فى مضيق جبل طارق . ولم تفدنا المصادر بسبب هذه التسمية إلا أنها تسجل مواضع بالاسم نفسه فى المشرق (خراسان) وفى الشمال الإفريقى (الجزائر)[٣٩] .

- وادى القزازين Guadalcacin أو Guadalcazacin نهر يجرى فى إقليم أركش Arcos de la Frontera ، ويصب فى نهر وادى لكه Guadalete ، وهو يدعى أيضا باسم آخر من أصل عربى : مرج الزيت Majaceite ، ويبدو أن نسبته إلى القزازين ترجع إلى كثرة من كانوا يزاولون فى حوضه تربية دودة القز أى الحرير[٤٠] .

- وادى السباع Guadacebas ، نهير يجرى فى محافظة جيان ، ويصب فى الوادى

الكبير على مقربة من حصن التراب Izna-toraf . وقد جرى الأندلسيون على أن يطلقوا لفظ السباع على الذئاب(٤١) .

- وادى الرمك Guadarranque ، نهير يجرى فى محافظة قادس ومنبعه فى جبال شمانة Jimena ويصب فى خليج الجزيرة الخضراء ، ويسميه الحميرى «وادى البحر» ، أما اسمه الأول فهو منسوب إلى الرمك ، جمع رمكة (بفتح الميم) ومعناها الفرس ، غير أن الأندلسيين فى لغتهم الدارجة كانوا يسكنون الميم فى صيغة الجمع ، ويبدو أن هذا الموضع كان صالحا لاستنتاج الأفراس الفارهة(٤٢) .

- وادى الرمان Guadarromán ، نهير ينبع على مقربة من مدينة الزهراء التى بناها عبد الرحمن الناصر خارج قرطبة ، ويصب فى الوادى الكبير . ويذكر ابن حيان أنه كانت فى هذا الموضع «منية» (يعنى قصرا ريفيا تحفه الحدائق) بناها الفتى دُرِّى وأهداها للحكم المستنصر . ونحن نجد الاسم مختصرا فى صيغة Guarromán علماً على بلدة فى منطقة لاكارولينا فى محافظة جيان . وواضح أن فى الاسمين إشارة إلى شجر الرمان الذى عنى به الأندلسيون(٤٣) . وبهذه المناسبة يذكر أن عبد الرحمن الداخل حينما بنى منية الرصافة فى شمالى قرطبة جلب طرائف من الرصافة المنسوبة إلى جده هشام فى أرض الجزيرة بالمشرق ، ومن هذه الطرائف رمان فاخر لذيذ الطعم ، وكان من جلسائه رجل من أهل الأردن هو سفر بن عبيد الكلاعى ، فأخذ من هذا الرمان شيئا عالج غرسه وتنقيله فى موضع سكناه بقرية من قرى مالقه ، حتى أثمر وأينع وأغرب فى الجودة ، ثم انتشر هذا النوع ، واستوسع الناس فى غراسه ، ولزمته النسبة إلى مستنبطه فأصبح يدعى «الرمان السَّفَرى» ومازال حتى الآن يدعى فى الإسبانية بنفس اسمه العربى فى صيغة Zafari ، كما ينسب إلى سفر هذا نوع من التين المالقى الذى يضرب بجودته المثل(٤٤) .

- وادى المنصور Guadalmanzor أو المنصورة Almanzora ، نهر يجرى فى محافظة المرية وتقع على ضفته بلدتا برشانة Purchena وبيرة Vera على مقربة من مصبه فى البحر المتوسط . واسما المنصور والمنصورة شائعان فى جغرافية الأندلس علمين على عديد من المواضع ، وإطلاقه ضرب من التفاؤل بالنصر(٤٥) .

- الوادى الأبيض Guadalaviar نهر ينبع من جبال بنى رزين Sierra de Albarracin فى تيروال ويصب فى البحر المتوسط ، وعلى مصبه تقع مدينة بلنسية ، ولهذا النهر ثلاثة أسماء تطلق على أجزاء متعاقبة من مجراه ، الأول باسمه العربى الأصل ، والثانى باسم Rio Blanco وهو ليس إلا ترجمة للاسم العربى ، والثالث باسم توريا Turia فى الجزء الأخير الذى ينتهى بالمصب . وهناك من اللغويين من رأى أن أصل الاسم العربى ليس «الأبيض» وإنما هو «وادى الأبيار» على أن أبيار هى الجمع الذى استخدم فى لغة الأندلسيين الدارجة للفظ «بئر - بير» ، وذلك تعليلا لإنتهاء الاسم بحرف الراء التى يستبعدون أن يتحول إليها حرف الضاد . وهو أمر محتمل على كل حال(٤٦) .

- الوادى الأحمر Guadalimar نهر ينبع من إقليم الكرس Alcaraz وهى مدينة عربية الاسم فى محافظة البسيط ويمر فى محافظة جيان ويصب فى الوادى الكبير ، ويتردد ذكر هذا النهر فى المصادر الأندلسية بمناسبة بعض الأحداث التى وقعت على ضفافه ، ومن أهمها ثورة أبى الأسود بن يوسف بن عبد الرحمن الفهرى على عبد الرحمن الداخل والنصر الذى أحرزه جيش الأمير الأموى عليه فى «مخاضة الفتح» على مقربة من قسطلونة Cazlona على ضفاف الوادى المذكور ، وكان قائد جيش الأمير هو سليمان بن عبد الرحمن الداخل . وقد سجل الشاعر أبو المخشى الإلبيرى (وهو من سلالة الشاعر الجاهلى عدى بن زيد العبادى) ذلك النصر فى قصيدة يقول فيها(٤٧) :

وغدا سليمان السماح عليهم
كالليث لا يلوى على متعذر
وهو الذى ورث الندى أهل الندى
ومحا مغبة يوم وادى الأحمر

أما تسميته هذا الوادى بالأحمر فهى ترجع إلى ما يحمله من طمى ضارب إلى الحمرة(٤٨) .

* * *

وإذا كانت الأسماء العربية التى تحملها وديان إسبانيا وأنهارها على مارأينا من الكثرة فإننا نرى مثل ذلك فى المعجم المتعلق بالمياه من عيون وقنوات وسدود ومستودعات مياه وكل مايتعلق بالرى والفلاحة . وكثير من هذه الألفاظ انتقل من دلالته المعجمية إلى الدلالة على أسماء وأعلام جغرافية .

ومن أول هذه الألفاظ «العين» الذى تحمله مواضع كثيرة ، منها Ahin فى قشتليون ، وهى قرية تدين باسمها لعين ذات ماء غزير تروى به المنطقة كلها وتدير خمسة أرحاء لطحن القمح[٤٩] . وهناك قرية فى طليطلة تحمل هذا الاسم فى صيغة Ain على مقربة من ضفة نهر تاجه ، وقرية أخرى فى «البسيط» باسم Ayna[٥٠] وقد يأتى اسم العين مضافا كما نرى فى «عين الدمع» فى غرناطة ، ويقول عنه الشقندى فى رسالته فى فضل الأندلس إنه «من عجيب مواضعها ... وهو جبل فيه الرياضات والبساتين[٥١] ، وقد بقى اسمه حتى الآن فى صورة Ainadamar ، ومن الذكريات الحزينة المرتبطة به أنه هو الذى نفذ فيه حكم الإعدام على الشاعر الغرناطى المشهور فيديريكو غرسية لوركا . وقد يرد اسم العين لا بلفظها وإنما بصفة من صفاتها ، ففى مالقة قرية تدعى Cútar ، وفى غرناطة Alcútar وهو لفظ «الكوثر» تمدحا بعذوبة مائها . وقد يستخدم اللفظ فى صيغة الجمع ، كما نرى فى قرية بطليطلة تدعى «العيون» Aloyon ، وفى جبل من جبال ولبة يدعى «جبل العيون» Gibraleón .

ومن الألفاظ المتعلقة بالماء «الساقية» Acequia ، وهو يعنى القناة وبه تسمى قرية فى غرناطة و «القناة» Alcaná ، وبه تسمى قرية فى جزيرة ميورقة ، و Alcanar فى طركونة . وكذلك «البركة» Alberca ، وهو علم على العديد من المواضع : فى لقنت ومرسية وكونكة وآبلة وسلمنكة .

وكان الأندلسيون يستخدمون فى الرى «الناعورة» وهى التى تقابل مايعرف فى مصر بالساقية ، سميت بذلك لما تحدثه من صوت ، وقد دخل هذا اللفظ إلى الإسبانية فى صورة Anoria وبه تسمى قريتان فى المرية والبسيط ، وفى قرطبة Añora ، و Noria فى قرى عديدة بالمرية وغرناطة و Nora فى قصرش ولاردة وليون وأبيط ، و Ñora فى غرناطة ومرسية .

ومن هذه الألفاظ السانية ، ومعناه فى اللغة الدابة التى تحمل الماء ، ولكن الأندلسيين استخدموه بمعنى الناعورة، وقد أصبح علما جغرافيا على كثير من قرى إسبانيا فى صور متعددة :

Sinia, Senia, Azaña, Aceña

وبرع الأندلسيون فى استنباط المياه من الآبار ، ومن هنا بقى لفظا «البير» و «الجب» فى كثير من الأعلام الجغرافية . نذكر منها Biar (وهو جمع بير فى الأندلسية الدارجة) فى لقنت ، و Viar فى بطليوس وإشبيلية ، و Albires فى ليون (وهو اللفظ العربى ، أضيفت له لاحقة الجمع فى الإسبانية) . ومن فروع نهر تاجة فى المنطقة التى توجد فيها مجريط فرع يدعى Ajalbir وأصله العربى «فجّ البير» .

أما لفظ «الجب» فقد اتخذ فى الإسبانية أكثر من صيغة منها Alcibi, Alchup, Aljube, Algibe وقد أصبحت هذه الصيغ أعلاما جغرافية على أكثر من عشرة مواضع فى مختلف محافظات إسبانيا .

وبنى الأندلسيون عددا كبيرا من السدود التى كان الهدف منها تخزين المياه ، وكان لفظ «السّدّ» ينطق لديهم بضم السين وبهذا الضبط انتقل إلى الإسبانية فى صيغة Azud ، وبه يدعى خزان يوجد الآن فى طركونة ، وكذلك فى صيغة Azut فى لقنت . وكانوا يطلقون على مستودعات الماء لفظ «الصهريج» وقد انتقل هذا اللفظ إلى الإسبانية فى صور متعددة ، من بينها Safareitg وبه تدعى قرية فى لاردة .

والأنبوب الذى يصرف به الماء الزائد على الحاجة كان يدعى «الميزاب» (وهو بالإسبانية Mizep) وهو علم على قرية مندثرة فى لقنت ، أو «البلاعة» (Albalá) وهو اسم قرية فى قصراش .

ومن أكثر منشآت المسلمين فى الأندلس القناطر . ومن هنا كثر استعمال لفظ القنطرة Alcántara علماً جغرافيا فى العديد من الأنحاء : فى قصراش وقادس وبلنسية ، وبصيغة التصغير العربية Alconétar ، وموضع يدعى «قنطرة محمود» فى قصراش ، وبصيغة التصغير الإسبانية Alcantarilla فى البسيط وكونكة ومالقة ومرسية وطليطلة ، وبصيغة الجمع : القناطر Alcanadre فى لوجرونيو .

والموضع المنخفض الذى يتخلف فيه الماء يدعى فى العربية «الغدير» ، وقد بقى هذا الاسم علما جغرافيا فى صيغة الجمع «الغُدُر» Algodor فى قرطبة وطليطلة وقصراش وبلفظ Algodre فى سمورة .

وتنتشر فى شبه الجزيرة عيون المياه المعدنية الساخنة ، وهى التى تدعى الحمّات (جمع حمّة

وحامّة) وقد عرف الأندلسيون كيف ينتفعون من هذه العيون فى الاستشفاء ، وانتقل لفظ «الحامة» Alhama إلى كثير من الأعلام الجغرافية ، فتسمت به مدن وقرى فى المرية وغرناطة ومرسية وسرقسطة وسرية والبسيط . وهناك عيون مائية فى مدينة بسطة Baza تدعى Alcribite وهو لفظ الكبريت العربى إشارة إلى المياه الكبريتية التى تنبعث من هذه العيون . وفى سرقسطة قرية تدعى Alfamén وهو تحريف للفظ «الحمّام» إشارة إلى عيونها الساخنة . وفى المرية قرية تدعى Alfaguara الفوّارة ، أى العين التى تفور بالماء .

ولفظ «الدِّيماس» يعنى الحمام والمكان المظلم وبه سمى سجن بناه الحجاج بن يوسف الثقفى . وقد أطلق هذا اللفظ فى الأندلس على صهاريج المياه التى تبنى على العيون الساخنة ، وقد أصبح هذا الاسم علما على عدد من المواضع فى صيغ مختلفة : Adamuz فى قرطبة ، و Ademuz فى بلنسية ، و Daimuz (منكرا) فى غرناطة ، و Daymús فى وشقة .

والألفاظ المتعلقة بالنشاط الزراعى وبأنواع الشجر والنبات قد اتخذت سبيلها أيضا إلى أن تصبح أعلاما جغرافية . ومن أكثرها شيوعا لفظ «المُنية» الذى يعنى البيت الريفى الذى تحيط به الحدائق . وهو لفظ أطلق على كثير من القرى والمدن فى مصر ، فقد أحصى ياقوت فى معجمه أحد عشر موضعا فى دلتا مصر وصعيدها بهذا الاسم ، من أشهرها منية ابن الخصيب ممدوح أبى نواس (وهى عاصمة المحافظة التى تدعى المنيا فى الصعيد) ومنية غمر التى تحرف اسمها إلى ميت غمر ، وكل القرى التى تبدأ فى مصر بلفظ ميت إنما تحرفت أسماؤها عن المنية . أما الأندلس فقد كانت ضواحى قرطبة على عهد بنى أمية تحفل بهذه المنى ، ومن أشهرها منية الرصافة التى أنشأها عبد الرحمن الداخل فى شمالى قرطبة ، وقد اندثرت بعد ذلك وإن كان اسمها باقيا حتى اليوم La Ruzafa ، ومنية الرصافة فى بلنسية التى أنشأها عبد الله بن عبد الرحمن الداخل المعروف بالبلنسى ، ومازال اسمها حتى اليوم علما على حى من أكبر أحياء المدينة ، وإليها ينسب شاعر مشهور من وصافى الطبيعة يدعى محمد بن غالب الرصافى . ولفظ «المنية» يطلق اليوم فى صورتيه ,Almunia Almuña على عدد من القرى والمدن

الصغيرة فى بلنسية وسرقسطة ووشقة ، وكذلك فى أبيط Oviedo وبونتفيدرا Pontevedra فى أقصى شمال إسبانيا .

ومن هذه الألفاظ «القرية» التى انتقلت إلى إسبانيا فى صور متعددة : Alcaria فى قادس ومالقة وجزيرة ميورقة ، و Alqueria فى عدد كبير من قرى الجنوب والشرق وجزر البليار ، و Alcarria فى وادى الحجارة . وقد أشرنا من قبل إلى لفظ «الضيعة» الذى قدر له كذلك انتشار عظيم .

ومنها لفظ الغيضة أى المكان ذو الشجر الملتف ، وهو بصورة Algaida اسم لقرى فى قادس وجزر البليار ، وفى صيغة الجميع Algayad اسم لسلسلة جبال فى لقنت . وكان الأندلسيون يطلقون على البستان اسم الجنة ، ومن هنا نجد فى بلنسية التى كانت مشهورة برياضها وحدائقها قرية باسم الجنّات Alginet ومن أشهر معالم غرناطة جنة العريف El Generalife بجوار قصر الحمراء .

واشتهرت الأندلس بكرومها ومن هنا أصبح لفظ الدالية ومعناه شجرة العنب علما على أكثر من موضع فى صورة Adalia فى سمورة وبلد وليد . والطرفاء هو منبت شجر العضاه ، وبه سميت قرية فى طليطلة Atarfa ، والشَّعْرَاء هى الأجمة والعشب الكثيف الملتف ، وقد أطلق هذا الاسم فى صورة Jara على نحو عشرة قرى فى جنوبى شبه الجزيرة ووسطها وشرقيها . وكانت الأندلس ومازالت مشهورة بزيتونها ، ومن هنا سميت بعض القرى فى طليطلة وقصراش باسم Aceituno مذكرا ومؤنثا ، وكذلك شجر الخروب الذى بقى اسمه منكرا فى صورة Garrobo علما على قرى فى مالقة والمرية وإشبيلية ومرسية وبطليوس ، ومعرفا فى صورة Algarrobo فى مالقة . ومن المعروف أن العرب أدخلوا إلى شبه الجزيرة زراعة القطن ، وانعكس ذلك على اسم قرية فى قادس تدعى Algodonales أى مزارع القطن . وكذلك القنب الذى بقى اسمه علما على قرية فى سرية تدعى Alconaba .

وهناك مواضع تحمل أسماء ثمار أو أزهار عربية الأصول منها قرى فى تيروال وجيان وطليطلة تدعى Allozar أى شجر اللوز ، وقرية فى المرية تدعى Ambercoque أى البرقوق . ويستوقف النظر هنا أن حرف

التعريف العربى قد استبدلت فيه اللام بالميم ، وهذه لغة يمنية معروفة ، ويتفق ذلك مع مايسجله ابن حزم من أن النازلين بوادى بجّانة Pechina الذى تقع فيه المرية كانوا من بنى أسلم بن زيد وهم بطن من قبيلة حمير اليمنية(٥٣) . ومن أسماء الأزهار «الريحان» الذى سميت به قرية فى غرناطة هى Arrayán ، و «الدّفلى» وبه سميت قرية فى ميورقة Defla .

ومما يتعلق بالنشاط الزراعى أيضا لفظ «المدرس» أى المكان الذى يُدْرَس فيه القمح ، وهو علم على قرية بطليطلة تدعى Almadraz ، وكذلك لفظ الخرّاصين ومعناه الذين يخرصون (أى يقدرون) المحصول الزراعى بالنظر المجرد وهو اسم علم على قرية فى بلنسية فى صورة Alfarrasí .. وكذلك لفظ Almásera, Almázara وهو من العربية المعصرة ، أى مكان عصر الزيت أو العنب ، وبهذين الاسمين توجد قريتان إحداهما فى بلنسية والأخرى فى محافظة نبرة Navarra فى أقصى الشمال . ويوجد اسم «معصر» منسوبا إلى بعض الأعلام مثل Mazarambroz : معصر عمروس فى طليطلة .

ومن الألفاظ المتصلة بالمهن والحرف والمنتهية بعلامة جمع المذكر السالم Alfajarin فى سرقسطة ، وهى تعنى «الحجّارين» و Albaicín ، وهو من أهم أحياء غرناطة وكان حى الطبقة العاملة فى المدينة ، وهو بالعربية حى البيازين أى باعة البزاة المستخدمة فى الصيد ، وكذلك الحى الذى مازال يحمل اسمه العربى Zacatín أى حى السقّاطين وهم باعة سقط المتاع ، أى الأثاث القديم والثياب المستعملة وما إلى ذلك . وكانت صناعة الفخار والخزف مما اشتهرت به كثير من المدن الأندلسية ، ومنها مجريط وطلبيرة وبعض قرى غرناطة ، ولهذا فقد وجدنا لفظ الفخار علما على اسم قرية غرناطية تدعى Alfacar ، واختصر اللفظ إلى Alfara, Alfar, ، فأصبح علمًا على عدد من المواضع فى بلنسية وطركونة وبرشلونة وجرندة Gerona . ومما يتصل بهذا العمل لفظ Adobas, Adobes وهما صيغتان انتقلتا من لفظ الطوب العربى ، ويطلقان على قريتين فى وادى الحجارة وتيروال .

ومن الألفاظ المرتبطة بالصناعة لفظ «القُرْق» وهو لاتينى الأصل (quercus) ومعناه شجر الفلين ، وكان الأندلسيون يستخدمون هذه المادة فى صناعة الأحذية فكانوا يسمون الخفاف «الأقراق» (جمع قرق) والمشتغلين بصناعتها (القراقين) . وهذا الشجر كثير فى إسبانيا وبه سميت قرى عديدة بصيغ مختلفة منها Alcornoque Alburquerque, (أبو القرق) وكلتاهما فى بطليوس .

ونذكر فى النهاية ثلاثة أعلام جغرافية مرتبطة بألوان أخرى من النشاط الحيوى ، أولها Almadén (المعدن) وبه يسمى أكثر من موضع : فى المدينة الملكية وكان موضعها على عهد المسلمين يدعى بفحص البلوط Valle de los Pedroches (لكثرة هذا الشجر فيه) وإلى جنوبى هذه البلدة توجد سلسلة الجبال التى تحمل الاسم نفسه Sierra de Almadén وسميت البلدة والجبال بذلك لغناها بالمعادن ، ولهذا فقد كثرت فيها المناجم واشتغل أهلها بالصناعات المعدنية ، وهناك بلدة تقع إلى الشمال الغربى من إشبيلية تدعى Almadén de la Plata أى معدن الفضة كانت معروفة بمناجمها التى يستخرج منها هذا المعدن النفيس . وفى أقصى الغرب وعلى مصب نهر التاجة فى المحيط الأطلسى تقع مدينة الأشبونة Lisboa عاصمة البرتغال وعلى ضفة النهر المقابلة كان يوجد حصن Almada وهو صيغة أخرى للفظ المعدن ، ويقول ابن عبد المنعم الحميرى إنه سمى بذلك «لأنه عند هيجان البحر يقذف بالذهب التبر هناك فإذا كان الشتاء قصد إلى هذا الحصن أهل تلك البلاد فيخدمون المعدن الذى به إلى انقضاء الشتاء وهو من عجائب الأرض»(٥٤) .

والعلم الثانى La Malá وهو اسم قرية فى جنوبى غرناطة ، وأصله العربى الملاّحة ، سميت بذلك لما كان فيها من معدن الملح الذى كان أهلها يقومون باستخلاصه . وإلى هذه القرية ينتمى المؤرخ أبو القاسم محمد بن عبد الواحد الغافقى المعروف بالملاحى مؤلف « تاريخ علماء البيرة » (وإلبيرة كانت حاضرة الإقليم قبل أن يتحول عمرانها إلى غرناطة)(٥٥) .

والعلم الثالث هو Almadraba وهو اسم يطلق على عدة قرى ساحلية فى المرية ولقنت وميورقة ، وأصله العربى «المضربة» ،

وهو مصطلح أندلسى يعنى نوعا من الشباك الخاصة التى تستخدم فى صيد حيتان التُّنّ (بالإسبانية atún)(٥٦) . ومازال صيد هذه الحيتان يجرى على نفس النهج الذى كان يصاد بها على عهد المسلمين .

دلالة الاعلام الجغرافية ذات الاصول العربية :

رأينا فى الصفحات السابقة نماذج من أسماء أنواع من المعالم الجغرافية التى مازالت تحمل هويتها العربية ، وهى ليست إلا عددا ضئيلا عرضناه من بين مئات بل آلاف من تلك الأسماء ، وكان هدفنا من عرضها هو التمثيل لا الحصر . وقد رأينا كيف انتشرت هذه الأسماء على جغرافية إسبانيا كلها سواء على معالمها الطبيعية من جبال وسهول ووديان وأنهار وعيون وكهوف ، أو على ما أبدعته يد الإنسان الأندلسى من مدن وقرى وقلاع وبروج وقنوات وسدود . والواقع أن هذه الأسماء ليست مجرد ألفاظ لغوية انتقلت من لغة إلى لغة ، وإنما هى مرآة لما تم على أرض شبه الجزيرة عبر عدة قرون من منجزات حضارية ، فهى كما رأينا تصور مدى الجهد الذى بذله الإنسان الأندلسى على تلك الرقعة المقتطعة من القارة الأوربية فى سائر مجالات الحياة من زراعة وصناعة وحرف ونشاط بحرى عرف فيه كيف يستثمر موارد البلاد على خير صورة ممكنة ، وأورث الأندلسيون إسبان اليوم كل ماتفتقت عنه عبقريتهم من خبرات فكان ذلك منطلقا لهذا الشعب إلى استكشاف العالم الأمريكى الجديد الذى أصبح امتدادا حضاريا وثقافيا لشعبى شبه الجزيرة : إسبانيا والبرتغال .

لقد قدم الفاتحون العرب إلى شبه الجزيرة وهى أرض واسعة مترامية الأطراف ، ولكنها ذات موارد طبيعية فقيرة ، أكثرها جبال وأراضٍ صحراوية قاحلة ، ولكن شعبها كان وريثا لحضارتين متقدمتين : الفينيقية والرومانية ، غير أن القوط ورثة الحضارة الأخيرة كانوا شعبا أقرب إلى البداوة والخشونة ، فلم يضيفوا شيئا إلى ماورثوه ، بل تخلفت البلاد فى ظلهم ، وقل عدد السكان بصورة ملحوظة ، وكانوا بطبيعتهم مترفعين على أهل البلاد ، فعاشوا فى عزلة عنه ، وقنعوا حتى بعد ما نالوا شيئا من الرقى والتحضر فى أواخر عهدهم بالحياة على التراث الرومانى فى المدن الكبرى معرضين عن استثمار المساحات

الواسعة من الريف أو عاجزين عن استثمارها بحكم مستواهم الحضارى المحدود . ثم قدم الفاتحون العرب مسلحين بقيم دينية وفكرية جديدة ، بعيدة عن العنصرية والتعبد بالتفوق العرقى الذى كان من سمات الحضارة الرومانية ثم القوطية من قبل . بل كانوا بفضل هدى الإسلام حملة رسالة تدعو إلى التسامح وحسن التعامل مع الشعوب التى وفدوا عليها ، فلم يكرهوا أحدا على اعتناق دينهم ولا على اصطناع لغتهم ، وكان سلوكهم مع أهل البلاد كسلوكهم مع كل الأمصار التى فتحوها من قبل قائما على المساواة وحسن الجوار ، ولهذا فإنهم سرعان ما امتزجوا بأهل البلاد وشاطروهم حياتهم ، وآتت هذه السياسة ثمرتها ، فإذا بأهل البلاد يقبلون على الإسلام طواعية ويتقبلون تلك الثقافة الجديدة التى أتى بها الفاتحون بكل ما احتوته من قيم . ومنذ اللحظات الأولى يتحول هؤلاء المحاربون الأشداء الذين قدموا تحت راية الإسلام إلى مزارعين وصناع وأهل حرف منساحين فى الريف والقرى مطبقين ما حملوه معهم من الشرق من خبرة فى تعمير هذه الأرض الجديدة التى أصبحت وطنهم الثانى . ونتج عن هذا الامتزاج السريع الذى تم بين الفاتحين من عرب وبربر وموالٍ بأهل البلاد تولد شعب جديد هو الذى نسميه الشعب الأندلسى حاملا كل مميزات تلك العناصر المختلفة التى انصهرت فى بوتقة شبه الجزيرة . وإذا بهذا الشعب يتكشف عن ذكاء متوقد وقدرة هائلة على العمل الجاد والحركة الدائبة فى سائر المجالات الحضارية ، وكأن الفتح العربى قد ولد فيه طاقة جديدة أقبل بها على الحياة فى ثقة وتفاؤل وعزيمة ماضية .

وكان هذا الشعب على وعى بأنه فى إسلامه وعروبته - والعروبة هنا مفهوم ثقافى أكثر مما هو مفهوم عرقى عنصرى - إنما هو امتداد للمشرق العربى ، ولذلك فقد أقبل أبناؤه منذ الجيل الأول على الرحلة إلى الشرق أولا لأداء فريضة الحج ثم للتزود من الثقافة العربية فى أصولها ومراكزها . والذى يطالع معاجم التراجم يروعه هذا العدد الهائل من الأندلسيين الذين كانوا يتجشمون مشاق الرحلة الطويلة مترددين على الحواضر الشرقية وما حفلت به من مجالس العلم ، وكانت هذه الرحلات مثيرة لروح المغامرة وحب الاستطلاع ، وهما أساس لكل نشاط فكرى مثمر للحضارة . ويعود

هؤلاء الراحلون إلى بلادهم لكى يودعوا أرضهم كل ما جمعوه من خبرات يُنَمُّونها جيلا بعد جيل . على أنهم لم يكونوا مجرد ناقلين أو مقلدين ، بل سرعان ماقدموا لنا نتاجا فكريا وحضاريا فيه كل سمات الأصالة وإن كان فى إطار الحضارة العربية الإسلامية .

ولهذا فإننا نتفق مع ما نادى به عدد من الباحثين المعاصرين الإسبان والأمريكيين مؤخرا من أمثال أميريكو كاسترو Américo Castro وخوان جوتيسولو Juan Goitisolo وفرانسسكو بيانوبيا Francisco Villanueva وجيمس مونرو James Monroe من أن إعراب إسبانيا عن هويتها وذاتيتها المستقلة لم يبدأ إلا بظهور «الأندلس» على مسرح التاريخ ، أى ابتداءً من الوجود العربى الإسلامى على أرض شبه الجزيرة .

والذى عرضناه فى الصفحات السابقة من الأعلام الجغرافية ذات الأصول العربية ليس إلا شاهدا على هذه الحقيقة . فقد قدم العرب إلى هذه البلاد ، فرأوا فيها مدنا قائمة ، فلم يهدموا شيئا منها ولم يغيروا من معالمها ولا أسمائها ، بل عملوا على تنميتها وزيادة عمرانها ، ولكن عملهم الأساسى كان الامتداد فى الريف وتعمير ما كان مهملا من أرضها واستثمار مواردها واعتصار كل ما يمكن أن يستخرجوه منها ، وهكذا حولوها إلى أرقى بلد فى القارة الأوربية ، وأصبحت حضارتهم هى النموذج الذى يحتذى ، ثم قدموا خبراتهم إلى مُسَاكنيهم - وأعدائهم فى الوقت نفسه - من أهل شبه الجزيرة ، بل لم يبخلوا بثمرات علومهم وفنونهم على من جاورهم من شعوب أوربا فانتفعوا منها فى إقامة صرح نهضتهم .

ويلفت النظر فى حديثنا عن الأعلام الجغرافية الأندلسية أنه إلى جوار ما رأيناه من مئات المدن والقرى التى استحدثها العرب واحتفظت حتى الآن بأسمائها العربية كانت هناك مدن وقرى أخرى ظلت محتفظة بأسمائها اللاتينية بل إن من منشآتهم ما حمل مثل هذه الأسماء ، كما أن هناك طائفة من الأعلام الجغرافية تتألف من مزيج من اللغتين ، وهى ظاهرة أشرنا إلى ما تمثله من كون المجتمع الأندلسى ثمرة لعملية التفاعل الكبرى التى تمت على أرض شبه الجزيرة بين العناصر العرقية المختلفة ، كما أنها دليل على التسامح الذى

اتسمت به سياسة المسلمين إبان سيادتهم وقوة دولتهم ، فهم لم يحظروا اللغة التى وجدوا أهل البلاد يتعاملون بها ، بل إنهم تعلموها وأدخلوا كثيرا من عناصرها فى لغة خطابهم ، وقد انعكست ظاهرة الازدواج اللغوى هذه حتى على لغة الأدب ، ونتج عنها فن الشعر الملحون أى الزجل الذى يرجع إلى أهل الأندلس فضل ابتكاره ، وكان من ممهدات الطريق إلى هذا الفن ظهور الخرجات العامية وهى خليط من العربية والعجمية أى اللاتينية الدارجة فى الموشحات الأندلسية .

على أن الثقافة الغالبة كانت هى العربية ، وهى التى اصطنعها أهل البلاد ، حتى الأقليتان اللتان ظلتا محتفظتين بديانتيهما فى داخل المجتمع الأندلسى أى النصارى واليهود ، ومن أجل هذا سمى هؤلاء بالمستعربين Mozárabes ، إذ رأوا أن اللغة العربية بغناها ومرونتها أصلح للتعبير عن ذواتهم . ومن جديد نرى فى أسماء الأعلام الجغرافية ما يمثل هذه الحقيقة ، فقد مرت بنا فى العرض السابق عشرات بل مئات من الأسماء العربية مطلقة على مواضع لم تطأها أقدام العرب أو كان وجودهم فيها عابرا محدودا لم يتجاوز سنوات قليلة . رأينا ذلك فى أسماء أعلام فى المحافظات الشمالية التى قامت فيها خلال الوجود العربى إمارات أو ممالك مسيحية معادية للأندلس الإسلامية مثل أشتوريش Asturias وجليقية Galicia وليون León وكنتبرية Cantabria وبلاد الباسك (البشكونس) Pais Vasco ونبرة Navarra وقطلونية Cataluña وقشتالة Castilla ، وكانت هذه الأسماء تبدو لأول وهلة لغزا محيرا للباحثين ، على أن تفسير ظاهرتها لم يعد الآن عسيرا بعد تقدم الأبحاث التاريخية واللغوية ، وهو أن معظمها كان مما أطلقه المستعربون الذين عاشوا فى الأندلس متشبعين بالثقافة العربية ثم هاجروا إلى الشمال ليعمروا تلك المناطق التى تخلى عنها المسلمون إما إعراضا عنها وإهمالا لشأنها أو على أثر ما وقع عليهم من هزائم اضطروا على أثرها للانسحاب منها . وعلى كل حال فهذا شاهد آخر على عمق التأثير الذى باشرته الحضارة العربية حتى فى الأقاليم الخارجة عن نطاق نفوذهم المباشر .

والذى نسجله فى النهاية هو أن السلطات الإسبانية بعد أن تم لها الاستيلاء على غرناطة آخر معاقل المسلمين فى الأندلس فى سنة ٨٩٧ (١٤٩٢) قد صبت على بقية الشعب المسلم أقسى ضروب التنكيل والاضطهاد ، وكان من أقسى ما وقع على هؤلاء الذين اصطلح على تسميتهم بالموريسكيين Moriscos حظر استخدام اللغة العربية وتعقب كتبهم بالإحراق والإبادة ، ومع ذلك فقد بقيت هذه الأسماء العربية أعلاما على المعالم الجغرافية ، وكأنها تسخر من كل مراسيم الحظر ، وتتحدى مصدريها ، ذلك لأنها بقيت شواهد خالدة على عطاء المسلمين الحضارى لأرض شبه الجزيرة ، حتى حينما آل بهم الأمر إلى أن يصبحوا أمة مغلوبة على أمرها محرومة من كل مقومات ثقافتها .

وآخر ما نختم به هذا الحديث شهادة لعلم من أعلام الأدب الإسبانى فى عصره الذهبى هو كالديرون دى لاباركا Calderón de la Barca (١٦٠٠ - ١٦٨١) ، وهو شاعر ومؤلف مسرحى آثر فى آخر حياته أن ينخرط فى سلك الرهبنة وكان قد عاصر فى مقتبل صباه محنة الشعب الموريسكى وقرارات طرد مئات الآلاف منه بين سنتى ١٦٠٩ و١٦١٤ ، وقد أتت شهادته هذه فى مسرحية شعرية له بعنوان «حب بعد الموت» Amar después de la muerte وفيها يصور الثورة التى قام بها الموريسكيون فى جبال البُشَرَّات Las Alpujarras بين سنتى ١٥٦٨ و١٥٧٠ بعد أن ضيقت السلطات عليهم الخناق حتى ألجأهم اليأس إلى الثورة . وقد أتت هذه الشهادة فى كلمة يتوجه بها أحد قادة هؤلاء الموريسكيين خوان مالك (فقد كانوا يستخدمون أسماء مزدوجة عربية وإسبانية) إلى خوان مندوثا Juan de Mendoza أحد رجالات السلطة :

« سيدى خوان مندوثا ، لتعلم أنه حينما كانت إسبانيا كلها / تحت حكم المسلمين / فقد كان المسيحيون فيها / مختلطين بالعرب تحت جناح التسامح / ولهذا فقد كانوا يدعون / ومازالوا بالمستعربين / وما كان أحدهم ليرى فى ذلك سبة ولا عارا / لأن المحنة التى يتعرض لها الرجال / ترفع من قدرهم وتعظم شأنهم / أكثر مما تسىء إليهم وتحط منهم / وإذا كان القدر قد أدار لنا ظهره / وحط على ظهورنا أثقال الذل والهزيمة / فإننا

من سـلالة أولئك الفرسان المسلمين / الذين لم يكن رجالكم / أعظم منهم فروسية ولا أكثر شجاعة» .

ثم يضع كالديرون على لسان خوان دى مندوثا نفسه هذا الوصف لجبال البشرات وهو يريها لقائد الجيش الذى قدم لإخماد الثورة :

«استمع إلىّ ياسيدى / هذه الجبال التى تراها هناك / كأنها نسر رابض على ذروة صخرة / هى جبال البشرات / هى حصون الموريسكيين التى اعتصم بها المسلمون / والتى يريدون أى يعيدوا منها / حكم دولتهم البائدة فى إسبانيا / هى جبال وعرة لعلوها الشاهق / وخشونة مطالعها / ومناعة مواقعها / حتى إن إخضاعها يعد عملا مستحيلا / ... وما أكثر مايخترقها من وديان / وحقول خصبة / وحدائق جمة / تجعل طبيعتها آية فى الجمال / وفى كل مكان تنتشر فيها القرى / والمدن الصغيرة / التى تقوم على سفوح الجبال / وما أجمل منظرها عند غروب الشمس / إذ تبدو بين الخضرة التى تكسو السفوح / كأنها صخرات بيض / تحدرت من قمة الجبل / ثم توقفت فى منتصف الطريق / ... ولديهم قطعان كبيرة من الماشية / ترعى فى تلك السفوح / ولو أن هؤلاء القوم لايتغذون باللحم / بقدر ما يتغذون بالفواكه / الرطب منها والجاف / أو بالخضر والبقول / التى مهروا فى زراعتها / فالموريسكيون قوم لا يحسنون فقط / فلاحة الأرض واستخراج كنوزها / بل يعرفون كيف يفجرون من الصخور نفسها / كل نبات طيب / وقد اشتهروا منذ قديم بالفلاحة / والمهارة فى الغرس والزراعة / حتى إن ضربات فؤوسهم / تحمل الخصوبة إلى الصخور الجرداء !» .

كان هذا حال مسلمى الأندلس إبان ضعفهم وذلتهم ، فكيف كانوا على عهد قوتهم وعزتهم ؟ ... ألم يكن ابن حزم على حق حينما هتف :

فيا درة الصين سحقًا فقد
غنيت بياقوتة الأندلس

محمود على مكى
عضو المجمع

الحــــواشـــى

(١) عنوان الكتاب Historia de la dominación de los Arabes en España .
وعن كوندى وحياته وأعماله انظر : James T. Monroe : Islam and the Arabs in Spanish Scholarship, Leiden, 1970, p. 50-60.

(٢) Fr. Francisco Cañes : Diccionario español latino - arábigo, Madrid, 1787, pp. 7-35.

(٣) Eduardo Saavedra : La geografía de España del Idrisi Boletin de la Sociedad Geográfica, Madrid, 1881-1885.

فى مجلة الجمعية الجغرافية الإسبانية

(4) Francisco Simonet : Descripción del reino de Granada, Madrid, 1860, Granada, 1872.

(5) José Alemany Bolufer : La Geografía de la Península Ibérica en los escritores árabes, Granada, 1921.

(6) Hammer - Purgstall : Über die arabische Geographie von Spanien.

وهو بحث منشور فى Akademie der Wissenschaften, المجلد الرابع عشر ، سنة ١٨٥٤ ص ٣٦٣ - ٤٢٤ .

كذلك قام عالم ألمانى آخر هو ماير ليبكه بدراسة أخرى للموضوع فى بحثه المنشور فى المجلد التكريمى للعالم الإسبانى مننديث بيدال :

فى Meyer - Lübke : Zur Kenntnis der vorrömischen Ortsnamen der iberrischen Halbinsel Homenaje a Menéndez Pidal ، مدريد ١٩٢٥ ، المجلد الأول ص ٦٣ - ٨٤

(7) David Lopes : Toponymia Arabe de Portugal, Revue Hispanique, t. IX, Paris, 1902

(8) Arnald Steiger : Contribución a la Fonética del hispano - árabe y de los arabismos en el ibero - románico y el siciliano, Madrid, 1932.

(9) Ramón Menéndez Pidal : Orígenes del español, 3ªed., Madrid, 1950.

(10) Federico Corriente : A Grammatical Sketch of the Spanish Arabic Dialect Bundle, Madrid, 1977.

(11) Miguel Asín Palacios : Contribución a la toponimia árabe de España, 2ª ed., Madrid, 1944.

(١٢) ابن سعيد : المغرب فى حلى المغرب ، تحقيق الدكتور شوقى ضيف ٤٢٣/١ .

(١٣) حول عمران إسبانيا وأحوالها العامة فى ظل القوط . انظر فجر الأندلس للدكتور حسين مؤنس ص ٥٥٠ - ٥٥٣ .

(١٤) مقدمة ابن خلدون ، ط . المكتبة التجارية الكبرى ص ٣٥٩ .

(١٥) الدكتور محمد بن شريفة : البسطى آخر شعراء الأندلس ، بيروت ١٩٨٥ ص ١٦٩ .

(١٦) الروض المعطار ، تحقيق ليفى بروفنسال ، القاهرة ١٩٣٧ ، ص ٧٣ .

(١٧) الروض المعطار ص ١٧٩ - ١٨٠ .

(18) Jaime Oliver Asín : Historia del nombre “Madrid” Madrid, 1951.

(١٩) تاريخ اسم مدريد ، وقد عرضنا نظريته فى كتابنا «مدريد العربية» ص ٦٥ - ٦٦ .

(20) Federico Corriente : El nombre de Madrid, en Madrid del siglo IX al XI, Madrid, 1990, p.p. 87-91.

فيديريكو كورنيتى : اسم مدريد ، فى كتاب «مدريد من القرن التاسع حتى القرن الحادى عشر».

(٢١) انظر فجر الأندلس ص ٢٢٠ - ٢٢٢ .

(٢٢) نفس المرجع ص ٣٨٨ .

(٢٣) انظر الحاشية رقم ٨ .

(٢٤) مدريد العربية ص ١٢٠ - ١٢٢ .

(25) Jaime Olíver Asin : Origen árabe de "rebato", "arrobda" y sus homónimos, Madrid, 1928 .

(٢٦) الروض المعطار فى خبر الأقطار ، نشر ليفى بروفنسال ، القاهرة ١٩٣٧ ص ١٩ .

(٢٧) معجم البلدان ٥/ ٢١١ .

(٢٨) المقتبس من أنباء الأندلس لابن حيان ، تحقيق محمود على مكى ص ٣٨٠ - ٣٨١ والحاشية رقم ٦٠٩ ص ٦٥١-٦٥٢ .

(٢٩) عن هذه الغزوة ، انظر ليفى بروفنسال : تاريخ إسبانيا الإسلامية - E. Lévi Provençal : Histoire de l'Espagne musulmane, Paris, 1950, II, p. 244.

(٣٠) عن هذه الأحداث ، انظر الحلة السيراء لابن الأبار ، تحقيق الدكتور حسين مؤنس٢/ ٣٤٥.

(٣١) نفح الطيب للمقرى ، تحقيق إحسان عباس ١/ ٦٨٠ ، وديوان ابن خفاجة ، تحقيق السيد مصطفى غازى ص ٣٦٤ .

(٣٢) إلياس تيريس : «مواد لدراسة أسماء الأعلام الجغرافية المرتبطة بالأنهار» .

Elias Terés Sádaba : Materiales para el estudio de la toponimia hispano-árabe : Nómina fluvial, Madrid, 1986.

(٣٣) انظر المقتبس لابن حيان ، تحقيق محمود مكى ص ٢٩٦ ، ودراسة إلياس تيريس ص ٢٨٧

(٣٤) المقتبس ص ٢٩٩

(٣٥) المقتبس ص ٣٨٠-٣٨١ من النص والحاشية رقم ٦٠٩ ص ٦٥١-٦٥٢ ، ودراسة إلياس تيريس ص ٤٠٥-٤٠٩

(٣٦) جغرافية العذرى ، تحقيق الدكتور عبد العزيز الأهوانى ، مدريد ١٩٦٥ ص ٥٦-٥٩ ، ودراسة إلياس تيريس ص ٤٦٤-٤٦٥

(٣٧) دراسة إلياس تيريس ص ٢٠٥-٢٠٦

(٣٨) المقتبس لابن حيان ، السفر الخامس ، مدريد ١٩٧٩ ص ٢٥٧ ، ودراسة إلياس تيريس ص ٣٢٣

(٣٩) دراسة إلياس تيريس ص ٤١١ - ٤١٣

(٤٠) دراسة إلياس تيريس ص ٣٢٩

(٤١) المرجع السابق ص ٢٨٤ - ٢٨٦

(٤٢) الروض المعطار للحميرى ص ١٥١ ، ودراسة إلياس تيريس ص ٤٢٤ - ٤٢٥

(٤٣) دراسة إلياس تيريس ص ٤٢٨ - ٤٢٩

(٤٤) حول سفر بن عبيد الكلاعى وجهده الفلاحى انظر نفح الطيب ١/٤٦٧ - ٤٦٨

(٤٥) دراسة إلياس تيريس ٣٧٩ - ٣٨٢

(٤٦) المرجع السابق ص ٣١٢ - ٣١٨

(٤٧) الإحاطة فى أخبار غرناطة للسان الدين بن الخطيب ، تحقيق الأستاذ محمد عبد الله عنان ، القاهرة ١٩٧٧ - ٢٣٤/٤

(٤٨) دراسة إلياس تيريس ص ٣٧٣ - ٣٧٦

(٤٩) الأعلام الجغرافية لأسين بلاثيوس ص ٤٤

(٥٠) نفس المصدر ص ٤٤ و ٧٨

(٥١) نفح الطيب للمقرى ١٧٦/١

(٥٢) معجم البلدان لياقوت ٢١٨/٥ - ٢١٩

(٥٣) جمهرة الأنساب ص ٤٣٦ . وكان هذا الإقليم أيضا من منازل قبيلة قضاعة وقد سمى «أرْش اليمن» لأن بنى أمية أنزلوا به بنى سراج القضاعيين ووكلوا إليهم حراسة مايليهم من البحر فكان ما ضمنوه من المراسى يدعى «أرش اليمن» أى عطيتهم ونحلتهم (الروض المعطار ص ٣٧) .

(٥٤) الروض المعطار ص ١٦

(٥٥) الإحاطة فى أخبار غرناطة ١٢٩/١

(٥٦) لفظ التن لاتينى الأصل وهو thunnus وهو مأخوذ من الإغريقية ، وبإسبانية اليوم atún ، غير أن اللفظ لم ينتقل إلى الإسبانية عن طريق اللاتينية وإنما عن طريق العربية بدليل أنه قد أضيفت إليه أداة التعريف العربية al ، ولم يحتفظ بلام هذه الأداة لأن التاء حرف شمسى . وهذا الحوت هو الذى يسمى فى العربية اليوم «التونة» ، وقد وصف لنا ابن عبد المنعم الحميرى الحوت المذكور فى معرض حديثه عن كورة شذونة Medina Sidonia (فى محافظة قادس الحالية) : «وبساحل شذونة يوجد حوت التن لا فى غيره من سواحل الأندلس ، فيظهر فى أول شهر مايُه ، لا يرى قبل هذا الشهر ، فإنه يخرج من البحر المحيط فيدخل إلى البحر المتوسط الذى يسمى البحر الرومى فيُصَيَّد مدة ظهوره أربعين يوما ثم يعود على مثل ذلك الوقت من العام الآخر » (الروض المعطار ص ١٠١) .

المحيط الأطلسي
البحر المتوسط
فرنسا
البرتغال
جليقية
أشتوريش
ليون
قشتالة
كنتبرية
بلاد الباسك
نبرة
قطلونية
مجريط
Madrid
La Coruña
Lugo
Pontevedra
Orense
Oviedo
León
Santander
Bilbao
Vitoria
San Sebastián
Pamplona
Burgos
Logroño
Soria
Huesca
Gerona
Lérida
Barcelona
Tarragona
Zaragoza
Zamora
Valladolid
Salamanca
Segovia
Guadalajara
Avila
Teruel
Toledo
Castellón
Cáceres
Valencia
Badajoz
Ciudad Real
Albacete
Alicante
Córdoba
Murcia
Jaén
Huelva
Sevilla
Granada
Almería
Cádiz
Málaga
ISLAS BALEARES
جزر البليار
منورقة
ميورقة
PALMA
يابسة

١ - الدهناء ؟؟

للأستاذ عبد الله بن محمد بن خميس

تتخلل جزيرة العرب رمال كثيرة منبتة هنا وهنالك ، أكثرها وأغزرها وأطولها امتداداً وأرحبها رقعة (بعد الربع الخالى) هى الدهناء ، تنطلق من عرض الربع الخالى من تحت الأفلاج شرقا ، وتذهب مشملة آخذة ما بين (الصلب) شرقاً و(العرمة) غرباً ، وهكذا حتى تجتاز (جبلى طىء) ، ثم تأخذ شطر الغرب فالغرب الجنوبى لتقف قريباً من (تيماء) ، وحينما تذهب مغربة تتعاظم وتتكاثف وتسمق وتتداخل شقائقها ، وهذا ما يسمى بـ (رمل عالج) ..

و(الدهناء) حيناً تتكاوس رمالها وتتداخل وتمحى شقائقها وتعفى طرفها فلا يسار فيها إلا بمعرفة الجهة ولا يقطعها إلا خريت ماهر .. وحيناً تنقاد حبالها وتتواكب شقائقها وتبرز أعلامها .. وهذا يرجع إلى طبيعة تكوينها ورمالها المتحركة فى بعض أجزائها والساكنة فى أجزاء أخرى ، لذا تجدهم يتخذون منها مسارات معلومة وطرقاً لاحبة تتحاشى عبور متكاوسها ومتداخلها ، أضف إلى ذلك أن الدهناء خالية من المناهل قفر من المياه ، فكانت فى حقبها الماضية مضيعة مهلكة ابتلعت الكثير وطوت فى جوفها القوافل والمجتازين .. ولما كانت هجر سابقاً هى الممون الرئيسى لنجد بادية وحاضرة بالمياه والكساء وأكثر مستلزمات الحياة بحكم أنها بلاد زراعية تنتج التمور والحبوب .. إلخ ، كما أنها بلاد صناعية تغزل الصوف والوبر والشعر وتصنّعه وتنتج الأدوات الزراعية وتصنع الأقتاب والرحال .. إلخ .. وهى أيضاً باب الجزيرة إلى الهند وشرق جنوبى آسيا بواسطة مرفئها المعروف (العقير) ، لذلك فإن لها طرقاً معروفة تعبر الدهناء من نجد ، فكل جهة من جهاتها الممتدة من الشمال إلى الجنوب لها طريق معروف .. فالعارض وما صاقبه جنوباً وما فوقه غرباً يسلك أهله طريق (مزاليج) الطريق الجنوبى يتزودون بالماء من منهل (أبى جفان) فى طرف (العرمة) الجنوبية ، ثم لاماء أمامهم دون الأحساء وفيه كثب وعهرة

ألقى هذا البحث فى الجلسة الثامنة لمؤتمر المجمع بتاريخ ٣ من ذى القعدة سنة ١٤١٥ هـ الموافق ٣ من أبريل (نيسان) سنة ١٩٩٥ م

شاقة تجتازها الرواحل بصعوبة شديدة ، وهى التى عناها محسن الهزانى فى تائيته حينما وصف الركب الوهمى الذين حملوا رسالته لصديقه (سعد بن عفالق) فى الأحساء ، هذه الكثب هى (مزعلات) قال :

يسرحن الصبح من جرعا نعام

والعصير منكبات مزعلات

والعتيم القابلة من غير أين

يشربن بروسهن من ما الصراة

يقصد صراة الأحساء .. وسميت (مزعلات) لأنها تزعل مجتازها أى تغضبه وتحنقه بوعورة اجتيازها ..

ومزاليج أيضاً هى التى يقصدها عبيد بن رشيد فى قصيدته التى يقول منها :

أقفن بنا مثل القطامع مزاليق

وصارت توالى كل عشر ثمان

العارض المنقاد للخرج لطويق

يالعنبو سكان هاك المكان

عفا الله عنه إنها لا تستحق منه هذا !!

ومزاليج أيضاً هى التى يقصدها الرقاص بقوله :

هنى من درهمت به فرخة الحرة

معط مزاليج والا معط الجودى

وابعد عن الهاجرى وابعد عن المرة

لو كان ماجا من الأجواد منقود

و(مزاليج) هى العلم البارز الذى سُمى به حقل النفط الغنى الذى كشف فى تلك المنطقة أخيراً ولما يستغل بعد ، ويؤسفنا أن الزحف على الفصحى بوساطة العناصر الأجنبية التى تعمل فى حقول النفط كشفا واستخراجا ويقلدهم أشباههم من مواطنينا الذين يعملون معهم ، يلحقون الألف واللام بهذا العلم (مزاليج) .. فيقولون : (المزاليج) كما يلحقونها بعلم (بقيق) ، فيقولون : (البقيق) ، وغير هذا وذاك من المسميات التى لعبت العجمة دورها فى تحريفها .. وقد نبهنا على هذا فى حينه عند كشف حقل (مزاليج) ولكن لا حياة لمن تنادى ...

ويلى مزاليج من الناحية الشمالية من هذه الطرق : طريق (مخيط) (وزان مبرد) يسلكه من يفوّز من منهلى (سعد) و(رملان) ، وسمى مخيطا باسم نقى هنالك فى أول الدهناء

غربيها سامق الطول مذروب الرأس كأنه مخيط وهذا الطريق يلي طريق (خريص) جنوبيه إذا سلكته ودخلت (الدهناء) فالتفت يمينك ترى (مخيطا) يسبرك أبرز علم هنالك ..

ويلي (مخيطا) من الناحية الشمالية طريق (الجودى) ، وسمى بالجودى نسبة إلى منهل (جودة) الذى يمر به هذا الطريق بعد اجتياز (الصلب) ، وكان هذا المنهل قديماً يسمى (يجودة) فخذفت ياؤه أخيراً فصار (جودة) ، وبعد منقطع الرمل من هذا الطريق مما يلى (الصمان) كانت هناك شجرة طلح كبيرة تضاف إلى هذه الطريق فيقال : (طلحة الجودى) .. وإياها عنى (الخلاوى) فى وصفه لدحل أبى مروة حيث يقول :

عن طلحة الجودى تواقيم روحة

وعليها شمالى النسور يغيب

وعنها مهب الهيف رجم وفيضة

و(حرورى) أن كان الدليل نجيب

ويليه من الشمال (المبيحيص) وهو يمر بخبرا (الخمة) بالصمان بعد أن يجتاز الدهناء ، ويليه طريق (المنشرحة) (فام الرمم) ، (فالهبابية) (فالأجردى) فطريق حاج البصرة ، ثم طريق حاج الكوفة ، فطريق (لينة) ، فطريق (جبة) (الجوف) .. وكل هذه فجاج وسبل تجتاز هذا الذراع الرملى العظيم الذى ينطلق من الربع الخالى ويذهب مشملاً فمغربًا فيكوّن فى نهايته شمالاً (رمل عالج) أو صحراء النفود الكبرى كما يسميها المعاصرون ..

والدهناء تضيق فى بعض الأماكن فيبلغ عرضها ٢٢ كيلاً ، وتتسع فى أماكن أخرى فيبلغ عرضها ٩٩ كيلاً وربما أكثر .

وطرائق الدهناء هى حبال متواكبة بينها شقق (صرائم) خالية من الرمل تدعى (خببا) جمع (خبة بكسر الخاء والباء المشددة فتاء) .. قال عنها فى (بلاد العرب) : (فأول حبل من الدهناء إلى الحفر) يقال له (خشاخش) فتقع فى معبر وفيه يقول الراجز :

ليل طويل لك من معبر

ومن حماطين وحبل السرسر

والحماطان حبلان من حبال الدهناء ، وحبل السرسير أيضًا من حبالها ، وجرعاء العكن أيضًا حبل منها .. والصرائم التى بين الحبال لها أسماء .. قال : والدهناء لها سبعة أحبل ..

وإنما تجاز هذه الحبال عرضا ، ولكل حبل منها اسم ، وبين هذه الحبال سهوب من الأرض تدعى (الصرائم) ، بين كل حبلين صريمة ، وبين كل صريمتين حبل .. ومن صرائم الدهناء : (الجردة) ، و (الجريدة) ، و (صريمة العكن) ، و (الصبيغاء) وهى برقاء بمنقطع الهناء إذا جزت الصبيغاء وقعت فى أبرق يقال له (القنفذ) . ثم إذا جزت القنفذ استقبلت أول الصمان) .. ا هـ .

ويبدو من قوله : حبل السرسور هو ما يسمى الآن بحبل السرو .. فالأسماء لهذه الحبال قديماً قد دخلها التحريف والتغيير .. فحبال الدهناء المعروفة الآن هى كما يلى : بدءً من غربيها (أبو الشمام) ، و (الحمرانى) ، و (عمر) ، و (رويكب) ، و (السرو) ، و (جهام) ، و (جهيّم) ، و (عريق الدحول) ..

والدهناء: تعتبر من أخصب مرابع العرب ومراتعهم حتى أنهم قالوا إذا أخصبت الدهناء استوعبت كافة العرب ، وإذا لم تخصب فإنهم فى فقر إلى زيادة إخصاب .. (قال فى اللسان وهى الدهناء سبعة أحبل فى عرضها بين كل حبلين شقيقة وطولها من حزن (ينسوعة) إلى رمل (يبرين) وهى قليلة الماء كثيرة الكلأ ليس فى بلاد العرب مربع مثلها ، وإذا أخصبت ربّعت العرب جمعاء .. وفى حديث صفية ودُحَيْبَةَ : إنما هذه الدهناء مقيد الجمل هو الموضع المعروف ببلاد تميم) ..

ونباتات الدهناء من الشجر هى الأرطى ، والغضا ، والعلندا ، والعوسج ، والعاذر والعشر ، والثمام ، والحمض .. ومن البقول والأعشاب : الثغام ، الخزامى ، والشقارى ، الصفارى ، الصليان ، الضمران ، العرفج ، العقلى ، القليقلان ، النصى ، الحماط ، الشرشر، الذغلوق ، الربل ، الأرقة ، الرقروق ، الغريراء ، المكنان ، القفعا ، الحمبصيص ، العضيد، الرخيم ، المكر ، الشتيل ، أم ثريب ، البسباس ، المسيكة ، القرنوى ، السبط .. وقد ينبت فى صرائمها - شققها - ما ينبت فى الروض ..

وحضنها الغربى مستقر لسيول الأودية التى تنحدر عليها ، فهنالك رياض من أشهر رياض نجد تمتد فى حضن الدهناء كروضة التنهات وخوابيها تصب فيها أودية (الشوكى) وروافده ، و(العتك) وروافده ، و (الطيرى) وروافده .. وهناك (روضة خريم) وخوابيها

يصب فيها (وادى الثمامة) وروافده .. وهنالك مرابخ (المزيرع) ومدافعه يصب فيها (وادى الطوقى) وروافده الكثيرة ، أما مرابخ الدهناء جنوبى خريم فتصب فيها أودية جنوب (العرمة) (المسعودى) ، و (ثيلان) و (الجافى) ، وما خلف طريق خريص جنوباً من المغائض والمرابخ تصب فيها أودية (العرمة) الجنوبية (عشيران) ، و (الحلال) الجنوبى ، و (الحلال) الشمالى و (أبو سدير) ، وغيرها .. ورياض (البجادية) ، (والسهباء) ، و (التوضحيّة) أسفل الخرج تصب فيها أودية (العارض) كلها : وادى (حنيفة) وروافده ، وأودية (عُليّة) ، (نساح) ، و (بلاجين) ، و (العين) ، و (تمير) ، (ماوان) ، و (أثيلان) ، و (أبو سحرا) ، و (السوط) ، وأدوية جنوبى الخرج (برك) ورواقده ، و (العقيمى) وروافده ، و (الثليماء) .. ومن الشمال أودية (نخش العرمة) الجنوبية ، و (الترابى) ، و (الحنيّة) .. كل هذه الأودية تستقر فى (البجادية) و (التوضحية) فى حضن الدهناء من تحت الخرج .. وهنالك أودية (البياض) من تحت (الأفلاج) ، وأودية (الحرشة) ، كلها تستقر فى مرابخ ومدافع فى حضن الدهناء الجنوبى تحت الأفلاح . ومن الشمال هنالك روضة (حيرى العصل) ينصب فيها (وادى العصل)

وهنالك أيضاً مغائض تصب فيها سيول (القرشع) قرشع طاسان ، وهكذا .. فلست ترى منظراً أبدع ولا أمتع من هذه الرياض إذا أخصبت وازدانت وازدهرت وتفتح نوارها وغنت أطيارها ، تطل عليها الدهناء بحمرتها الذهبية وتمتد غربها الأودية بطلوحها وغدرها ومحانيها

وتطرق هذا وذلك صبا نجد صباحا فيفوح عبيرها ويعبق شذاها .

فيما سائلى عن نجد أو عن رياضه

فديتك هذا بعض ما فى ربا نجد

وفى الدهناء أعلام بارزة وصوى مشهورة تغنى بها الشعراء وسرى ذكرها على ألسنة الرواة ، واستوعبها السفر والأدلاء وسط هذا البحر المتدافعة أواذيه من الرمال ، بها يعرفون الطرق ، ويصفون المنازل ، ويحددون الاتجاه وأمكنة الضوال ..

وقد سبق لنا شيء من ذلك عن (مزاليج) ، و (مزعلات) .. هنالك تل قريب من مزاليج يسمى (حومل) بارز معروف مما حدى

ببعض الباحثين أن يرى أن امرأ القيس فى معلقته يقصده :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل

بسقط اللوى بين الدخول وحومل

يرى أن (سقط اللوى) هو منعرج الدهناء هنالك ، وأن الدخول هو ما يسمى (الدّخيّلى) شعب من شعاب (النخش) جنوبى (العرمة) يسيل على (التوضحية) ، وحومل هو هذا التل الذى ذكرنا .. و (توضح) المذكورة فى البيت الثانى هى روضة (التوضحية) هذه .. ومع وجاهة ما ذكر هنا إلا أن القرائن ومسار بناء القصيدة ومنازل آل امرىء القيس وبقية الأعلام التى ذكرها مقرونة بهذه الأعلام الآنفة الذكر ، وغير ذلك مما يحتاج إلى بسط فى الكلام ليس هذا موضعه .. كل ذلك لا يجعلنا نطمئن إلى هذا القول ، ولعل لنا عودة إلى إشباع هذا الموضوع فى بحث مستقبل ..

ومن أعلام الدهناء (رجم الشويعر) علم بارز على طريق (مزاليج) ، يعرفه السفر تمام المعرفة ، وفيه يقول ناصر الهزانى يصف ركباً من قصيدة يمدح بها أحمد السديرى أمير الأحساء آنذاك :

لهن من ديرة بنى زيد مسراح

وتلقى لهن رجم الشويعر مصابيح

ومن أعلامها أيضا (دليل) نقى من أنقية الدهناء البارزة مقابل لمنهل (سعد) بكسر السين وإسكان العين فدال ، ويضرب بهما المثل فى قرب أحدهما من الآخر فيقال : (ياقرب سعد من دليل) فالذى على المنهل يشاهد دليلاً ، والذى فوق (دليل) يشاهد من على المنهل ، ويقع (دليل) شمال شرق (سعد) مخرج السماك الأعزل - النسر - وطريق المنطقة الشرقية - طريق خريص - يأتى من بينهما ، وقد أخذ هذا المثل عبد الله بن محمد الصبّى المعروف (بمبيلش) ، فقال من قصيدة حربية يمدح بها الملك عبد العزيز :

لو صلاح الناس فى غارب الجوزا بداه

ما يذل من المخاوف ومن ربه ذليل

هو عمود الدين ما شاف من فتق رفاه

كنه المهدى وياقرب سعد من دليل

ومن أعلامها (خريم) بضم الخاء وفتح الراء فياء ساكنة فميم ، من أطول أنقية الدهناء ، يُرى من أمكنة بعيدة وإليه تضاف الروضة المشهورة من رياض العرمة ، فيقال : (روضة خريم) ، وهو يقع شرقيها من الدهناء ...

ومن الأعلام أيضا (الجلاليّة) (زبارة متلمخة) كبيرة تقع شرقى بلد (رماح) بميل قليل إلى الجنوب ، وفيها جرت وقعة بين قبيلة الدواسر وقبيلة سبيع ، قال فيها شاعر سبيع :

ذيب ياللى عوى عند الجلالية

ابتجح بالعشا من قوم بسام

ومن أعلامها (السّبيّة) بالسين المفتوحة المشددة والباء المكسورة والياء المكسورة المشددة فتاء مربوطة .. (زبارة) من (زبائر) الدهناء شرقيها قريبة من (حزوى) ، وبها جرت وقعة للإمام تركى بن عبد الله على بنى خالد سنة ١٢٤٥ هـ لم تقم بعدها لبنى خالد قائمة ، ومنها احتل الإمام تركى (الأحساء) .. وهذا الاسم (السبيّة) قديم ذكرها غيلان ذو الرمة فى شعره قال :

وقد جعلوا السبيّة عن يمين

مقاد المهر وانتجعوا الرمالا

ومن أعلامها (حزوى) بضم الحاء وإسكان الزاى فواو مفتوحة فألف مقصورة ، (زبارة) أيضاً من (زبائر) الدهناء مشهورة فى أسفلها مما يلى (معقلا) علم بارز هنالك ، قال عنها الأزهرى : هى حبل من حبال الدهناء مررت به ..

وقال محمد بن أدريس بن أبى حفصة : (حزوى) من رمال الدهناء .. قال عنها بعض الأعراب :

ألا ليت شعرى هل أبيتن ليلة

بجمهور حزوى حيث ربتنى أهلى

وصوت شمال زعزعت بعد هجعة

آلاء وأسباطاً وأرطى من الحبل

أحب إلينا من صياح دجاجة

وديك وصوت الريح فى سعف النخل

وقال أعرابى آخر :

لئن طلن أيام بحزوى لقد أتت

على ليال بالعقيق قصار

وأنشد ابن أبى حفصة لذى الرمة :

خليلى عوجا من صدور الرواحل

بجمهور حزوى فابكيا فى المنازل

لعل انحدار الدمع يعقب راحة

إلى القلب أو يشفى نجى البلابل

وهنالك (حزوى) أخرى باليمامة بحذاء قرية بنى سدوس لآل معمر الآن ، أميرها الرجل

الفاضل محمد بن فيصل بن معمر .. وهنالك (حزوى) ثالثة بعالية نجد ومن أعلامها (الأعيجم) تصغير أعجم حبل بارز يلتقى فيه السروان (مثنى سرو) ، وهما حبلان معروفان من حبال الدهناء .. وفى (الاعيجم) يقول الشاعر (نصار السهلى) فى محبوبته :

صاحبى مانوى طارى المحدار

راكد والأعيجم مدا هيله

صاحبى يحسبن شدتى مختار

مقفى بالحسايف أنا أخيله

و(نصار) هذا هو الذى يقصده الشاعر المعروف (دبيان عن عساف) يقوله :

صاحبى شد مع ناقلين الكار

مع فريق علىّ ابعدوا داره

مع فريق الجمالين يانصار

من يجينى من العذب بأخباره

شبه وضحى زعوج على القهار

فى نهار المواريد دجاره

حايل ما بعد عاودت لحوار

من مغاتير الأجواد سنجاره

ومن أعلامها (البزيخا) بضم الباء وفتح الزاى وإسكان الياء فخاء مفتوحة فألف .. تصغير بزخاء ، والتسمية تفيد الضخامة والبروز .. وهذه (زبارة) من (زبائر) الدهناء الكبيرة المطلة على (قرشع طاسان) ومرتفع (الدجانى) و (القاعية) جنوبى (نقى الجمل) فى (حومة النقيان) ، وهى التى ذكرها الشاعر الشعبى السبيعى أبو ذيب يصف وقعة بين قومه وبين الظفير ويفتخر بقومه ، قال :

قطعانا ماردت بالكداد

تلقى لهن حول (البزيخا) معازيب

حنا ذيابة مقرعات التوادى

إلى ركبنا فوق عوج المصاليب

ومن أعلامها (حومة النقيان) ، أى مجتمع الانقاء ، وفى هذه المنطقة تنبث أنقية الدهناء هنا وهنالك حتى لكأنها خيام ذهبية مبثوثة ، وبعضها علم مسمى وله ذكر على ألسنة الرواة ، وبعضها نكرة لا يعرف له اسم .. فمن المعروفة (نقى الجمل) وهو من أبرزها وأشهرها ، ويقال إنه هو الذى أوصى ذو الرمة أن يدفن فيه فدفن ..

وفي حومة النقيان يقول محمد بن علي بن صقية أمير حليفة سابقاً :

حموها من (الوفرا) إلى (حومة النقيان)

إلى (المستوى) و(السر) و(طويق) يرعونه

مداهيل تلعات المها شرد الغزلان

ثلاث غدن بالزين عن كل مزيونه

ومن أبرزها وأشهرها (نقى المطوع) ، وهو طالب علم من أهل (أشيقر) بالوشم علق حب فتاة أفضى به إلى الوجد والوله والغرام فتزوجها وهي لم تكن من طبقته نسبا على ما درج عليه عرب ذلك الزمان من حماسة للنسب يفضي إلى القتل ، فكشف أمره وهددته العشيرة بالقتل إذا لم يطلقها فأبى وحملوه معهم في قافلة ذاهبة للامتيار من إحدى مدن ساحل الخليج العربي وقصدهم اغتياله إذا وصلوا الدهناء ، وقد عرف قصدهم ، وحينما ، وصلوا الدهناء وقد اصطادوا ظبيا أخذ من دمه في فنجان ، وجعل يذيب لواعج حزنه وفيض صبابته في شعر يكتبه بالدم في ثوبه حتى إذا أفرغها قصيدة طويلة شاكية باكية أسلم روحه لبارئها فدفن في هذا النقى .. يرحمه الله ..

أما القصيدة فمنها :

الأقفى جزى الأقفى ولاخير في فتى

يتبع هوى من لا يريد هواه

من باعنا بالهجر بعناه بالنيا

ومن جذ حبلي ما وصلت رشاه

أخذ هذا المعنى (الشريف بركات) ، فقال :

قلته على بيت قديم سمعته

على مثل ما قال (التميمي) لصحابه

إذا الخل وراك الصدود فورّه

صدود ولو كانت جزايل وهابيه

يقصد بقول (التميمي) : الأقفى جزى الأقفى في البيتين المتقدمين (مطوِّع) أشيقر ..

ومن أعلامها (حِرَابَة) بكسر الحاء وفتح الراء والباء فتاء مربوطة .. نقى طويل مذروب في نهاية الدهناء من شرق مما يلي (الحتايف) ، تراه من بعد كأنه رمح ، ويعنيه الشاعر الشعبي المفوه (حنيف بن سعيدان) في قصيدته التي يمدح بها (الدوشان) ،قال منها :

كزوا لهم من عقب الأمطار عساس

وتباشروا بالصلب كثر شرابه

وقاد السلف واستجنبوا قب الأفراس

وحطوا (جنيّح) شدة من (حرابه)

ومن أعلامها (الدويدات) جمع دويد ، وهى أنقية حمر متجاورة علامة فارقة فى المنطقة ، وهن فى موضعين من الدهناء فى (السرو) وفى (جهام) ، وبالمناسبة فقد حدثنى أحدهم قال : كنت مع ثلاثة من أبناء الملك عبد العزيز - رحمه الله - خرجوا من مخيمه فى خريم للقنص ، ولما جاءوا عند (الدويدات) تعطلت سيارتهم فبعثوا محدثى راجلا للمخيم من أجل إسعافهم ، وكانوا آنذاك صغاراً .. قال : فوصلت المخيم بعد لأى وتعب ونصب فوجدت الملك عبد العزيز على أحر من الجمر فاستدعانى وأخذ خبرى ، وقال هل هم فى (دويدات السرو) وإلا فى (دويدات جهام) ؟ قال : فبهت لأننى لا أعرف هذه من هذه فنهرنى فتلعثمت وقلت فيهن كلهن فضحك وانصرف عنى وأمر بإسعافهم فى الحال .. قلت رحمك الله يا عبد العزيز فقد قتلت أرض الجزيرة معرفة واستيعاباً تجوبها غازياً أو مسافراً أو متفقداً حتى عرفتك وعرفتها فلم يخف عليك منها شبر .. ومن أعلامها أيضاً (نقى سبيت) ، وهو من أبرز أنقية الدهناء وأشهرها ، ولا نعلم من هو سبيت هذا الذى أضيف إليه هذا النقى .

ويطول بنا الدرب لو ذهبنا نعدد أعلام الدهناء وما لها من مناسبات ، ولكن يكفى أن نسرد ما تيسر لنا منها سردا .. فمنها (نقى التنهات) ، (البدرية) ، و (الكناسية) ، و (أوتاد) ، و (الشاوية) ، و (جو صياح) ، و (جو جهام) ، و (الطويسة) ، و (سريهيدة) ، و(أم رقيبة) ، و(السنافية) ، و (كنهرى)، و (الهدب) ، و (حرورى) ، و (عدامة دغيم) ، و (الحصانة) ، و (اليتيمة) .. إلخ .

ويتخذ العرب الدهناء ملاذا عن الأعداء المغيرين ينطوون فى كثبانها ومتداخلاتها ، ويجدون فيها ملجأ لهم يحصنهم من أعدائهم .. أغار قوم على آخرين وكان المغار عليهم فى (الصمان) مما يلى (الدهناء) ، وقبل أن يفاجئوا المغاز عليهم وجد المغيرون شخصاً منهم فاعتقلوه لئلا ينذر قومه ، وبعثوا بعين منهم كأنه ضيف ليستجلى خبر القوم ويكشف عدتهم واستعدادهم قبل أن يغيروا عليهم . . ولما همّ هذا العين بالذهاب قال للمعتقل : إنى ذاهب إلى أهلك ضيفاً فماذا توصينى به لهم .. قال قل لهم إن الأرض مجرودة فليعروا جملى الأصهب ويركبوا ناقتى الحمراء حتى آتيهم .. وكان فى هذا الرمز لهم أكبر نذير .. فالجراد هو العدو المغير ، والجمل الأصهب هو الصمان ، والناقة الحمراء هى الدهناء .. فبادروا بركوب الدهناء وأخفق المغيرون مما كادوا أن ينالوه .. ولقد تغنى الشعراء بالدهناء وقالوا فيها كثيراً نقتطف من ذلك ما تسنى لنا :

قال أعشى همدان يصف لصوصاً :

يمرون بالدهنا خفافا عيابهم
ويرجعن من (دارين) بجر الحقائب

على حين ألهى الناس جل أمورهم
فندلا زريق المال ندل الثعالب

وقال أعرابى حبس بحجر اليمامة :

هل الباب مفروج فانظر نظرة
بعين قلت حجرا فطال احتمامها

ألا حبذا الدهنا وطيب ترابها
وأرض خلاء يصدح الليل هامها

ونص المهارى العشيات والضحى
إلى بقروحى العيون كلامها

وقال كثير :

كأن عدو ليا زهاء حمولها
غدت ترقى الدهنابه والدهالك

وقال آخر :

جازت القور والمخارم أماً
ثم مالت لجانب الدهناء

وقالت العيوف بنت مسعود أخىذى الرمة :

خليلى قوما فارفعا الطرف وانظرا
لصاحب شوق منظرا متراخيا

عسى أن نرى والله ما شاء فاعل
باكثبة الدهنا من الحى باديا

وإن حال عرض الرمل والبعد دونهم
فقد يطلب الإنسان ما ليس رائيا

يرى الله أن القلب أضحى ضميره
لما قابل الروحاء والعرج قاليا

وقال ذو الرمة :

حنت إلى نعم الدهناء فقلت لها
أمي (هلالا) على التوفيق والرشد

الواهب المائة الجرجور حانية
على الرباع إذا ماضن بالسبد

وقال أيضاً

غراء آنسة تبدو بمعقلة
إلى سويقة حتى تحفر الحفرا

تشتو إلى عجمة (الدهناء) ومربعها
روض يناصى أعالى ميثة العفرا

وهكذا يكثرون من ذكرها ، ويحنون إلى أجارعها ووعاسها وشقائقها وصرائمها ..

وأخيراً فإن الدهناء (بنية) تمد وتقصر على خلاف بين البصريين والكوفيين فى ذلك .. هذا هو حديث (الدهناء) وقد شاهدتُ أعلامها وجبتُ سهولها وسهوبها ووقفت فيها وقفات المتأمل وما أبرىء نفسى ،

عبد الله بن محمد بن خميس
عضو المجمع المراسل
من السعودية

الجغرافيا فى رسائل إخوان الصفا (*)

الحمد لله وحده ، والصلاة والسلام على من لا نبى بعده .

سنعرض فى هذه الورقة لطبيعة الجماعة المسماة بإخوان الصفا ، ولما تضمنته رسائلهم من معارف جغرافية ، ولما اتسم به إنتاجهم فى هذا المجال من سمات .

– ١ –

فأما الإخوان فهم جماعة فكرية ، غير معلنة التكوين أو الأهداف ، قامت بالبصرة حوالى منتصف القرن الرابع الهجرى ، وكان لها فرع فى بغداد ، توفق بين العقل والنقل وتمزج الدين بالفلسفة ، أو هى تحاول وضع فلسفة ذات صيغة دينية ، فى إطار من المعارف المتنوعة التى زخرت بها البيئة الثقافية حينذاك.

ونظرا للطابع السرى الغامض الذى أضفوه على أنفسهم ومذهبهم فقد حار الباحثون فى تحديد هويتهم الفكرية وأهدافهم الحقيقية التى يمكن أن تستخلص من رسائلهم :

(أ) فمن قائل إن هدفهم إنما هو تثقيف الأمة وتهذيبها بعد أن عجزت الشريعة فى نظرهم عن أداء المهمة .. وليست لهم أية غاية أخرى»[١] .

(ب) ومن قائل « إنهم جماعة تحلوا بالزهد فى الدنيا والمحبة والأمانة والصدق والوفاء » منكرا أن تكون لهم أهداف سياسية ترمى إلى قلب السلطة أو المساس بالدين[٢] .

(جـ) ومن قائل : إنهم كانوا «يريدون قلب النظام السياسى المسيطر على العالم الإسلامى يومئذ ، وهم يتوسلون إلى ذلك بقلب النظام العقلى المسيطر على حياة المسلمين»[٣] .

(د) وربما آثر بعض الباحثين أن ينسب إليهم كل الأوصاف المحتملة فيقول: « إن إخوان الصفا علويون ، وباطنيون ، وإسماعيليون ، ومعتزلة ، وفيثاغوريون ، وأفلوطينيون ، ومجوس »[٤] .

(*) بحث ألقى فى المؤتمر السنوى لمجمع اللغة العربية بالقاهرة عام ١٩٩٥م .

(هـ) وكان جولد تسيهر قد أشار إلى علاقتهم بالإسماعيلية ، واشتد فى الحكم على هؤلاء إذ قال : « بدأ الإسماعيلية بنظرية الفيض الأفلاطونية ، تلك التى بنت عليها جماعة إخوان الصفا البصرية فلسفتها الدينية . . واستنبطت الإسماعيلية من هذه الفلسفة أعمق نتائجها وأشدها تطرفا »(٥) وكان قد ذكر قبل ذلك بأسطر أن الإسماعيلية استخدمت النظريات الأفلاطونية « لكى تنفذ إلى صميم الديانة الإسلامية ، وتعمل على تعديل أحكامها وعقائدها ، وفكرة الإمامة عندهم لم تكن إلا قناعا ستروا وراءه برامجهم الهدامة ، ولم تكن إلا تكأة إسلامية المظهر اعتمدوا عليها كأداة للتقويض والتدمير » (٥) .

(هـ) ويبدو أن هذه الإشارة - التى أكدها ديبور أيضا (٦) قد وجهت البحوث الغربية وجهة مثمرة ، حتى إن كراتشكوفسكى يقول بعد بضعة عقود : « وضح فى الأعوام العشرة الأخيرة ، بما لا يدع مجالا للشك ، أنها (أى جماعة إخوان الصفا) قريبة من دوائر الإسماعيلية وتنتصر لمذهبهم »(٧) .

وإذا كان علىّ أن أضيف شيئا - بحكم تخصصى - فإنى أؤكد أن إخوان الصفا ليسوا إلا مجموعة من دعاة الإسماعيلية «المكاسرين» الذين يمهدون البيئة العقلية لمبادئ المذهب ، وأن من يقرأ الرسائل وبخاصة «الرسالة الجامعة» سيجد أسس العقيدة الإسماعيلية وتفاصيلها فى غاية من الوضوح (٨) . على نحو لا يدع مجالا للشك كما قرر المستشرق كراتشكوفسكى .

وتلك حقيقة لا ينكرها الكتاب الإسماعيليون أنفسهم فى الوقت الحاضر(٩).

وأيا ما كان الاتجاه الفكرى لإخوان الصفا فإن رسائلهم تعد موسوعة شاملة لمعارف عصرهم ، مصوغة فى أسلوب سهل ميسر ، يناسب عامة المثقفين حينذاك ، قدمت فيه المعارف الدينية الإسلامية فى صياغة باطنية تأويلية ، ممزوجة بالفلسفة اليونانية مع إيثار لاتجاهات الفيثاغورية والأفلاطونية المحدثة ، وهذا ما يؤكده جولد تسيهر قائلا : « قد أفلحت الحكمة اليونانية فى أن تستوطن الشرق وذلك عن طريق إخوان الصفا ،

على حين كادت فلسفة المدرسة الأرسطاليسية لا تثمر إلا فى جو صناعى هيأه لها الأمراء »[١٠].

وهذه الموسوعة ، التى يعتبرها أحد الباحثين [١١] « الموسوعة الفكرية الأولى فى تاريخ البشرية » ، تتكون من اثنتين وخمسين رسالة ، وتنقسم إلى أربعة أقسام : القسم الأول للعلوم الرياضية والمنطقية - كأنه تمهيد منهجى للفلسفة على الطريقة الفيثاغورية الأفلاطونية - فى أربع عشرة رسالة .

والثانى للفلسفة الطبيعية فى سبع عشرة رسالة . والثالث للميتافيزيقا وعلم النفس فى عشر رسائل . والأخير للتصوف والتنجيم والسحر فى إحدى عشرة رسالة .

وتتسم الرسائل بسمات عامة ، لا ينبغى أن تغيب عن ذهن القارئ لها حتى يقدرها تقديرا موضوعيا . من هذه السمات :

١ - أنها عمل موسوعى يلخص علوم العصر ومعارفه بضرب من التبسيط ، وليس كتابها من العلماء الأفذاذ كالرازى أو الجاحظ، ولا الفلاسفة المبدعين كالكندى أو الفارابى .

٢ - أن كتابها بحكم تأثرهم بالأفلاطونية المحدثة وميولهم المذهبية الإسماعيلية يؤمنون بتأثير الأجرام السماوية العلوية على الظواهر الطبيعية والأوضاع الإنسانية ، كما ألمح إلى ذلك ديبور .

٣ - أن الميول الإسماعيلية لكتابها لم تحل دون العرض الموضوعى فى كثير من الأحيان ، وبخاصة عندما لا يسمح الموضوع بتضمينات أو إيحاءات مذهبية ، وهناك مؤلفون معاصرون من الإسماعيلية يكتبون بموضوعية وروح علمية كأبى حاتم الرازى فى كتابيه «الزينة - وأعلام البنوة» كما نبه إلى ذلك أستاذنا الدكتور إبراهيم بيومى مدكور[١٢] .

٤ - أنها لم تبرأ - بحكم الطابع الغنوصى - لها من نزعة تلفيقية - كما ذكره ديبور أيضا بمحاولتها الجمع المتعسف بين عقائد الأديان المختلفة ومذاهب الفلسفة المتباينة على نحو لا يرضى دينا ولا فلسفة ، حتى اضطر بطرس البستانى فى مقدمته للرسائل أن يقرر بأن « كلامهم على يسوع أنه عن ميمنة عرش الرب قد قرب مثواه كما يقرب ابن الأب ، ينطبق على العقيدة المسيحية لا على العقيدة الإسلامية[١٢] » وأنه « مدعاة للشك فى إسلامهم»[١٣] .

٥ - أن كتابها مالوا إلى أسلوب رمزى للتخفيف من وقع انتقاداتهم لمذاهب أهل السنة وللمظالم السائدة فى عصرهم وقلدوا فى ذلك أسلوب كليلة ودمنة ، على نحو يشهد لهم بالبراعة ويدعو دارسى الأدب العربى إلى تناول هذه الناحية المبثوثة فى رسائلهم بالدراسة الجادة .

٦ - أن كتاب الرسائل وإن حاولوا إبداء موقف معتدل بين الفلسفة والدين ، بل اشترطوا تعليم الدين فيمن يشتغل بها : « .. فأما من قد تعلم علم الشريعة ، وعرف أحكام الدين ، وتحقق أمر الناموس ، فإن نظره فى علم الفلسفة لا يضره ، بل يزيده فى علم الدين تحققاً ، وفى أمر المعاد استبصارا »(١٤) إنهم وإن حاولوا ذلك ، قد كانوا فى كثير من الأحيان يعدلون إلى جانب الفلسفة والتأويلات المذهبية المتطرفة ، مما يجعل حكم أبى حيان عليهم فى هذا الشأن حكمًا غير جائز : «إن الشريعة قد دنست بالجهالات واختلطت بالضلالات ، ولا سبيل إلى غسلها وتطهيرها إلا بالفلسفة . وزعموا أنه متى انتظمت الفلسفة الاجتهادية اليونانية والشريعة العربية فقد حصل الكمال . »(١٥)

ولعلنا الآن نستطيع أن نتناول الجانب الجغرافى من الرسائل بالتلخيص ، ثم بالتعليق والتقويم بإذن الله .

- ٢ -

أفرد إخوان الصفا للجغرافيا رسالة خاصة من رسائلهم هى «الرسالة الرابعة» من القسم الأول الخاص بالعلوم الرياضية والمنطقية ، متوسطة بين الرسالة المختصة بالفلك والرسالة المختصة بالموسيقى . وهذا فى حد ذاته قد يوحى بالطابع العام لفكرهم الجغرافى ، وأنه من جهة يربط بين الأرض والسماء ، والجغرافيا والفلك والعلم والدين كما يهتم بالأعداد وأسرارها والحروف وخصائصها ، أى أنهم معنيون بالجغرافيا الفلكية الرياضية(١٦) ، ويعتبرون ذلك - مع المنطق - تمهيداً للدراسة الفلسفية : وفى الطبيعة والميتافيزيقا . وناحية شكلية أخرى وهى إيثارهم تسمية العلم - لأول مرة فى التراث الجغرافى العربى(١٧) - باسمه القديم معربًا «جغرافيا» مع تفسيره بالعربية « يعنى صورة الأرض والأقاليم »(١٨) ، وكان من قبلهم يؤثر ترجمته بصورة الأرض أو تقويم البلدان أو غير ذلك ،

وهذه سمة غالبة على طريقتهم مع أكثر المصطلحات المنطقية وبعض المصطلحات الأخرى ، مما قد يوحى برغبتهم فى الإشارة إلى المصدر اليونانى لهذه المعارف ، وتلك ناحية قد نعود إليها فيما بعد .

على أن الرسالة الرابعة المكرسة للجغرافيا ليست هى وحدها المتعلقة بالبحث الجغرافى ، فإن رسائل أخرى فى هذا القسم الأول ، وفى الأقسام الثلاثة الأخرى تحتوى مباحث جغرافية لا يخطئها قارىء الرسائل وقد لا تقل قيمة عما تتضمنه رسالة الجغرافيا من الناحية العلمية .

وسنعرض بإيجاز مضمون (الرسالة الرابعة) ثم نشير فى سرعة إلى بعض المواضع فى الرسائل الأخرى فيما يلى :

(أ) تبدأ الرسالة بالتنبيه إلى أن هدف البحث هو معرفة الوقائع بعللها صعودا إلى العلة الأولى ، مما يتسق مع منهج «الإخوان» فى ربط العلم بالدين . يلى ذلك بيان أن الأرض هى مركز العالم طبقا للمعارف السائدة زمن التأليف ، وتعليل البحث فى أحوال الأرض بأنها منشؤنا وإليها معادنا ، وأنها منطلقنا إلى عالم البقاء ، ثم إشارة إلى أهم محتويات الرسالة وهى الأقاليم السبعة ، لتعود إلى هدف البحث وأنه الاعتبار : ﴿ ربنا ما خلقت هذا باطلا ، سبحانك ..! ﴾[19] .

بعد هذه المقدمة يتناول الفصل الأول (صفة الأقاليم وما فى الربع المسكون من الأرض) فيحدد موقع الأرض ، والجهات الست ، وحجم الأرض وطول قطرها ، ومركزها حسب علم الهيئة لا فى التوهم العامى ، ويذكر توالى الأفلاك صعودا من مركز الأرض ، وحدبة الأرض أو تكورها[20] .

تلى ذلك فقرة خاصة بذكر (وقوف الأرض فى وسط الهواء) وفيها تعليل لثباتها فى موقعها بالجذب : جذب القلب لها من جميع جهاتها بالسوية ، أو جذب المركز لجميع أجزائها حسب ثقله من جميع الجهات إلى الوسط أو بالدفع ، وتساوى قوة الدفع من جميع الجهات . وبعد هذا التفسير العلمى يأتى تفسير دينى هو أن الإرادة الإلهية خصت كل جسم حسب عنصره بموقع خاص ، وكل كوكب من الكواكب بموضوع مخصص ، وهو - كما تقول الرسالة .. «أشبه الأقاويل بالحق»[21] ربما لأنه يؤكد فكرة المراتب والاصطفاء الإلهى مما يزكى موقف القوم من الإمامة .

وفقرة أخرى فى الفصل نفسه عن (طبقة الأرض وقسمة أرباعها) تُصورها فيه كرة نصفها غاطس فى الماء والنصف الآخر بارز ، وهو ينقسم قسمين أو ربعين بخط الاستواء :

الجنوبىُّ منهما غيرُ مسكون والشمالى هو الربع المسكون من الأرض ، وفيه بحار سبعة فى كلٍّ عدة جزر ، ويحدد مواقع هذه الأبحر ، بعد أن يقدم رسما بسيطا يوضح أقسام الأرض(٢٢) . يليه بيان للجبال فى هذه المنطقة المأهولة . ويختم الفصل ببيان صفة الأقاليم السبعة وأبعادها موضحة بالشكل الذى يسميه مثالا(٢٣) .

ويبدأ الفصل الثانى - كأكثر الفصول - بمناداة القارىء « بالأخ البار الرحيم » والدعاء له ، وهو أسلوب فى التودد إلى القارىء لا بأس به لولا بعض سرف فيه ، ثم تنبيهه إلى أن حدود الأقاليم السبعة ، التى وردت فى ختام الفصل السابق ، إنما هى حدود وهمية - وليست أقساما طبيعية - وضعها المستكشفون لحدود تلك البلاد ، ومسالكها - وهنا ترد أسماء بعض ملوك الأمم ولامشاحة فى أن للعوامل السياسية أثرا فى الاكتشافات وتقدم المعارف الجغرافية ، ثم يذكر لاقتصارهم على الربع المأهول أسباباً طبيعية قد لا تكون دقيقة ولكنها تلمح إلى أثر العوامل الجغرافية فى التوزيع السكانى على الكرة الأرضية ، منبها إلى أنها على اتساعها ليست إلا كالنقطة فى دائرة الأفلاك الواسعة ، وإن كانت - كما مر بنا آنفا - هى النقطة المركزية ؛ « وذلك أن فى الفلك ألفا وتسعة وعشرين كوكبا ، أصغر كوكب منها مثل الأرض ثمانى عشرة مرة ، وأكبرُها مائة وسبع مرات.. »(٢٤) ، وتلك أرقام وحجوم غير صحيحة الآن ، ولعلها غير دقيقة بمقياس ذلك الزمان ، ولكنها تدعو القارىء - كما ينصحه الإخوان - إلى التفكير فى عظمة الخالق القائل : ﴿ وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق ﴾ صدق الله العظيم .

أما الفصل الثالث - وهو أطول الفصول ، بل يقرب من نصف حجم الرسالة فإنه يبدأ ، كما انتهى سابقه ، بموعظة للقارىء ألا تشغله مطالب العيش والشهوات والطموحات الدنيوية الزائفة عن « طلب العلم ومعرفة حقائق الأشياء . حتى إذا فنى العمر خرج من هذه الدار جاهلاً ، لم يعرف صورتها ، ولم يفكر فى الآيات التى فى آفاقها ، ولا اعتبر أحوال موجوداتها .. » (٢٥)، فيكون كواحد من السائحين دخلوا مدينة ملك حكيم عادل أقام لهم الموائد ، ودعاهم إلى لقائه تكريما وحفاوة وإلى السياحة فى المدينة طلبا للحكمة والمعرفة ، فشغلتهم الموائد عن الاعتبار

بما فى مدينة الملك من الآيات والغرائب ، التى كان من الممكن أن يصيروا برؤيتها «حكماء أخياراً فضلاء»(٢٦) فيصلون إلى حضرته ، ويستحقون كرامته ، لكنهم خرجوا من مدينته لم ينالوا منها إلا الطعام والشراب .. وهذا لعمرى سمو أى سمو بقيمة المعارف الجغرافية وأثرها التربوى والروحى ، ولكن لا ينبغى أن ننسى أن هذه الصفات «حكماء أخياراً فضلاء» هى مراتب فى الدعوة حسب السن والخبرة عند إخوان الصفا(٢٧) ، وإذن فهذه دعوة مذهبية ، بل تنظيمية ، مغلفة بالموعظة الروحية ، وقد يشى بذلك دعاؤهم للقارىء : «وفقك الله أيها الأخ البار الرحيم [هذان هما وصفا من يصلح للدعوة](٢٨) للسداد ، وهداك للرشاد ، وجميع إخواننا حيث كانوا فى البلاد ..»(٢٩) .

وبعد هذه المقدمة الدعوية يحدد الإخوان موضوع الفصل الثالث «نريد أن نذكر الأقاليم السبعة ونبين حدودها طولا وعرضا وما فى كل إقليم من المدن الكبار والجبال والأنهار الطوال»(٣٠) ، ثم يذكرون أن أساس تقسيم هذه النطاقات الهندسية شمالى خط الاستواء المسماة بالأقاليم السبعة إنما هو التفاوت فى طول وقت النهار مشيرين إلى أن ذلك مأخوذ من كتاب «المجسطى»(٣١) وهو تصريح بمصدرهم الأساسى وهو المدرسة اليونانية - الإسكندرية .

ثم يبينون أن ما سيوردونه بعد فى هذا الفصل من قوائم المدن والمواضع سيذكر فيه درجة العرض ، والمقصود بها بعد المكان عن خط الاستواء ، ودرجة الطول والمقصود بعده عن أقصى المغرب ، وأن المسافة من أقصى المغرب إلى أقصى المشرق هى مائة وثمانون درجة كل درجة تسعة عشر فرسخا ، ثم يذكرون على هذا الأساس كيفية تحديد المواقع على وجه الإجمال .

ترد بعد ذلك أسماء المدن الكبار ، بدءا بما ليس منها فى الأقاليم السبعة لقربه من خط الاستواء مقرونة كل منها بدرجة طولها معبراً عنها بحساب الجمل : وهى «بشمير من الهند [كذا بالباء] ، جزيرة كوك من الهند ، مدينة الطيب من الهند ، وحضرموت من اليمن ، رعاه من الحبشة ، كوكو من الحبشة(٣٢) وربما كان تحديد مواقع هذه المواضع من خط الاستواء كما نعرفه الآن تعوزه الدقة ، غير أن ما يلفت النظر أن هذه الأعلام الجغرافية وأمثالها - مع الأخذ فى الاعتبار آثار التحريف والتصحيف فى المخطوطات والمطبوعات غير المحققة - جديرة بدراسة متخصصة .

ثم يتعرضون للإقليم الأول ، ناسبين إياه إلى زحل ، محددين طوله وعرضه بالأميال والفراسخ ، وتفاوت طول النهار فيه ، فيذكرون أن «فى هذا الإقليم من الجبال الطوال نحو عشرين .. وفيه من المدن المعروفة نحو من خمسين ، وابتداء هذا الإقليم من المشرق على شمال جزيرة الياقوت ، فيمر على بلاد الصين مما يلى الجنوب ، ثم على شمال بلد سرنديب ، ثم على وسط بلاد الهند ، ثم يمر على وسط بلاد السند ، ثم يقطع بحر فارس مما يلى الجنوب بلاد عمان [كذا] ، ثم يمر على وسط بلاد الشحر ، ثم يمر على وسط بلاد اليمن ، ثم يقطع بحر القلزم هناك ، ويمر على وسط بلاد الحبشة ، ويقطع نيل مصر هناك ، ثم يمر على بلاد النوبة ، ثم يمر على وسط بلاد البربر وبلاد البواى ، ثم يمر على جنوب بلاد مرطانة ، وينتهى إلى بحر المغرب - بحر الظلمات - وعامة أهل هذه البلاد سود »(٣٣) ثم يوردون بعد ذلك أسماء المدن الكبار فى هذا الإقليم مقرونة بدرجات الطول والعرض على النحو المشار إليه آنفا : « مدينة فى أقصى الصين ، مدينة فى جزيرة الصين ، أسقريار وهى من الصين ، ماسيوفا من الهند ، حارون من الهند ، سقلى من السند ، عُمان من بلاد العرب [على العين نقطة فى طبعة صادر] ، الميد من السند ، مدينة أخرى على البحر مَيْلا عدن من اليمن ، دنقلة من بلاد نوبة ، كوضُ وواعلة منه [كذا] ، مملكة الحبشة ، حرمى الكبرى»(٣٤) وإنما أطلت النقل هنا ليكون نموذجا لما يوردونه عن الأقاليم الستة التالية من المواضع ، فهو مماثل لذلك حتى نهاية الفصل ، اللهم إلا فى اختلاف أسماء الأماكن ودرجاتها ، ولعل فيما أوردناه كفاية لأن يجذب نظر عالم متخصص فيجعل هذه النصوص من الرسائل موضع دراسة تفصيلية .

ويذكر الفصل التالى - وهو الرابع - اختلاف خواص الأقاليم السبعة ؛ من حيث السكان وأحوالهم ، والحيوان ، والمعادن ، والمناخ ، والتربة ، وموارد المياه ، على وجه الإجمال وينسبه إلى اختلاف طوالع البروج ودرجاتها على آفاق تلك البلاد ، مع الاعتراف بأن ذلك مما يطول شرحه(٣٥) وبعد الإشارة إلى العوامل الطبيعية السابقة المؤثرة فى تمدن الربع المسكون من الأرض الذى قيل إنه يحوى ١٧,٠٠٠ مدينة سوى القرى (٣٦)، يذكرون - جريا على معتقداتهم ، وما شاع فى عصرهم ثم أحكام القرانات وما يترتب

عليها من قوة السعود ، وأدوار الأفلاك الألوف - وهذه إسماعيلية - وما ينشأ عن ذلك كله من « اعتدال الزمان واستواء طبيعة الأركان ، ومجيء الأنبياء ، وتواتر الوحى [كذا] ، وكثرة العلماء ، وعدل الملوك .. »[٣٧] ثم يذكرون النحوس وما يترتب عليها من تغيرات طبيعية ونفسية وثقافية سيئة ، وهكذا يدور الزمان بالبشر قرنا بعد قرن ، ومن أمة إلى أمة ، ومن بلد إلى بلد .

ويتصل الخطاب فى الفصل التالى - وهو الخامس ، ويليه فصل الختام - بين الإخوان وقارئهم حول تطور الدول وأن لكل دولة عمرا يبدأ بالنشأة ، ويبلغ النضوج ، ثم ينتهى إلى الانحطاط والنقصان ، لتنشأ دولة أخرى وتعلو ، وتتراجع الأخرى ، مما يذكرنا نحن بنظرية ابن خلدون فيما بعد ، وإن كانت طبيعة التفسير لهذه الظواهر التاريخية مختلفة ، أما أصحابنا هؤلاء فيفسرونه بأثر الكواكب واختلاف الظروف الطبيعية وما يترتب عليها فى أوضاع البشر ﴿ وتلك الأيام نداولها بين الناس ﴾ .

ثم يأتى فصل الختام مبشرا القراء بقرب سقوط دولة الشر ، حيث بلغت أوجها ومالت إلى الشيخوخة والضعف ، مما يصلح وصفا لأوضاع الدولة العباسية حين ظهور الرسائل ، وبدء اختلالها وضعفها ولكن البديل وهو دولة الخير لن تقوم إلا إذا سبقتها دعوة جامعة «من قوم علماء حكماء ، وخيار فضلاء ، يجتمعون على رأى واحد ، .. ودين واحد ، ويعقدون بينهم عهدا وميثاقا .. ويكونون كرجل واحد فى جميع أمورهم ، .. فهل لك أيها الأخ البار الحكيم بأن ترغب فى صحبة إخوان لك نصحاء ، وأصدقاء لك أخيار فضلاء .. بأن تقصد مقصدهم ، وتتخلق بأخلاقهم ، وتنظر فى علومهم ، لتعرف مناهجهم ، وتكون معهم .. »[٣٨] .

وهكذا تنتهى رسالة «الجغرافيا» بدعوة واضحة إلى تغيير سياسى بناء على ثورة ثقافية أو مذهبية ، هى شيعية إسماعيلية فى حقيقتها ، لتغيير الأوضاع السائدة فى العالم الإسلامى ، وفى وقت كانت دولتهم قد ظهرت فى المغرب وأخذت طريقها إلى قلب العالم الإسلامى عن طريق مصر . مما يؤكد مقالة ديبور وغيره «إن الفلسفة قد انقلبت على يد إخوان الصفا إلى أحلام سياسة»[٣٩] .

(ب) إذا كان الغرض السابق لمحتوى الرسالة المتخصص كافيا لإلقاء الضوء على طبيعة المعارف

الجغرافية فى رسائل إخوان الصفا ، فربما جاز لنا أن نشير إشارات سريعة إلى مواطن أخرى من الرسائل ذات أهمية خاصة فى هذا الصدد ، ولئن كانت رسالة الجغرافيا تهتم بالجوانب الطبيعية فإن النماذج التالية تبين اهتمام القوم بالجوانب الأخرى من الفكر الجغرافى :

١ - فمن ذلك ما تحتويه رسالة «الأسطرونوميا فى علم النجوم» من اهتمام بتركيب الأفلاك ، وعلاقات الكواكب ، وحركة البروج .. وسائر مسائل علم الهيئة ، التى يستدل بها - فى علم الأحكام - على الكائنات قبل كونها تحت فلك القمر(٤٠)، ولا ينكر تأثيرها على الأحوال الجغرافية وآثارها فى الكائنات أثناء حدوثها كما مر بنا فى رسالة الجغرافيا . وكثير ما تضمه الرسالة الفلكية يدخل فيما يعرف بالتراث الجغرافى بالجغرافيا الفلكية ، وهذه ناحية كان الإخوان - بحكم اتجاههم المذهبى - معنيين بها إلى حد كبير ، كحركة الكواكب وآثار كل من زحل والمشترى والمريخ والزهرة وعطارد والقمر على أحوال الأرض ، وسائر الكائنات والفاسدات تحت فلك القمر(٤١).

٢ - ومن المواضع الهامة أيضا ما تتضمنه الرسالة الرابعة من المجلد الثانى الخاص بالقسم الطبيعى ، وهى تتناول الآثار العلوية أو الظواهر الجوية ، فتدرس آثار حركة الكواكب على الجو بوجه عام(٤٢) وتكون الأبخرة والسحب والبروق والرعود وقوس قزح(٤٣)، ثم يتناول ظواهر الأمطار ، والشهب، والمذنبات ، مما يدخل فى ميدان الجغرافيا الطبيعية(٤٤) ، مع تعرض فى أثناء ذلك لبعض الآيات القرآنية وتأويلها على نحو خاص مما يتعلق بالرجوم والشهب(٤٥) ، وهى لا تخلو من مغزى علمى ومذهبى .

٣ - وربما كانت الرسالة الخامسة من المجلد الثانى - الطبيعيات - الخاصة بتكوين المعادن ذات أهمية فيما نحن بصدده ، غير أن الرسالة الثامنة من نفس المجلد هى أكثر أهمية فهى تتناول مسائل تدخل فى الجغرافيا الحيوية من أحوال النبات والحيوان(٤٦) ، واختلاف حيوان كل جهة عن حيوان الأخرى بسبب البيئة وغيرها(٤٧) ، وتصنيف الحيوانات على أساس مرتبتها من التطور ونوع حركتها ومناطق وجودها(٤٨) ، وكذا الطيور وأحوالها المختلفة التى حظيت بعناية ملحوظة(٤٩) أيضا ، إلى آخر ما تتضمنه الرسالة من أدب جغرافى ذى أهمية موضوعية وتاريخية فى وقت معا .

- ٣ -

لعلنا بعد العرض السابق لمعالم ما تحويه « الرسائل» من أدب جغرافى ، نستطيع أن نستخلص سمات عامة لهذا الأدب ، وأن ندلى بكلمة تقويمية حوله ، مع التحفظ الواجب على قارئ غير متخصص مثلى لهذه الموسوعة المعرفية ، حتى ولو استهدى بآراء المتخصصين :

١ - لا ينكر أحد من الباحثين - فى مدى علمى - الأهمية البالغة لإخوان الصفا كظاهرة ثقافية ، وللرسائل التى كتبوها كأثر علمى متميز ، وذلك على مستوى تاريخ الأفكار العلمية والفلسفية والتطور الثقافى العام ، وإن اختلفت كلمتهم فى قيمة هذه الرسائل وما تحتويه من مادة علمية من حيث الدقة أو الطابع الإبداعى . وقد يمثل هذا الرأى المزدوج قول كراتشكوفسكى عن الرسائل وأصحابها كمؤرخ للفكر الجغرافى العربى : « .. فيما عدا القسم الخاص بالجغرافيا ، فإن المعطيات الجغرافية تتناثر فى بقية الرسائل وهى لا تخلو من أهمية فى بعض الأحيان رغما من أنها قليلا ما تتميز بالأصالة ... وفى الأعوام العشرة الأخيرة فقط ، عندما وضحت طبيعة علاقتهم بحركة الإسماعيلية أصبح فى حيز الإمكان فهم أفكارهم ، داخل الإطار العام للقرن العاشر . أما بالنسبة للأدب الجغرافى - وذلك فى مفهومه المستعمل فى هذا الكتاب - فإن هذه الرسائل ترتبط به ارتباطا غير مباشر ، لكنها لا تخلو من أهمية فى تحديد مدى الاهتمام بالجغرافيا ؛ لأنها تمثل أثرا ممتازا فى نطاق التاريخ الثقافى لذلك العصر»(٥٠) .

٢ - أشرنا فيما سبق إلى موقف إخوان الصفا من الفلسفة ، والفلسفة اليونانية بوجه خاص والأفلاطونية المحدثة بوجه أخص ، ويبدو أن هذا الموقف ألقى بظلاله على بحوثهم الجغرافية ومصادرها ، وربما جاز لنا أن نعود مرة أخرى إلى كراتشكوفسكى : « أحاطت رسائلهم بجميع المعارف التى كانت سائدة فى ذلك العصر .. مع جنوح إلى المذهب اليونانى ، واختيار المادة عندهم يتخذ طابعا انتقائيا ملحوظا ، فالأساس عندهم هو الثقافة اليونانية والعلم اليونانى ، ولكن يبصر لديهم بوضوح أيضا نفوذ الثنائية الغنوصية .. وفى صلتهم بالعلم اليونانى .. فإن أرسطو كان يأتى عندهم فى المرتبة الثانية عند مقارنته بهرمس وسقراط وأفلاطون وفيثاغورس.. »(٥١) ،وقد مر بنا فيما نقلناه من نصوصهم إحالتهم قارىء الرسائل على بطليموس ، على أنه من المعروف أن لنظرية الفيض الأفلاطونية أثراً بالغا فى العقائد الإسماعيلية سبق الإلماح إليه .

٣ - أيا كانت قيمة الرسائل من الناحيتين العلمية والفلسفية فقد مارست تأثيرا واضحا على معاصريهم وعلى العصور التالية ، وفى الفصل الهام الذى كتبه ديبور عن الفلسفة والعلم عند إخوان الصفا أثبت تأثيرهم حتى على خصومهم من أهل السنة [٥٢] ؛ وهذا ما يشاركه فيه باحثون آخرون[٥٣] . ويبدو أن شهرة الجماعة قد تجاوزت « بسرعة فائقة حدود موطنهم .. بل حدود الأدب العربى بمعناه الضيق . فمنذ نهاية القرن العاشر نشر تعاليمهم بالأندلس مسلمة المجريطى (إقليدس الأندلس) . وفى القرن الثالث عشر وقع تحت تأثيرهم الكاتب السريانى يعقوب بن ساويروس .. وفى القرن الرابع عشر نقلت رسائلهم إلى الفارسية فى دولة تيمور . كما أن أجزاء متفرقة منها وجدت طريقها إلى أوربا الوسيطة . ويرجع الفضل فى تعريف الدوائر العلمية المعاصرة بهم إلى (ديتريتشى) الذى أفرد لهم أكثر من عشرين بحثا فى ترجمة وتحليل معظم الرسائل ...[٥٤] وينوه بعض الباحثين بأثرهم على بعض البحوث الجغرافية عن المسلمين ، كالجغرافيا الحيوية والجغرافيا الطبيعية بالإضافة إلى الجغرافيا الإقليمية[٥٥] .

٤ - وأخيرا ، فإن جغرافيا إخوان الصفا لا تخلو من مسحة مذهبية ظاهرة ، سواء فى التفسيرات غيرّ العلمية لأثر الكواكب التى ربما ترجع إلى نظرية الفيض الأفلاطونية أو ما يشبهها من عقائد إسماعيلية [٥٦] ، أوفى الطابع الدعوى الذى يتخلل الرسائل وتوظف من أجله المعارف العلمية[٥٧] ، أو فى عنايتهم بما يدخل فى باب الجغرافيا الثقافية أو الدينية كالاختلافات الواقعة بين الأديان المختلفة ، وبين طوائف المسلمين «ومنها اختلاف فى ألفاظ التنزيل كالذى بين القراء ، ومنها اختلاف فى المعانى كالذى بين المفسرين ، ومنها اختلاف فى أسرار الدين وحقائق معانيه الخفية كالذى بين المقلدين [= أهل السنة] والمستبصرين [=الإسماعيلية] ، فيها اختلاف فى الأئمة الذين هم خلفاء الأنبياء كالذى بين الشيعة ، ومنها اختلاف فى أحكام الشريعة وسنن الدين كالذى بين الفقهاء..»[٥٨] وهو تقسيم جيد لهذه الأوضاع فى عصرهم بصرف النظر فى تطبيقه ، وقد نجد محاولة شبيهة بذلك بل أكثر تفصيلا عند المقدسى[٥٩] المعاصر لكتاب «الرسائل» ، وتلك ناحية هامة نحن فى أمس الحاجة إليها فى دراسة أحوالنا العقلية مع تحديثها حينا بعد حين .

لكننى إن كنت قد بلغت بعضا مما حددته من أهداف فى مطلع هذا البحث فإنى أعترف بأنى لم أحقق مطمحا شخصيا كان ضمن دوافعى إلى القيام به وهو معرفة «الجزر الاثناعشر» التى قسم الإسماعيلية العالم إليها فى تنظيماتهم لمؤسسة الدعوة التى فاقت تنظيم أقوى الدول المعاصرة لشئون دعايتها ، كما يقرر أحد أكبر الخبراء فى الموضوع ، وهو المرحوم الدكتور محمد كامل حسين ، الذى قال: «تحديد الجزائر لم يزل سراً لم يستطع الباحثون الوصول إليه»(٦٠) ، وذكر أن محاولة إيفانوف فى هذا الصدد لم تنته إلى شىء محدد(٦١). وربما كان فى ذلك بعض العزاء لى شخصيا .

وآخر دعوانا - على كل حال - أن الحمد لله رب العالمين .

حسن الشافعى

عضو المجمع

المراجع

١- محمد غلاب : إخوان الصفا ، القاهرة ١٩٦٨ م ، ص ٩

٢ - محمد محمود محمدين : التراث الجغرافى الإسلامى ، ط ثانية ، الرياض ١٤٠٤ هـ ، ٢٧٠ - ٢٧١ .

٣ - محمد غلاب (مرجع سابق) ص ١٢.

٤ - جبور عبد النور : إخوان الصفا ، دار المعارف بالقاهرة ، ط ٤ ، ١٩٨٣ م ، ص ٢٦.

٥ - أجناس جولد تسيهر : العقيدة والشريعة فى الإسلام ، ترجمة محمد يوسف موسى وآخرين ، دار الكاتب المصرى بالقاهرة ، ١٩٤٦ ، ص ٢١٣ .

٦ - ديبور ت . ج : تاريخ الفلسفة فى الإسلام ، ترجمة د . محمد عبد الهادى أبو ريدة ، القاهرة ١٩٣٨ . ص ١١٣ .

٧ - كراتشكوفسكى أ . ى : تاريخ الأدب الجغرافى العربى ، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم ، لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة ، ١٩٥٧ ، ٢٢٦/١

٨ - إخوان الصفا : الرسالة الجامعية ، ط بيروت ، ١٩٥٧ ، ٤١ - ٤٩ ، ٢٠١ - ٢٢٠ .

٩ - عارف تامر . حقيقة إخوان الصفا وخلان الوفا ، المطبعة الكاثوليكية بيروت ، ط أولى ، ص ٦ وما بعدها .

١٠ - ديبور ت . ج : مرجع سابق .

١١ - هو الدكتور محمد غلاب : انظر كتاب (إخوان الصفا) ، ص ٤ .

١٢ - مدكور - إبراهيم بيومى : فى الفلسفة الإسلامية منهج وتطبيق ، الحلبى بالقاهرة ، ١٩٤٧ ، ٩٥/١ ، وانظر أيضا : حسن الشافعى : كتاب المبين للآمدى ، وهبه بالقاهرة ١٩٨٣ م ، ص ٣١ .

١٣ - رسائل إخوان الصفا ، دار صادر بيروت بدون تاريخ ، ١١/١ .

١٤ - السابق : ١٥٧/١ وقارن ٣٦/٤.

١٥ - السابق ٦/١ .

١٦ - انظر كراتشكوفسكى (مرجع سابق) ، ص ٢٢٧ .

١٧ - محمد محمود محمدين (مرجع سابق) ص ١٥ ، وقارن ص ١٣ .

١٨ - الرسائل ١/ ١٥٨

١٩ - السابق ١٥٨/١ - ١٥٩ .

٢٠ - السابق ١٦٣ .

٢١ - السابق ١٦٢ .

٢٢ - السابق ١٦٣ .

٢٣ - السابق ١٦٥ .

٢٤ - السابق ١٦٦ .

٢٥ - السابق ١٦٧ .

٢٦ - السابق ، وقارن ديبور (مرجع سابق) ٩٧ - ٩٨ .

٢٧ - انظر محمد محمود محمدين (مرجع سابق) ص ٢٧٠ .

٢٨ - السابق ٢٦٩ .

٢٩ - الرسائل ، ١٦٨/١ .

٣٠ - السابق .

٣١ - السابق ١٦٩ .

٣٢ - السابق ١٧٠ .

٣٣ - السابق ١٧٠ - ١٧١ .

٣٤ - السابق ١٧١ .

٣٥ - السابق ١٧١ - ١٧٢ .

٣٦ - السابق ١٨٠ .

٣٧ - السابق ١٨٢ .

٣٨ - ديبور (مرجع سابق) ص ٩٦ .

٣٩ - الرسائل ١١٤ .

٤٠ - السابق ١/ ١٢٠ - ١٥١ .

٤١ - انظر الرسائل ٦٧/٢ - ٧٢ .

٤٢ - السابق ٧٣/٢ - ٧٨ .

٤٣ - السابق ٧٩ - ٨٦ .

٤٤ - السابق ٨٢ - ٨٣ .

٤٥ - السابق ١٧٨ - ١٨٣ .

٤٦ - السابق ١٨٤ - ١٨٦ .

٤٧ - السابق ١٨٦ - ١٩٧ .

٤٨ - السابق ١٩٨ - ٢٠٣ .

٤٩ - كراتشكوفسكى (مرجع سابق) ٢٢٨ - ٢٢٩ من القسم الأول .

٥٠ - السابق ٢٢٧/١ وقارن بالرسائل ١٥٧/١ ، ١٧١ .

٥١ - ديبور (مرجع سابق) ١١٢-١١٣.

٥٢ - كراتشكوفسكى ٢٢٨/١ ، محمدين (مرجع سابق) ٢٧١ - ٢٧٤ ، ضياء الدين علوى س . م : الجغرافيا العربية ، ترجمة يوسف الغنيم وطه جاد ، ط الكويت ، ١٩٨٠، ص ٢٠٤ .

٥٣ - كراتشكوفسكى ١/ ٢٢٨ .

٥٤ - محمدين (مرجع سابق) ٢٧٢ - ٢٧٥ ، علوى : الجغرافيا العربية (مرجع سابق) ٢٠٤ .

٥٥ - محمدين (مرجع سابق) ٣٧٨ .

٥٦ - راجع ما سبق فى هذا البحث ، وانظر الرسائل ١/ ١٨٠ - ١٨٢ .

٥٧ - الرسائل ٣/ ٤٨٨ .

٥٨ - محمدين (مرجع سابق) ١٣٤ .

٥٩ - محمد كامل حسين : طائفة الإسماعيلية ، مكتبة النهضة المصرية بالقاهرة ، ١٩٥٩ م ، ص ١٢٣ .

٦٠ - السابق .

الأعلام الجغرافية عند الطهطاوى

للأستاذ الدكتور محمود فهمى حجازى

أولاً : الإطار العام :

١ - تعد كتب رفاعة الطهطاوى (١٨٠١ - ١٨٧٢) - رائد الفكر العربى الحديث - مصدرا مهما لتعرف قضايا اللغة العربية فى بداية النهضة الحديثة فى عدد كبير من المجالات . إن مؤلفاته ومترجماته وتعليقاته تقدم لنا مادة وفيرة لبحث الأعلام الجغرافية من الجوانب اللغوية والمعرفية المختلفة . ويركز هذا البحث على هذا الموضوع فى ضوء ثلاثة كتب للطهطاوى ، أقدمها «قلائد المفاخر فى غريب عوائد الأوائل والأواخر» (القاهرة ١٢٤٨ هـ - ١٨٣٢ م) نصه المترجم من الفرنسية إلى العربية فى ١١٢ صفحة وألف له الطهطاوى سابقة مطولة فى مائة وخمس صفحات ، تضم معلومات عن البلدان والشعوب . وكان الطهطاوى على وعى بأنه فى مرحلة تحول لغوى مهمة صنع هذه الصفحات وحدد عمله فيها بإنه « شرح الكلمات الغربية التى توجد فى كتاب قلائد المفاخر فى غريب عوائد الأوائل والأواخر ، مرتبة على حروف المعجم مضبوطة حسب الإمكان ومفسرة على الوجه الأتم سواء كانت أسماء بلدان أو أشخاص أو أشياء .

ولما كانت هذه الألفاظ فى الأغلب أعجمية فلم ترتب إلى الآن فى كتب اللغة العربية ، وكان يتوقف فهم هذا الكتاب عليها عربناها بأسهل ما يمكن التلفظ به على وجه التقريب ، حتى إنه يمكن أن تصير على مدى (فى الأصل : مدا) الأيام دخيلة فى لغتنا كغيرها من الألفاظ المعربة عن الفارسية واليونانية » (ص ٢) ، وهنا نجد وعى الطهطاوى بأهمية معرفة الألفاظ التى وصف أكثرها بأنه دخيل ومعرب وضرورتها لفهم الكتب الحديثة جعل من واجبه أن يحصرها ويشرحها .

كان الطهطاوى مدركا فى الوقت نفسه لطبيعة عمله اللغوى فى هذا المجال ، فهو يقوم لبنة فى صرح معجم العربية عبر القرون من خلال إضافات مهمة ، كتب الطهطاوى : ولو صنع المترجمون نظير ذلك فى كل كتاب ترجم لانتهى الأمر بالتقاط سائر الألفاظ المرتبة على حروف الهجاء ونظمها فى قاموس مشتمل على سائر غريب الألفاظ المستحدثة التى ليس لها مرادف أو مقابل فى لغة العرب أو الترك ، فإن هذا يفيد التسهيل على الطلاب وبه تحصل

ألقى هذا البحث فى الجلسة العاشرة بتاريخ ٤ من ذى القعدة سنة ١٤١٥ هـ الموافق ٤ من أبريل (نيسان) سنة ١٩٩٥ م

الإعانة على فهم كل علم أو كتاب » (٢) . وهذه الفكرة ظلت أمام الطهطاوى فى عدد من كتبه ، فهو مدرك لكونه فى مرحلة جديدة فى تاريخ العربية ، وأن إكمال المعاجم العربية بالجديد يمكن أن يتم من خلال حصر الألفاظ المستحدثة تمهيدا لعمل معجم شامل لها أطلق عليه الطهطاوى اسم «قاموس» وهى الكلمة التى استقرت بعد ذلك إلى جانب كلمة معجم تسمية لهذا النوع اللغوى من الأعمال المرجعية.

٢ - يمثل البعد الجغرافى أهمية خاصة فى مقدمة كتاب «تخليص الإبريز فى تلخيص باريز» (القاهرة ١٨٣٤) للطهطاوى إلى جانب البعد التاريخى الحضارى والبعد المتصل بتاريخ العلم ، خصص الطهطاوى الباب الثالث من المقدمة « فى ذكر وضع البلاد الإفرنجية ونسبتها إلى غيرها من البلاد » (طبعة حجازى ص ١٥٣) ، وهنا نجد صفحات تضم معلومات جغرافية عن القارات ، ويسميها الطهطاوى الأقسام (ص ١٥٣ - ١٥٧) وفى سياق تفصيل المعلومات عن فرنسا نجد الطهطاوى يشرح بعبارته عددا من الأعلام الجغرافية شرحا مفصلا من الجوانب اللغوية إلى جانب تدوينة لمئات الأعلام الجغرافية حتى إن الكشاف المعجمى الذى أضيف فى أحدث الطبعات يضم أكثر من خمسمائة علم جغرافى وردت فى صفحات الكتاب .

٣ - ترتبط ريادة الطهطاوى فى الجغرافيا بترجمته لكتاب كبير ، هو «الجغرافية العمومية» تاليف ملطبرن ، وهو عمل كبير ذو أهمية فى دراسة الأعلام الجغرافية من الناحية اللغوية . ولما كان الكتاب قد تناول الكشوف والقارات والدول والنظم والأصول التاريخية وغير ذلك فقد وردت به آلاف الأعلام الجغرافية والأسماء المختلفة لأماكن كثيرة على مدى القرون . وهذه المادة لها أهميتها فى التاريخ اللغوى ، وعلى وجه الخصوص من ناحية المعرفة بالاسم العربى والمقابل الأوربى وكذلك من ناحية المعرفة بالاسم القديم والاسم الجديد مما يفيد - أيضا - فى جانب من علم اللغة ، وهو تاريخ المفردات العربية أو بعبارة أكثر تحديدا : التاريخ اللغوى للأعلام الجغرافية .

ثانيا: التأصيل التاريخى للأعلام الجغرافية :

١ - اهتم الطهطاوى بالتأصيل العربى لعدد من الأعلام الجغرافية التى لها ذكر فى التراث . نجد أمثلة لهذا كله فى أسماء الأماكن فى الأقطار العربية والبلاد المعروفة للعرب . يرد الطهطاوى الأعلام الجغرافية إلى

صيغها العربية فى التدوين بغض النظر عن صيغها الأوربية وليس ثمة مشكلة عنده فى رد الأسماء إلى صيغها العربية المألوفه : حلب ، حماة ، بغداد ، تونس، عكا (تخليص ٢٠٠) ، صور (تخليص ١٤٥) . أما المناطق التى كانت معروفة للعرب ، ومنها أرمينية (تخليص ١٥٤) ، الهند (تخليص ١٥٥) ، قبرص (تخليص ١٥٤) ، جاوة (تخليص ١٥٩) ، فقد ذكرها الطهطاوى بأسمائها المألوفة فى التراث العربى .

٢ - التأصيل العربى لأسماء الأماكن فى الأندلس وصقلية :

شغل الطهطاوى بذكر الأعلام الجغرافية فى الأندلس وصقلية اعتمادا على الصيغتين العربية والأوربية . اسم صقلية ذكر بثلاث صيغ : صقالية ، صقلية ، صقيلية ، إلى جانب النص على أنها فى وقت الطهطاوى « شهيرة باسم «سيسيليا» بالمهملتين أو المعجمتين المكسورتين » (قلائد ٥٨) ، أما مدينة غرناطة فقد ذكرت بصغتين ، هما الاسم العربى «غرناطة» بتحريك الغين ، وبصيغة أخرى تقوم على أساس قاعدة تجنب البداية بصامتين ، فى مقابل Granada نجد : إغرناطة ، ويذكر فى شرحه لمعنى الكلمة : « وهى معربة من لغة إسبانيا عن إغرناطة التى معناها رمانة » (قلائد المفاخرة) ، وثمة أعلام للأماكن لها صيغة عربية واحدة اعتمدها الطهطاوى إشبلية أو أشبيلية (تخليص الإبريز) .

٣ - التاصيل العربى لأسماء الأماكن فى أقاليم أسيا والمحيط الهندى :

تشكل الأسماء فى جنوب شرقى آسيا موضوعا عنى به الطهطاوى ، وعن جزيرة سومطرا كتب : « وفى الكتب العربية يقال لها سبرمة بضم السين المهملة وسكون الموحدة وفتح الراء والميم فتاء تأنيث ، وقال بعضهم إنها مسماة فى كتب العربية سمندر بفتح السين والميم وسكون النون وفتح الدال فراء ، والظاهر جزيرة سمندر هى ما يسمى عند الإفرنج مدا غشقار بجزائر إفريقية » (قلائد ٥٤) ، أما الجزر التى عرفها الرحالة والتجار العرب فحاول الطهطاوى رد أسمائها إلى صيغتها العربية عن اسم جزيرة سيلان كتب : « ثم إن بعض الإفرنج جعل هذه الجزيرة هى المشهورة فى كتب العربية باسم جزيرة سرنديب ..... (قلائد ٥٥) .

٤ - تأصيل أسماء الأماكن فى القارة الأوربية :

أصل الطهطاوى عددا من الأعلام الأوربية من ذلك اسم باريس « ومعناها فى اللسان القديم الفرنساوى سكان الأطراف والحواشى » (تخليص الإبريز ١٩٦) . وذكر الطهطاوى فى تأصيل كلمة «أولمبقية» أنها « نسبة إلى أولمبيا مدينة من مدن الموراكان اليونان يعلنون بقربها كل خمس سنوات لعبا مخصوصا » (قلائد المفاخر ١٣) .

ثالثا : القضايا الصوتية :

١ - طريقة الضبط :

اعتمد الطهطاوى العرف القديم فى الضبط بتسمية الحروف وحركاتها أو سكونها ، وعند تعدد صيغ الاسم يكتفى بضبط الصيغة المختارة أبريزيلة بسكون الموحدة وكسر الراء بعدها مثناة تحتية فزاى مكسورة فتاء تأنيث ، ويقال أيضا أبرزيلة وأبرزيل بفتح الراء » (قلائد ٢) .

٢ - الاعتماد على النطق الفرنسى :

أكثر اعتماد الطهطاوى بالنسبة للأعلام الجغرافية فى أوربا والعالم الجديد على الصيغة الفرنسية لها . كتب لندرة Londrès ، ولم يعتمد الصيغة الإنجليزية London واسم الإقليم الألمانى Schwaben نقل على أنه سوابيا بضم السين المهملة فواو بعدها ألف ، وقد يقال صوابيا أو صوابة بالصاد المهملة إقليم من أقاليم ألمانيا » وكل هذه الصيغ لا تبدأ بالشين الألمانية ، بل قامت على أساس الصيغة الفرنسية لعلم جغرافى ألمانى ، وكذلك اسم الشعب : ألمان وليس Deutsch وكذلك ريوجانيز (تخليص ١٥٧) .

٣ - تجنب البداية بصوتين صامتين :

البنية المقطعية للعربية تجعلها تتجنب البداية بصامتين على عكس لغات أخرى ، منها الفرنسية حيث يجوز بدء المقطع بصامتين ، كان الطهطاوى يحول هذا النمط إلى العربية باحدى طريقتين إضافة همزة وحركة قبل الصامت الأول أو إدخال حركة بين الصامت الأول والثانى :

- إبريزيل .... Brésil ... (قلائد ٢)
- إغرناطة .. Granada .. (قلائد ٥)
- فرانسا France (تخليص ١٦١ ، ١٧٦)
- برونسة ... Provence (قلائد ٢٧)

رابعا : تدوين الأصوات الأجنبية بالحروف العربية :

١ - تدوين صوت Q / C / K

هذا الصوت نقله السريان إلى القاف تجنبا لمشكلة الصورتين الصوتيتين للكاف فى السريانية ، فكانت صورتها الصوتية بعد أية حركة قصيرة أو طويلة تجعلها خاء ، وكان الحل المنشود يجعل تدوين صوت K / بحرف القاف العربية ، وقد استمر هذا العرف وأفاد منه الطهطاوى إلى حد بعيد ، وذلك مثل : موسقو (قلائد المفاخر ٢) ، قلقوطا (قلائد المفاخر ٧١) أو قيانوسية (تخليص الإبريز ٥١٤) قورسقة (تخليص الإبريز ١٨٠) ، نويرق (تخليص الإبريز ١٥٧) ، ولكن ثمة أمثلة لتدوين هذا الصوت بالكاف العربية : أمريكة (قلائد المفاخر ٢) ، (بلاد) مكسيك (تخليص الإبريز ١٥٧) . وهذا العرف الجديد بدأ محدودا عند الطهطاوى ثم استقر بعد ذلك .

٢ - تدوين صوت T :

هذا الصوت نقله السريان إلى حرف الطاء العربية تجنبا لمشكلة الصورتين لصوتين للتاء السريانية ، كانت صورتها الصوتية بعد الحركات تجعلها ثاء ، وتجنبا لذلك تم نقلها طاء ، وقد استمر هذا العرف عند الطهطاوى فى تدوين الأعلام الجغرافية : إيطاليا Italia ، طسكانة Toscana .

٣ - تدوين صوت G :

هذا الصوت نقله السريان إلى الغين تجنبا للخلط بين الجيم الاحتكاكية العربية الشمالية والجيم الشديدة العربية الجنوبية . ومن أمثلة استخدام هذا النظام عند الطهطاوى : البرتوغال (قلائد ٣٥) ، غرونلند (قلائد ٧) . ولكن هذا النقل لم يكن مطردا ، فقد استمر عنده تدوين ذلك الصوت بالكاف (اختصارا للكاف الفارسية) فى أمثلة أشهرها : إنكلترا وكذلك غينا ، كينا (قلائد ٦٤) . أما الكلمات التى نجد فيها حرف الجيم فقد نطقها الطهطاوى جيما فرنسية احتكاكية مثل جرمانية ®Germani (que (قلائد ٦) .

٤ - تدوين صوت V :

هذا الصوت الشفوى المجهور لا يوجد فى العربية وقد أفاد الفرس والترك من حرف الواو العربية لتدوين هذا الصوت ، واستمر ذلك العرف عند الطهطاوى : بتاويا †Batavia(تخليص ١٥٧) ، بولوية Bolevia(تخليص ١٥٦) ، وكذلك البلوار Boulevards

٥ - تدوين صوت P :

كان الطهطاوى أول كاتب عربى حديث يحاول تقنين تدوين هذا الصوت الشفوى المهموس بالحروف العربية ، وجعل لذلك حرف الباء المثلثة ويسميها الباء الفارسية ، ولذلك نجد عنده ذلك التدوين فى (أوربا) وقد ضبط هذا الاسم « بضم الهمزة بعدها واو ساكنة فراء مضمومة ، فباء فارسية بعدها ألف » (قلائد المفاخر ص ١٠) ، ونجد هذا التدوين فى الأعلام الجغرافية : البروسيا (قلائد ١٠) ، يابونيا (أى اليابان ، قلائد ١١) أولمبيا (قلائد ١٣) ، وشبيه بهذا من خارج مجال الأعلام الجغرافية بابا رومة (قلائد المفاخر ١١) ، وقد اهتم الطهطاوى بطباعة هذا الحرف بالباء الفارسية أو الباء المثلثة ، وكأنها كانت قد أصبحت حرفا مستقلا فى صندوق الطباعة العربية .

٦ - تدوين الحركات القصار :

الحركات القصار فى الفرنسية لم يعبر عنها عندما نقلت بحروف عربية ، أصبحت الدلالة على الحركات القصيرة الأوربية مرتبطة بالفتحة أو الضمة أو الكسرة فى العربية : نرماندیا Normandie (تخليص ١٧٧) ، مسينة (تخليص ١٧٩ ، ١٨١) ، اسكريال Escorial (ملطبرون ١ / ١٤٣) .

خامسا : القضايا المعجمية :

١ - المصادر غير العربية للأعلام الجغرافية :

أفاد الطهطاوى من عدد كبير من الأعلام الجغرافية ذات الأصول الفارسية والتركية : قابولستان (قلائد المفاخر ٦) ، وكذلك : وبلوجستان ، عجمستان (قلائد المفاخر ١١) ومنه أيضا : إفرنجستان (تخليص الإبريز ١٥٤ ، ١٦٦) ، وإلى جانب أسماء الأعلام المتداولة فى العربية والتركية والفارسية نجد الطهطاوى يستقى أسماء الأماكن الأخرى من لغات أوربية ، اعتمد الطهطاوى الصيغة الفرنسية لعدد كبير من أسماء الأعلام ، من ذلك اسم أكبر دولة فى العالم الجديد : إيتازونيا أو إيتازونى (قلائد المفاخر ١٤) ، ويتضح من ضبطه للكلمة أنه يفضل الصيغة الأخيرة الأقرب إلى الصيغة الفرنسية Etats unis، وقدّم فى سياق الشرح أنها

« دولة مركبة من عدة أقاليم مجتمعة » وبعض أعلام الأماكن معتمد على الصيغة الإيطالية ، من ذلك الأسماء : إيطاليا Italia سردانيا Sardinia طسكانة Toscana ، نابولى Napoli .

٢ - تعدد صيغ الاسم الواحد :

التعدد فى صيغ الاسم الواحد ظاهرة تكرر فى عدد كبير من الأعلام الجغرافية « عن مدينة باريس كتب الطهطاوى : تسمى عند الفرنسيس بارى ... ثم إن العرب والترك ونحوهم يكتبون باريس أو بريس أو باريز ، وربما قالوا فارس (تخليص الإبريز ص ١٩٥) وبعض أسماء الأماكن مكتوب على نحو متعدد الصيغة ، فى مادة : أسوج : « وربما سميت بلاد السويد أو بلاد سويج أو بلاد أسويجة (قلائد المفاخر ٥) .

وإلى جانب هذا نجد وحدات معجمية تكونت على أساس الصيغة الأوربية ، وهى صيغ نسب ترجع إلى الصيغة الفرنسية ، ثم تلحق بها ياء النسب العربية ، وبذلك تنشأ صيغة تحمل نهايتى النسب الفرنسية والعربية ، ومن ذلك صيغة بارزيانى (تخليص ١٩٥) المكونة من Paris + ien ثم ياء النسب العربية . ومثل هذا فى صيغة النسب بريطانيقية (قلائد ٨) المكونة من Britannique ثم ياء النسب العربية ، وفى المثالين نجد النهاية الفرنسية ثم النهاية العربية . ومن ذلك أيضا : الأطلنطيقى Atlantique (تخليص ٥١٥) ، وهكذا اعتمدت هذه الكلمات على الصيغة الأوربية كاملة ثم أضيفت إليها ياء النسب العربية .

وبعد ، فإن من أهم ما يمكن عمله فى مجال التاريخ اللغوى للأعلام الجغرافية جمع كل أسماء الأماكن المذكورة فى كتابات رواد النهضة الحديثة ، مع كل الجوانب اللغوية الخاصة بالتدوين والتأصيل والدلالة وغير اللغوية الخاصة بالموقع والتاريخ والشعوب وغير ذلك مماورد فى كتاباتهم وترجماتهم وتعليقاتهم هذا كله فى سبيل إعداد معجم لغوى تاريخى للأعلام الجغرافية ، تتعدد مصادره بين المعاجم العربية العامة وكتب الجغرافيين وكتب الرحالة والمؤلفات والمترجمات الحديثة .

محمود فهمى حجازى

الخبير بالمجمع

السودان

مفهومه . حدوده . وأسماؤه . وعواصمه . ولغاته

للأستاذ الدكتور حسن الفاتح قريب الله

أصالة السُّودان

السُّودان كغيره من كثير من بلاد العالم ذو تاريخ طويل إن لم نقلْ أطول من غيره وأقدم ، كما كان يتَبنَّى ذلك ديودوروس Diodorur [١] الذى وصف سكان السودان بأنّهم أولُ الخلق على ظهر الأرض [٢] .

وأهْل السودان هم أهل حضارةٍ عريقة كانت تجرى مجرى النيل [٣] ، عليها دلّت الآثار ، وبها اعترف المنْصفون من العلماء الكبار [٤] ، علمًا بأنّ بلادهم لم يُكوِّنْها النيل بما يحمل إليها من طمْى كما هو الشأن فى مصر التى نزح إليها سكّانها من الخارج طمعًا فى الاستقرار ، ورغبة فى الاستفادة من خصوبتها والاستثمار لأمكانيّاتها [٥] .

كان سكانُ السودان من الوعْى بحيث عبدوا الإله الواحد ، وامتلك حبه لقلوبهم [٦] وهم وإن أفْسد الغير عقيدة بعضهم فى توحيده فقد تميزوا بالولاء له ، وبزُّوا فى التفنّن فى وسائل مرضاته مما جعلهم على مر العصور هداة

ألقى هذا البحث فى الجلسة العاشرة من مؤتمر المجمع بتاريخ ٤ من ذى القعدة سنة ١٤١٥ هـ الموافق ٤ من أبريل (نيسان) سنة ١٩٩٥ م

١ – مؤرخ إغريقى عاش وكتب فى القرن الأول قبل الميلاد .
٢ – تاريخ السودان بلندورص ١٧/ ٤٠ ، ورابع الجواهر الحسان فى تاريخ الحبشان ص ز .
٣ – بلاد النوبة فى العصور الوسطى لمؤلفه بسبل . شني طبع ١٩٥٤ م
٤ – السودان بلاد الرقى والحضارة والدين للبروفسير حسن الشيخ الفاتح .
٥ – تاريخ السودان لمندور المهدى ص ٤٠
٦ – مرت الأديان فى كل العهود بمراحل :

أولها : دور العقيدة النقية التى نادى بها سيدنا آدم أبو البشر عليه السلام ، وهى دين الفطرة التى فطر الله الناس عليها .

الدور الثانى : دور الرموز والطقوس ، وهو دورٌ وُضعت فيه الحقائق خلف الستور والحجب لكى تظل الاسم تحت تأثير السرية الكهنوتية ، وسيطرة الكهنة والمتاجرين بقضايا الدين .

الدور الثالث : هو دور الفترة أوْ طور امتوز الدينى وظهور الشرك ، فى ضروبه ودروبه الخفية المستترة والظاهرة الواضحة .

الدور الرابع : هو دور التجديد وهو الدور الذى يجدد أمه وفيه لكل أمة نذير سواء أكان نبيا فقط أو نبياً رسولاً .

الدور الخامس والأخير : هو دور الصّحوة وهو الدور الذى سَبق ختمْ الرسالات ولم يبق للأمم فيه خيرٌ إلا بالتأسى بالمجددين وسلوك نهج الصالحين (راجع عن بعض ماذكرمن أطوار كتاب أثر العقيدة فى منهج الفن الاسلامى لمصطفى عبده) طبع دار الأشواق ببيروت سنة ١٤١٠ هـ - ١٩٩٠ م

لغيرهم [٧] ، وإن اختلف كنه تلك الهداية باختلاف التيّارات الفكرية ، والأديان ، والأهواء ، والثقافات التى وردت عليه .

وقد عرف السودانيون كذلك التجارة الدولية [٨] ، وعرفوا القوانين واستنوها ، وعملوا بها وحكموها فى مختلف شئونهم [٩] وعرفوا الصناعات المختلفة التى تدلُّ على التقدم المطّرد فى المستوى الحضّارى وارتفاع مستوى المعيشة مثل الأقمشة والمنسوجات وأدوات الزينة والزجاج وأطباق الذهب والفضّة والنحاس والأسلحة - وعرفوا أيضًا وحدة اللغة وتبنوا خلال فترة معينة الهيروغليفية منها والإغريقية والقبطية والهندية ، وأشاعوها لدى غيرهم [١٠] ، وبنوا القصور وأشادوا الأهرامات التى بدأتْ بداية طبيعية فى كبوشيه ومروى وكريمة ، والكرو ثم تدرجت إلى أن تمثّلت فى الهرم الأكبر الذى يُعتَبر امتداداً لأرض النوبة ، وجزءاً من أجزاء الوطن خلال الحقبة السابقة للبعثة المحمدية [١١] .. وعرف السودانيون كذلك المعابد وشيّدوا لها المبانى فى مروى والكرو وصاونقا وصرصْ وبوهين ، وغيرها [١٢] ، وأنشأوا لأنفسهم حكومة قومية فى القرن الثامن قبل الميلاد [١٣] .

وكانت بعض القبائل التى تقطن السودان قد اختارت عمداً ضفاف الأنهار لها سكنًا ليُسْرالحياة الإنسانية بجواره ، علما بأنه لمّا كان الطقس بتلك الأماكن وغيرها حارا ، فقد اسودّتْ بشرتهم ، أو احترقت [١٤] فوصفهم كتاب العرب بالسودانيين [١٥] ،

---

٧ - التصوف فى السودان لحسن الفاتح نشر كلية الدراسات العليا بجامعة الخرطوم سنة ١٩٨٧ م .
٨ - الموانى السودانية ص ٦
٩ - تاريخ السودان ص ٤٠
١٠ - تاريخ السودان ص ٤٠/ ٥٠، والفهرست لابن النديم ص ٢٨ والموانىء ص ٥٨ .
١١ - أطلس تاريخ الإسلام للدكتور حسين مؤنس ص ٤٦/٤٧ ، خرائط رقم ٢٩/٣٠/٣١ (صورة مرفقة) .
١٢ - تاريخ السودان لشقير ص ١٦
١٣ - تأريخ السودان ص ٧ ، والمسالك والممالك ص ٥
١٤ - مقدمة ابن خلدون ، هذا ومع أن لونهم إلى السمرة الشديدة أقرب فقد عدّهم أهل التاريخ من الجنس الأبيض راجع الجواهر الحسان فى تأريخ الحبشان لأحمد الحفنى ص . (و) طبع بولاق . مصر سنة ١٣٢١ هـ
١٥ - السودان جمع أسود (لسان العرب المجلد ص ٢٢٤طبع ١٩٥٥ م)

أو الأحباش [١٦] ، وأطلق اليونانيون عليهم لفظ الأثيوبيين [١٧] ، وسمَّاهم العبرانيون بالكوشيين [١٨] .. وهى أوصاف أربعة ذات مفهوم واحد وهو السواد أو الوجه المحترق .

مفهوم لفظ (السُّودان) عند العرب :

لقد كان السودان حسب مفهومه الحالى - يضم فيما مضى أجناسا من البشر وأشتاتا من القبائل [١٩] وهو بحكم مجاورته للجزيرة العربية كان معروفاً لدى سكانها ومشهوراً بين أبنائها . وكان الاسم الذى يطلق عليه لا يندرج عن تسمية المحل باسم الحال وإلباس القطر ثوب السكان .

وللتدليل على ذلك ، أذكر ما جاء فى كتابات المؤلفين فى الفترة ما بين (٢٥٥ هـ/٨٦١ م - ٢٧٤ هـ/١٤٦٩ م) .

أ - الجاحظ :

كتب الجاحظ المتوفى (سنة ٣٢٥ هـ / ٨٦٨ م) رسالة أسماها (فخر السودان على البيضَان) تحدَّث فيها عما للأولِ من فضَائل ومزايا وما للآخرين من رذائل وخطايا ونحن الآن لايهمُّنا مناصرة الجاحظ أو مناكفته بمقدار ما يهمنا هذا العنوان الذى أطلقه على رسالته ، وتلك المقارنة التى عقدها بين السودان والبيضان ..فعنوان الرسالة وما جاء فيها مما يفيده - لا يمكننا أن نفهم منه إلا أحد الأمور الآتية :

١ - إمَّا أنه أراد الاسمية من لفظى السودان والبيضان ، فيصحُّ الأول ويبطل الثانى ، إذ لا بلد تُسَمَّى بهذا الاسم .

٢ - وإمَّا أنه لم يرِد الاسمية من كليهما -

---

١٦ - حبش يحبش إذا اسود : قال فى اللسان الحبش جنس من السودان سموا بذلك لاسود ادهم وقيل هذه الجماعة أيًا كانوا لأنهم إذا تجمعوا اسودوا وقال أيضًا ناقة حبشية شديدة السواد . قال فى الطراز المنقوش . محاسن الحبوش لعلاء الدين محمد بن عبد الباقى المدنى المؤلف سنة ٩٩١ هـ . يرجع نسب جميع أجناس الحبوش إلى (حبش) بن كوش بن حام بن نوح عليه السلام ولذا تلحق بهم ياء النسب عند الإضافة فيقال حبشى وحبشية نسبة إلى جدهم حبش المذكور .

١٧ - إثيوبيا لفظ يونانى معناه الوجه المحترق .

١٨ - نسبة إلى كوش التى تعنى فى العربية الأسود راجع الفصائل اللغوية للدكتور محمود فهمى حجازى ص ١٩ بحث مقدم من لجنة اللهجات والدراسات اللغوية إلى مؤتمر مجمع اللغة العربية الدورة ٥٨ / وراجع مقالا للدكتور جعفر ميرغنى عن تذوق الجمال الأخضر نشر بجريدة السودان الحديث بتأريخ الثلاثاء ١٢ يوليو ١٩٩٤ م

١٩ - مقال للأستاذ العالم أحمد سليمان المحامى بعنوان القول الحق عن أصل سيدنا موسى ﷺ .

وهو عبث لا يليق بكاتب عادى ، بَلْه من هم فى مثل مستواه العلمى والأدبى .

٣ - وإمَّا أنه أراد الاسمية من لفظ السودان دون البيضان فتفوت المقابلة وتذهب المقارنة ، وهو إنما كتب الرسالة من أجلها وساق الحديث لتدعيمها ، بدليل أنَّه ضمَّن الرسالة من الاستشهادات مايأتى :

(السودان أكثر من البيضان ، والصخر أكثر من الوحل ، والرمل أكثر من التراب والماء المالح، أكثر من العذاب) . (٢٠)

فإن لم يكن يعنى المقارنة ويقصد المقابلة ، فما قصده ؟! وإلام ترمى كتابته ؟

٤ - وإما أنه أراد بها الوصْفية وهدفَ بهما إليها ، وهو ما نزْعم استنادا على سبق من نَص ، واعتمادا على ما يعقب ذلك من مثل قوله (مناقب السودان أن لقمان الحكيم منهم) (٢١) وقوله : (وكذلك البيضان منكم لا يكادون ينشطون لطلب النسل من الزنجيات والزنجية أيْضًا من الزنج أسرع لقاحًا منها من الأبيض) (٢٢) .... وقوله (فإن كان اسم السود قد وقع علينا فنحن السودان الخُلَّصْ ، والعرب أشباه الخُلَّصْ) وقوله : (ومنَّا العرب لا من البيضَان تقرب ألوانهم من ألواننا ، والهند أسمر ألوانا من العرب وهم من السودان . (٢٤)

ب - ابن واضح :

كتب ابن واضح (المتوفى سنة ٢٨٤ هـ / ٧٩٧ م) تحت عنوان (ممالك الحبشة والسودان) مايلى : (وكان له حام بن نوح ، قصدوا عند تفرق ولد نوح من أرض بابل إلى المغرب فجاوزوا عبر الفرات إلى مسقط الشمس وافترق ولد كوش بن حام - وهم الحبشة والسودان لما عبروا نيل مصر فرقتين) .

النص صريح إذن فى أن المقصود بلفظ السودان ليس البلد وإنما ساكنوها والمعمِّرون لها إذ أن الأرض ليست أحد أبناء كوش ، كما

---

٢٠ - الجاحظ : فخر السودان على البيضَان ص ٥٥
٢١ - فخر السودان على البيضان ص ٥٥
٢٢ - الجاحظ فخر السودان على البيضان ص ٧٤
٢٣ - نفسه ص ٧٢
٢٤ - نفسه ص ٧٦

أنها ليست مما يعبر النيل ، ولا مما يفترق فرقتين لجمودهما .

ج - ابن الفقيه :

كتب ابن الفقيه (المتوفى سنة ٢٩٠ هـ / ٩٠٣ م) مايأتي : (وأرض السودان مسيرة سبع سنين) . (٢٦)

والسودان في هذا النصّ مضاف إلى الأرض .. وإضافته للأرض تعني مغايرته لها إذ لابد بين المضاف والمضاف إليه من تغاير ، وإلا كانا شيئا واحدا .. وما دامت كتب اللغة، تفسّر الأرض بغير التقسيم الذي تفسر به السودان فذلك يفيد تغايرهما ، كما يقود بالتالي إلى ما ندّعيه إذ لا معنى فيها للسودان غير أنه جمع أسود (٢٧) .

د - الفارسي الكرخي :

كتب الفارسي الكرخي (المتوفى سنة ٢٩٨ هـ / ٩١١ م) مايأتي : غير أن بعض السودان المقاربين لهذه الممالك يرجعون إلى ديانة ورياضة وحكم) (٢٨) .

وبعض السودان المشار إليهم في هذا النص والموسومون بأنهم أصحاب ديانة ورياضة وحكم لايمكن أن يكونوا غير من نعنيهم نحن ، بدليل أنه قال عنهم فيما بعد : (وما بين براري السودان والبحر المحيط في الجنوب فقفر خراب) (٢٩) وقال : (فإن بلد السودان الذي في أقصى المغرب على البحر المحيط ، بلد مكتفٍ ليس بينه وبين شيء من الممالك اتصال ويلغني أنّ طول أرضهم نحواً من سبعمائة فرسخ في نحوها ، غير أنها من البحر إلى ظهر الوحات أطول من عرضها) (٣٠) .

أتراه يعني بالسودان هذه الأرض التي رسمت حدودها اتفاقية سنة ١٨٩٩ م/١٣١٧هـ وهي أرض أبعد ما تكون عن المحيط ، وعن تلك المساحة ؟ ..أم تراه يعني بها أرضا غير هذه ، وليس في النص ما يعيّن ذلك بل إن في النص ماينفي إرادته شيئا من ذلك ، فلقد أضاف كاتبه لفظ السودان إلى بلد ، وإلى براري والإضافة تعني المغايرة كما قلنا ،

---

٢٥ - ابن واضح : تاريخ اليعقوبي ج ١ ص ١٥٥
٢٦ - ابن الفقيه : مختصر كتاب البلدان ص ٥٩
٢٧ - لسان العرب المجلد الثالث طبع بيروت سنة ١٩٥٥ م ص ٢٢٤
٢٨ - الفارسي : المسالك والممالك ص (٥)
٢٩ - المسالك والممالك ص ٧
٣٠ - المسالك والممالك ص ١٠ ، ١١

وإلّا كان شيئا واحدا بمعنى بلد بلد ، وبرارى برارى ، أو بمعنى السودان السودان وهذا ما ليس مقصودا مما يؤدى إلى صحة الدعوى التى سُقْنا من أجلها الحديث .

هـ - ابن خرداذبة :

كتب ابن خرداذبة (المتوفى سنة ٣٠٠ هـ/٩١٣ م) ما يلى : (ومن سكن على النيل فإنّما هم ولد حام ، سودان ، وبربر ، وأقباط مصر ، وأحزامه) (٣١) فهو هنّا قد جعل السودان ، كما جعل الأقباط أحد أولاد حام ، وأولاد حام ليسوا أرضًا .. فإنْ كنّا نُصرّ مع ذلك على أنه أراد الأرض لا الشعب فليكن أقباط مصر كذلك أرضاً ، وهذا ما لا يقبله أحد .

و - الطبرى :

كتب الطبرى (المتوفى سنة ٣١٠ هـ / ٩٢٢ م) ما يلى : (وبالمغرب من السودان البجة والنوبة ، وأهل غانا الغافر ، وبينوب ، وود عيسى ، والقروية ، ويكسوم ، ومكاره وأكرم ، والحمس) (٣٢) .

لقد حافظ الطبرى كما ترى - على عطف سكان المغرب بالواو ، ولم يستثن من ذلك غير غانة فإنه قال عنها : وأهْل غانة .. واسْتثناؤه لغانة دون غيرها دليل على مخالفة غانة لغيرها فى الإطلاق ، ومادامت غانه اسمًا لأرضٍ ، فالبجة والنوبة ، وغيرهم ليسوا كذلك وهؤلاء أصْناف السودان والمكوِّنون له ، وإذا ماعلمنا أن الصنف لا يخالف أصله أمكننا أن نجزم بأن السودان هنا ليس اسمًا للأرض وإنما هو اسم لسكان أفريقيا ، أو المغرب كما فى هذا النص .

ز- المسعودى :

كتب المسعودى (المتوفى سنة ٣٤٥ هـ / ٩٥٦ م) ما يأتى : (ووراء علوة أمّة عظيمة من السودان) (٣٣) .. وكتب أيضًا تحت عنوان ذكر أمم السودان ، وأنسابهم واختلاف أجْناسهم وأنواعهم ، وتباينهم فى ديارهم وأخْبار ملوكهم ، مايأتى : (ولما تفرق ولد نوح فى الأرض ، صار ولد كوش بن نعمان نحو

---

٣١ - ابن خرداذبه : المسالك والممالك ص ٩٢
٣٢ - الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ج ١ ص ٥٢
٣٣ - المسعودى : مروج الذهب ومعادن الجوهر ج ٢ ص ٣٨٣

المغرب حتى قطعوا نيل مصر ثم افترقوا ، فصارت منهم طائفة مقيمين بين المشرق والمغرب وهم النوبة والبجة والزنج ، وصار فريق نحو المغرب ، وهم أنواع كثيرة نحو الزغاوة ، والكانم ، ومركة وكوكو ، وغانة ، وغير ذلك من أنواع السودان والدمادم) (٣٤) .. وقال : (وكذلك علة تكّون السودان فى بعض البقاع من الأرض دون البعض ، وتفلفل شعورهم ، وغير ذلك من مشهور أوصافهم) (٣٥) ... ففى النصوص السابقة تردد ذكر السودان غير ما مرة ، ففى الأول اعتبره نوعاً تتفرع منه الأمم وتتشعب من تحته الأنواع وهذا عين ماجاء فى النص الثانى وعنوانه .. وفى الأخير عده كذلك وبدأ يتكلم عن مراكز تجمعه وعلة تفلفل شعره ، وكل ذلك يعنى أنه إنما أراد الوصفية من اللفظ ولم يلتفت قط إلى ما يمكن أن يتحمله اللفظ فى مستقبل أيامه من اسمية للقطر .

وقد كرر المسعودى نفس المعنى فى كتاب آخر له فقال (فيخرج من هذه البطيخة نيل مصر فيقطع السودان) (٨٣) .. هذا وقد سبق أن ذكرنا مايجب أن يكون بين المتضايفين من تغاير فلا نعيد شيئا ذكرناه .

ح - البشارى :

كتب البشارى (المتوفى سنة ٣٥٦ هـ / ٩٦٦ م) مايلى : (وأما أرض السودان فإنّها تُتاخم هذه الأقاليم ومصر من الجنوب) (٨٤) والبشارى كسابقه المسعودى لا يفهم من السودان إلا خلاف ما يفهمه من الأرض بدليل إضافته هذه إلى تلك .

ط- ابن حوقل :

كتب ابن حوقل (المتوفى سنة ٣٦٧ هـ / ٩٧٧ م) مايلى : (غير أن بعض السودان المقارين هذه الممالك المعروفة يرجعون إلى ديانة وحكم (٨٥) وهو رأى سبق أن قاله الفارسى ، وناقشناه فيه ، فلا نرى سبباً لإعادة الحديث عنه (٨٦) ، غير أنّنا نُضيف أن متابعة ابن حوقل للفارسى فيه بالرغم من تأخره فى الزمن

---

٣٤ - نفسه ج ٤ ص ١-٢
٣٥ - نفسه ج ٤ ص ٨-٩
٨٣ - مروج الذهب ص ٥١
٨٤ - البشارى : أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ص (٢٤١) .

بالنسبة إليه تؤكد لنا أن اللفظ كان مايزال يحتفظ بمفهومه اللغوى حتى عهد هذا المؤرخ المذكور .

ى - ابن النديم :

كتب ابن النديم (المتوفى سنة ٣٨٠ هـ / ٩٩٠ م) تحت عنوان الكلام على السودان مايلى : (فأما أجناس السودان من النوبة والبجة ، والزغاوة ، والأشنان ، والبربر وأصناف الزنج ، سوى الشند فإنهم يكتبون بالهندية للمجاورة) (٨٧) .

هذا وعودة ابن النديم للتفصيل بعد الإجمال تؤكد لنا بأنه إنما يقصد من السودان هذا الوصف الذى كان يطلق على الشعب لا الاسم الذى أطلق فيما بعد على الأرض .

ك - ابن حزم :

كتب ابن حزم (المتوفى سنة ٤٥٦ هـ / ١٠٦٤ م) مايلى : (ثم أسلمت البجة وبقيت النوبة والحبشة خاصة دون سائر السودان منهم نصارى وهم الأكثر) (٨٨) .

فاستثناء ابن حزم لسائر السودان عمن ذكر ممن أسْلم ، يفيد أن مالم يُسلم من جنس هؤلاء وإلا لو كان أرضاً لما استقام المعنى إذ الأرض لا يتصور منها إسلام أو عدم إسلام حتى يصح لنا إدخالها أو إخراجها ممن أسلموا .

ل - صاعد بن أحمد :

كتب صاعد بن أحمد (المتوفى سنة ٤٦٢ هـ / ١٠٦٩ م) بعد أن عدد ثلاثًا من أمم العالم القديمة مايلى : والأمة الرابعة القبط ، وهم أهل مصر وأهل الجنوب وهم أصناف السودان من الحبشة ، والنوبة والزنج « وظنه » (٨٩) وغيرهم من أهل المغرب وهم البرابر ومن اتصل إلى بحر إقيانس الغربى والمحيط (٩٠) وقال : ومنهم من كان ساكنًا قريبًا من خط معدّل النهار وخلفه إلى نهاية المعمور فى الجنوب ، فطول مقارنة الشمس لسمت رؤسهم أسْخن هواءهم وسخّن جلودهم

٨٥ - ابن حوقل : صورة الأرض القسم الأول .
٨٦ - راجع ماتقدم .
٨٧ - ابن النديم : الفهرست ص ٢٨
٨٨ - ابن حزم : جوامع السيرة وخمس رسائل أخرى ص ٣٤٥
٨٩ - مابين القوسين زيادة تجدها فى ص ٩ من طبقات الأمم .
٩٠ - صاعد بن أحمد : طبقات الأمم ص٧

فصارت لذلك أمزجتهم حارة وأخلاطهم محرقة ، فاسودت ألوانهم وتفلفلت شعورهم ... مثل من كان من السودان ساكنًا بأقصى الحبشة والنوبة والزنج وغيرها (٩١) .

وبعد فها أنت ترى صاعداً الأندلسى قد فرّع أصناف السودان من عموم لفظ الأقباط ، وتفريعه له منه دليل على مماثلته له فيه ، إذ لا يُفرّع الشىء إلا ممّا : يماثله ، .. فإذا أضفنا إلى ذلك أنّه عاد ففرّع الحبش والنوبة وغيرهم من أصناف السودان أمكننا أنْ نجهر بأن لفظ السودان هنا لفظ عام ، ووصفٌ شامل لكل سكان الجنوب المشار إليهم فى النص .. يؤيد ذلك أنه فى النص الثانى بدأ فى تعليل هذه الصّفة التى تميزهم والقاسم المشترك الذى يجمعهم .، وهذا الصنيع منه يؤكد أنّ مفهوم اللفظ عنده كان مايزال عند أصل وضعه ، وإلاّ فلماذا اختار توجيه الحديث هذه الوجهة المخصوصة .

م - ياقوت الحموى :

كتب ياقوت الحموى (المتوفى سنة ٦٢٦ هـ/١٢٢٩ م) ما يلى : وخلفهم أمّة أخرى من السودان تدعى تكنة (٩٢) .. ولفظ (من) المستعمل فى (من السودان) يفيد التبعيض، والأمّة لاتكون بعضًا من أرض ، وإنّما من بشرٍ السوادُ وَصْفُهم .

ن- أبو الفداء :

كتب أبو الفداء (المتوفى سنة ٧٣٢ هـ / ١٣٣١ م) تحت عنوان ذكر اسم أمم السودان ما يلى : فمن أعظم أممهم الحبش وبلادهم تقابل الحجاز ومن أسمائهم أيضًا : النوبة ، والبجا ، والدمادم ، والزنج والتكرور (٩٣) .. دلالة العنوان على إثبات دعوانا واضحة ، ولكنّى مع ذلك سأضيف : أن قوله (وبلادهم) التى أضاف فيها اللفظ إلى الضّمير العائد على السودان ، وذلك يدفع بدعوانا قويةً إلى سنة، ٧٣٢ هـ / ١٣٣١ م وهى سنة وفاة هذا المؤرخ المذكور .

---

٩١ - ابن النديم : الفهرست ص ٢٨ .

٩٢ - ياقوت الحموى : معجم البلدان ج ٨ ص ٣٢٣ .

س- ابن الفرات :

كتب ابن الفرات (المتوفى سنة ٨٠٧ هـ / ١٤٠٥ م) ما يلى : ثم غزاها (أي النوبة) كافور الأخشيدى وكان أكثر جيشه السودان فقال الشاعر :

ولما غزا كافور دنقله غدا

بجيش كطول الأرض فى مثل عرضها

وقال أيضا :

غزا الأسودُ السودانَ فى رونق الضّحى

ولما التقى الجيشان أظلمت الأرض

ثم غزاها الأمير ناصر الدولة بن حمدان ، وكبس السودان ، ونهب جيشه (٩٤) . فهذه الأغلبية التى كان السبب فيها السودان ، وذلك الجيش الذى قابل كافوراً مدافعًا عن أرضه ، وذلك السودان الذى تعرّض لغزو ناصر الدولة - لايُمكن أن يكون أرضًا ، وإنّما بشرٌ يُدافع عن حقّه فى الحياة الحرة ويُمد العونَ لكل مستنصرٍ به .

ع- القلقشندى :

كتب القلقشندى (المتوفى سنة ٨١٤ هـ / ١٤١١ م) مايلى : والمقصود الآن الكلام على ماعدا ذلك وهو بلاد السودان (٩٥) .. وقال : وقاعدتهم سواكن وهى بليدة للسودان .. (٩٦) وقال : وفى غربى دنقلة وشماليها مدنهم المذكورة فى الكتب .. وقال الإدريسى : وهى غربى النيل على ضفته وشُرْب أهلها منه .. وقال : وأولها سودان ، ولكنهم أحسن السودان وجوهًا وأجملهم شكلاً ... (٩٧) فمَنْ هؤلاء السودان الذين عناهم القلقشندى ؟ .. أليسوا هم أهل الأرض وسكان (سواكن) وأصحاب البلاد ؟! .. فإن لم يكونوا كذلك فكيف يصحُّ للقلقشندى وصفهم بجمال الوجه وكيف يُستساغ منه إحلالهم لبعض أراضى إفريقيا ؟ !

ف- المقريزى :

كتب المقريزى (المتوفى سنة ٨٤٥ هـ / ١٤٤٢ م) نصوصاً تضمّنت ما يلى :

---

٩٤ - ابن الفرات : تاريخ ابن الفرات جـ ٧ ص ٤٥ .
٩٥ - القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٥ ص ٢٧٣ .
٩٦ - القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٥ ص ٢٧٤ .
٩٧ - السلوك لمعرفة دول الملوك جـ١ - القسم الثالث ص ٧٥٠ .

يايوم دنقلة ويوم عبيدها

من كل ناحية وكل مكان

مِن كل نوبيٍّ يقول لأخته

نوحي فقد سَكّوا قَفا السودان

ويضيف .. إنّا إذا ابتدأنا فى بلاد السودان من الغرب فأول ماتجد فيه من المدن التى للسودان العراة المهملين (٩٨) .

أكان السودان الذين سُك قفاهم أرضًا ؟ .. وإذا صحَّ فما معنى وصف المقريزى للأرض بالعرى والإهمال ، والأرض ليست مما تُوصف بذلك ، ثم كيف يُضيف أرضًا إلى أرض فى قوله بلاد السودان ؟ ..

الأمر على كل حال لا يستقيم إلا بجعل السودان وصفًا لهذا الشعب وهذا ما ندعيه نحن .

ص - ابن الوردى :

كتب ابن الوردى (المتوفَّى سنة ٨٦١ هـ / ١٤٥٧ م) تحت عنوان أمم السودان ما يلى : (وهم من ولد حام .. وعن جالينوس اختصاصهم بعشر خصال منها تفلفل الشعور ، وسواد اللون ، فمن أعظم أممهم الحبش .. ومن أممهم الزنج أشدهم سواداً (٩٩) .

فى هذا النّص - كما هو واضح - اعتبر ابن الوردى السودان من أولاد حام ، والأرض ليست مما يُنْسب إلى حام على أنّها من أبنائه ، ثم إنها لا تختص بعشر خصال ، من بيْنها تفلفل الشعر والسواد ، مما يدلّ على أنه إنما قصد بالسودان الشعب لاغيره .

يؤيّد ذلك أنه قال فى كتاب آخر عنهم : ومدينتهم العظمى دنقلة .. وأهْلُها أحسن السودان وجوهًا (١٠٠).. أترى يحق له وصف وجوههم بالجمال وهو لا يقصدهم وإنما يقصد أرضهم .

ق - ابن تغرى :

كتب ابن تغرى (المتوفى سنة ٨٧٤ هـ / ١٤٦٩ م) ما يلى: ثم أرسل عبد الله

---

٩٨ - المقريزى : الإلمام بأخبار مَنْ بأرض الحبشة من ملوك الإسلام ص ٢١ .

٩٩ - ابن الوردى : تأريخ ابن الوردى جـ ١ ص ٨٤ .

١٠٠ - ابن الوردى : خريدة العجائب وفريدة الغرائب ص ٤٦ .

جيشًا إلى السودان فغنموا وظفروا ، وعادوا [(١٠١)] .. وقال : فعند ذلك تيقنت السودان أن المدد لا ينقطع عنهم من وجهة الشمال فصمّموا على محاربتهم ، ودنوا إليهم فى أمم لاتحصى ، فلما نظر محمد إلى السودان التى أقبلت عليْه ، انتزع جميع ما كان فى رقاب عساكره من الأجراس فعلّقها فى أعناق خيوله ..[(١٠٢)] وأضاف : ثم حمل بعساكره على السودان .. حتى خُيِّل للسودان أن السماء انطبقت على الأرض [(١٠٣)] .

لا أخالنى فى حاجةٍ لأن أدلّل أنّ ابن تغرى بالرغم من تأخُّره فى الزمن على كل مَنْ سبقوه، ظلّ مفهوم اللفظ عنده ثابتًا غير متغير ، إذْ أنّ كتابته تدلّ على ذلك ، واستعمال اللفظ يكشف مدلوله عنده ، فهو قد اعتبر السودان أمة تُرْسَل الجيوش لمحاربتها ، وتملأ الزكائب من غنائمها ، وهو حينما تكلم عن تلك الأمة نفسها وصف إحْجامها عن قتال الدخلاء ثم تصميمها على محاربتهم ، وجمع المقاتلين للوقوف فى مواجهتهم ، ومعلوم أنه لا يحجم عن القتال أو يفكر فيه من ليس بعاقل .. أضف إلى ذلك أن زعيم خصومهم حين انتزع الأجراس من رقاب عساكره ، فعلقها على خيولهم بُهت السودان لهذا الاضطراب المفاجىء وتلك الزعزعة التى ألمت بصفوفهم ولا يُذعر من شىء ويخاف منه - إلا مَن كان يملك الشعور الذى يُملى عليه ذلك والأرض ليست مما يشعر حتى يمكن أن نفترض أنه إنما قصدها بذلك .

حدود السودان اللغوية

كان من الطبيعى وقد اتسع مفهوم السودان عند الأوائل فشمل كل أسود- أن تتّسع كذلك حدوده فتشمل كل بلد يقطنه السودان سواء أكان ذلك فى داخل إفريقيا ، أم خارجها .. بل إن كثرة السود وانتشارهم فى أقطار العالم جعل بعض المؤرخين العرب يوسع رقعة حدود السودان بما يشمل الهند والسند والصين ، وغيرها .. وبالغ آخرون فجعلوا حدود السودان مسيرة سبع سنين ، وقارن هذا البعض بين حدود السودان وحدود مصر ، فجعل الأخيرة جزءاً واحداً من ستين جزءاً من الأولى وكأنّه بذلك

١٠١ - ابن تغرى : النجوم الزاهرة فى مصر والقاهرة جـ ١ ص ٢٦٦ .
١٠٢ - نفسه جـ ٢ ص ٢٩٨ .
١٠٣ - نفس المرجع والصفحة .

قصر مصر على الأماكن التى يقطنها غير السود من السكّان ، على أنّه إن كان هذا أو ذاك فلا شكّ أن حدود السودان سابقًا ، لم تكن مقصورة على الحدود الحاليّة التى حددتْها اتفاقية سنة ١٣١٧هـ / ١٨٩٩ م ، ولا على تلك التى كانت فى عصْر إسماعيل ، والتى حدد الدكتور محمد صبرى رقعتها بما يشمل إريتريا والصومال بشقّيه وأوغنده وجزءاً كبيراً من الكنغو[١٠٤] .

وحتى يتضح للقارىء مفهوم المؤرّخين الأوائل عن حدود السودان فسأورد فيما يلى بعض النصوص التى توضح المراد .

يقول ابن الفقيه : وأرض السودان مسيرة سبع سنين ، فما فضل عنهم من مائها صار إلى مصر ، وأرض مصر جزء من ستين جزءاً من أرض السودان ، وأرض السودان جزء من ستين جزءاً من الأرض [١٠٥] .

أترى ماذا يعنى ابن الفقيه بما كتب ؟! .

أمامنَا بعض الافتراضات التى يُمكننا عن طريقها تحديد قصْده وتبيين غرضه .

١ - الافتراض الأول :

أن يريد الكاتب بما كتب أرض السودان الحاليّة .. وهذا غير مستقيم للأسباب الآتية :

أ / إن الماء لاينبع من أرض السودان حسب حدودها الحالية ، وإنّما ينبع من بحيرتى (فكتوريا) [١٠٦] (وتانا) [١٠٧] اللتين تقعان خارج حدود السودان الحاليّة .

ب / إنّ أرض مصر ليْست جزءاً من ستّين

---

١٠٤ - انظر أطلس الإمبراطورية السودانية للدكتور محمد صبرى خرطة رقم (١) وراجع عن الاتفاقيات الخاصة بالحدود ، الجواهر الحسان فى تأريخ الحبشان ص ٢٩/٢٨ .

١٠٥ - ابن الفقيه : مختصر كتاب البلدان ص ٥٩ .

١٠٦ - تعتبر بحيرة فكتوريا أكبر بحيرات الدنيا إذ تبلغ مساحتها ٦٩٠٠٠ ك . م٢ (٦٨٢٨ ميلاً مربعا) ويعلو سطحها على سطح البحر بنحو ١١٣٥ متراً وكانت قبلا تسمى باسم أو كروى Ukerewe وهو اسم لجزيرة منها تتبع تنجانيقا (راجع نهر النيل لمحمد عوض محمد ص ٣٨/٣٦) .

١٠٧ - يبلغ مستوى بحيرة تانا ١٨٤٠ متراً فوق سطح البحر ومساحتها ٣٠٦٠ ك . م٢ .. والنيل الأزرق بوجه عام نهر جبلى شديد الانحدار فى كل مجراه من بحيرة تانا إلى الخرطوم .. هذا وحيث إن مستوى بحيرة تانا ١٨٤٠ م ومستوى الخرطوم أقل من ٤٠٠ متر فوق سطح البحر فإن انحدار النهر يبلغ إذن ١٤٤٠ متراً فى مساحته ١٦٢٢ ك م ، وأكثر مايكون هذا الانحدار فى الشطر الأعلى للنهر ما بين منابعه وبين بلدة الروصيرص التى تعلو عن سطح البحر ٤٦٦ متراً وعلى هذا فالانحدار فيما بعد الروصيرص ضعيف (راجع نهر النيل لمحمد عوض محمد ص ١٠٧/١٠٠) .

جزءاً من أرض السودان .. وأرض السودان وإن كانت تفوق أرض مصر مساحة إلا أنها برغم ذلك لا ترتقى إلى تلك المساحة كما لا تدنو تلك إلى هذا المستوى .

ج / إن أرض السودان الحالية ليست جزءاً من ستّين جزءاً من الأرض بل هى دون ذلك بكثير .

د / اتساع مساحة السودان مهما بلغت لايُساوى اجْتيازها سبع سنين ، ذلك أنه يمكن للشخص أن يعبرها - ولو راجلاً فى مدة أقل من ذلك بكثير .

٢ / الافتراض الثانى :

أن يريد الكاتب بما كتب نفس ماأراده معاصره ابن خرداذبة حين قال : ووجدت أرض الحبشة والسودان مسيرة سبع سنين ،فأرض مصر جزء من أرض السودان ، وأرض السودان جزء واحد من ستّين جزءاً من الأرض كلها .

فإنْ صحّ هذا وكان المراد بأرض السودان ما يشمل أرض السودان ، والحبش فيكون ابن الفقيه إنما اقتصر فى نصه على كلمة « السودان» لشمولها لمن هم أشد سواداً كالحبشة ومن هم دونهم من السواد كالآخرين ، إذ السودان كما هو معلوم لفظ أكثر عموماً من لفظ الحبش لا نحصار الأخير وانفراج دائرة الأول .

ولكن حتى هذا القصد لا يخلو من نَقد ، ولا يَسْلم من طعن إذ يمكن تسديد نفس السِّهام التى أودت ببقاء القصد الأول إليه .

٣/ الافتراض الثالث :

أن يريد الكاتب بما كتب إفريقيا بأسرها والقارة بأجمعها .. وهو وإن كان أوسع دائرة مما ذكرناه إلا أنه ما يزال دون الحقيقة بكثير ، إذ لاتبلغ مساحة هذه القارة مبلغًا يضطر المجتاز لها إلى قضاء سبع سنين بداخلها .

٤- الافتراض الرابع :

أن يريد الكاتب بماكتبه ما أراده الجاحظ حين قال : والسودان يعدون الزنج والحبشة ، وفزان ، وبربر ، والقبط ، والنوبة ، وزغاوة ، والسند ، والهند ، والدبيلا ، والصين ، وما صببت ، وجزائر البحر ما بين الصين والزنج

مملؤة سودان كسر نديب وكله ، وأمل ، وزايع ، وجزائرها إلى الهند ، إلى الصّين ، إلى كابل ، وتلك السواحل (١٠٨).. وكذلك بعض قبائل العرب (١٠٩) .. وهو قصد نسلّم به واتجاه نرتضيه لسلامته من الطعن وخُلوّه مما يُوجب النقد .

فمفهوم السودان إذن عند العرب يتّسع لكل ما ذكرنا واسمه يضم جميع ما قلنا لايختص ببلد دون بلد ، ولا بمنطقة دون أخرى (١١٠) ، هذا ولئن انعتقت مصر أخيراً من دائرته وصار اللفظ مقصوراً على مَنْ يقعون جنوبها .. فلايعنى هذا أنّها لم تكن من قبلُ داخل حلقته ، إذ السودان كما قلنا كان يشمل فيما يشمل الأقباط وهم ساكنو مصر ، ومعمّروها ، علما بأنّ اللفظ صارتْ دائرته تُسقط واحداً إثر واحد وجزءاً بعد جزء حتى أصبحت أضْيق مما كانت عليْه بكثير ، وصار الشعب أقلّ عددا مما كان عليه سابقًا .. أحب أن أخْلص مما سبق بأن لفظ السودان والحبش وإثيوبيا وكوش لم يُستعمل فيما مَضى اسما لسودان وادى النيل ولاعلمًا على هذا القطر المعروف باسم جمهورية السودان وإنما كان استعمالها محدوداً على الشعب ومقصوراً عليه .

أسماء السودان

تسمّى السودان خلال تأريخه القديم بأسماء ذات مدلول غير محدّد أحيانًا ، وضيّق جداً أحيانًا أخرى .. من ذلك مثلاً :

١- أرض السود: وهى إشارة إلى من كان يسكن الأرض من ذوى السحنة السوداء . وتشمل فيما تشمل أرض النوبه وما يحادها جنوبا حتى البحر الأحمر .(١١١)

---

١٠٨ - الجاحظ فخر السودان على البيضان ص ٧٦ .

١٠٩ - الجاحظ فخر السودان على البيضان ص (٧٨) وفى (٧٠) من نفس المرجع يتكلم الجاحظ عن مفهوم السودان عند العرب فيقول : والسود عند العرب فيقول : والسود عند العرب الخضر ويستدل على ذلك بقول شماخ بن ضرار :

. وراجت رواجًا من زرود فنازعت * زبالة جلبابا من الليل أخضرا

ويضيف قال الراجز :

حتى انتضانى الصبح من ليل خضر * مثل انتضاء البطل السيف الذكر

ويقول : وهم يصهرون الحديد أخضر لأنه صلب لأن الأخضر أسود ، وهذا الصنيع من الجاحظ .

١١٠ - أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ص ٢٤١ ، ومسالك الممالك ص ١١/١٠ ومختصر كتاب البلدان ص ٦٠/٥٩ ، والمسالك والممالك لابن خرداذبة ص ٩٣ ، وفخر السودان على البيضان ص ٧٧ .

١١١ - السودان بين الوصفية والاسمية لحسن الفاتح .

٢- تانهسو : أو تانحسو .. ومعناها أيْضاً أرض السود (١١٢) ، وهى تشمل كسابقتها السودان الحالى وما جاوره شمالاً حتى نهاية أرض النوبة ، وجنوبًا حتى نهاية أرض الحبشة ، على أن مفهومها أحيانًا يضيق فينحصر فى الجزء الواقع جنوب مصر مباشرة (١١٣).

٣- الواوات : وهى اسم عُنى به الحال فصار علمًا للمحل ، ويقصد به القبائل التى كانت تقطن بين الشّلالين الأوّل والثانى ، وهى المنطقة التى تقع ما بين أسوان ووادى حلفا .. علمًا بأن بعض سكان الواوات من النوبيين هاجروا مؤخرا من موطنهم الأصلى واستقروا بإقليمى لاستا وأجوميدر الواقعين حاليا بأرض الحبشة ، وعرف جنسهم بين الأهالى بأجو (أى الأحرار) . (١١٤)

٤-مازوى : وهو اسم أريد به الحال فصار علمًا على المحل ويقصد به القبائل التى تسكن بين الشّلال الثانى وملتقى النيلين الأزرق والأبيض ، وهى قبائل كانت تمد الجيش المصرى بمختلف الإمدادات فى العصور المختلفة .

٥- يام: وهو اسم أريد به كذلك الحال فصار علمًا على المحل ويقصد به القبائل التى كانت تسكن بالقرب من مازوى وقد يقصد به البلاد الواقعة غرب بلاد كوش على أن البعض اعتبرها اسمًا قديمًا لكردفان أو دار فور . (١١٥)

٦- الأرنت والسنحتوت : وهو اسم أريد به كذلك الحال فأصبح علمًا بالغلبة على المحل ، ويقصد به القبائل التى كانت تقطن الجهة الغربية لوادى النيل بين (مازوى) و (يام) جنوبًا و (الواوات) شمالاً . (١١٦)

٧- كوش: وهولفظ عبرى معناه السواد ، وبه كان يسمّى كوش بن حام أخو مصرايم ، وفوط ، ونعمان. وبنوكوش هم سبا ، وحويلية ، وسبتة ، ورعمة ، وسبنكا (١١٧).. وله من الأولاد كذلك مايأتى :

---

١١٢ - دراسات للبروفسير يوسف فضل جـ ٢ ص ١١٣ .
١١٣ - دراسات فى تاريخ السودان للبروفسور يوسف فضل جـ ٢ ص ١١٣ .
١١٤ - الجواهر الحسان ص ٣ .
١١٥ - دراسات فى تاريخ السودان للبروفسور يوسف فضل جـ ٢ ص ١١٣ ونهر النيل لمحمد عوض محمد ص ٧/٦ .
١١٦ - السودان بين الوصفية والاسمية للدكتور حسن الفاتح وهو بحث منشور بمجلة الثقافة السودانية السنة الرابعة العدد السادس عشر ديسمبر ١٩٨٠ م ص ٥٩/٤٦ .
١١٧ - العهد القديم : سفر التكوين الإصحاح العاشر .

١ / نوبة والد أمم النوبة .

٢ / زنج والد أمم الزنج ، ووالد برابرة السودان ، وفزان ، وزغاوة .

٣ / حبش والد أمم الحبش بجميع أجناسهم [١١٨]

ورد اسم (كوش) أوّل ماورد على لوْح (بوهين) الذى يرجع تأريخه إلى السنة الثامنة من حكم سيزوستريس .. وجاء فى لوْحَيْن لكاموس : أن بلاد كوش كانت تحت الحكم النوبى ، وأن حاكم النوبة آنذاك كان من القوة والسطوة والمتعة بحيث علا ذكره وارتفع صيته [١١٩]

أما حدود دولة (كوش) ذات التأريخ العريق فكانت تنفرج وتضيق حسب قوة البلاد وضَعفها ، علمًا بأنه بينْما كانت كوش حتى عصر البعثة النوبية تمتد إلى نهاية حدود إفريقيا جنوبًا وإلى مابعد خط ٣٠ شمالاً - كانت مصر تنحصر فيما بين مدار السرطان جنوبًا وبحر الروم (البحر الأبيض المتوسط) شمالاً ، وبحر القلزم (البحر الأحمر) شرقًا ، وخط طول ٣٠ غربًا [١٢٠] وعلى كل فقد كانت (كوش) هى الجارة الجنوبية لمصر وكانت النّصوص التّواتية كثيراً ماتربط بينْها وبين مصر أو (مصرايم) .. وكان على رأس بلاد (كوش) ملك نوبى كان حتى فى عصور ضَعْف بلاده يعتبر مساويًا لفراعنة مصر [١٢١]

أما أهل كوش فيرجح البعض أنّهم فرع من الكوشيين الساميين [١٢٢] ممن نزحوا من

---

١١٨ - الجواهر الحسان ص ٣٦ وفيه أن مما يؤكد نسبة الأمم إلى أجدادهم أن ياء النسبة تلحق بهم عند الإضافة فيقال حبشى وحبشية ومثلها نوبى ونوبية ، وزنجى وزنجية .

١١٩ - مصطفى عبده : أثر العقيدة فى منهج الفن الإسلامى ص ٦٦ .

١٢٠ - الدكتور حسين مؤنس : أطلس تاريخ الإسلام ص ٤٤ خريطة رقم ٢٨ صورة مرفقة - طبع القاهرة سنة ١٤٠٧ هـ / ١٩٧٧ م وراجع نهر النيل لمحمد عوض محمد ص ٦ .

١٢١ - أثر العقيدة فى منْهج الفن الإسلامى لمصطفى عبده ص ٦٦ ، وراجع كتاب التوراة جاءت من جزيرة العرب ص ٩١ .

١٢٢ - أ . ل . شلوزر كان هو أول من استخدم تعبير السامية لوصف الشعوب ذات العلاقة بالعبرانيين والتعبير مأخوذ عن اسم سام (شم بالعبرية) ابن نوح وهو الجد المزعوم للعبريين ولأقوام أخر ذكرتهم التوراة ، وتتحدث التوراة عن شعوب انحدرت من سام دون أن تصفها بالسامية (راجع التوراة جاءت من جزيرة العرب (هامش ص ٢٩) .

أراضيهم الأصلية باليمن قبل الميلاد بثلاثة آلاف سنة (أى ثلاثة آلاف وستمائة واثنين وعشرين سنة قبل الهجرة النبوية) واستقروا بأراضى نبته ومروى بالقرب من سنار (١٢٣) .

٨ - **الحبشة** : وهو اسم كان يطلق قديمًا على جميع القارة الأفريقية باستثناء شريط ساحلى ضعيف لم يكن يتعدى فى أقصى توسّع له قبل البعثة النبوية - حدود بنى غازى (سيرينايكا) غربًا وبحر القلزم ومدار السرطان جنوبا (١٢٤)

علماً بأنّ نفس اللفظ ظل يُطلق إلى ما بعد سنة ٧٣٢ هـ / ١٣٣١ م على كل من النوبة والبجة والدمادم . والزنج والتكرور ، وعن ذلك يقول أبو الفداء فى كتابه المختصر فى أخبار البشر تحت عنوان ذكر اسم أمم السودان ما يلى : فمن أعظم أممهم الحبش وبلادهم تقابل الحجاز ومن أسمائهم النوبة ، والبجة ، والدمادم ، والزنج ، والتكرور (١٢٥) ويقول القزوينى فى كتابه أخبار البلاد مانصه .. البجة بلاد متصلة بأعلى عيذاب فى غربٍ منه أهْلُها صنفٌ من الحبش (١٢٦) .

٩ - **السودان** : لم يكن لفظ السودان معروفًا أو مستخدمًا قبل التوسع العربى وانتشار القبائل العربية فى مساحات كبيرة من إفريقية بعيداً عن أوطانهم فى شبه الجزيرة العربية شمال النطاق الصحراوى المعروف باسم الصحراء الأفريقية الكبرى ، وهذا إن دلّ على شىء فإنما يدل على : أنّ كلمة (سودان) عربية أصيلة أطلقها العرب على كل الأراضى الأفريقية فيما وراء الصّحراء الكبرى جنوبًا والتى تمتد من أقصى الغرب الذى يشرف على المحيط الأطلنطى (الظلمات) إلى أقصى الشرق الذى يطل على ساحل البحر الأحمر أو ينتهى عند السفوح المنخفضة الحبشية .

---

١٢٣ - الجواهر الحسان فى تاريخ الحبشان ص ٦/٥ ، هذا وجاء فى (و) أورد بعض الكتاب أن لفظ (كوش) العبرى كان قد عرب إلى لفظ (كوثه) فى منطقة جيزان أو الأودية الداخلية لشبه الجزيرة العربية وذلك بقلب الشين ثاء وكان نفس الاسم بعد تعريبه معروفاً فى الأماكن المجاورة لخميس مشيط . بمنطقة عسير وببلدة (كوثه) أو (كوش) سكن سيدنا إبراهيم الخليل راجع صفحات ٢٧٤/٩٤/٨٢/٢٤/١٨ من كتاب التوراة جاءت من جزيرة العرب لكمال سليمان الصليبى الطبعة الثالثة نشر مؤسسة الأبحاث العربية - كانون الأول سنة ١٩٨٦ م .

١٢٥ - المختصر فى أخبار البشر ج ١ ص ٩٥ .

١٢٦ - أخبار البلاد للقزوينى وجغرافية وتأريخ السودان ص ٣٦٧ .

أما استخدام لفظ السودان للتعبير عن مدلول سياسى وكيان معين يضمُّ مساحات معيّنة فى قلب النِّيل الأوسط وروافده فلا يرجع إلى أبعد من أوائل القرن التاسع عشر الميلادى بعد ما دخلت هذه المساحات فى نطاق الإمبراطورية المصرية ويعنى ذلك أن التوسع المصرى فى سنة ١٨٢١م أدّى إلى استخدام تعبير الأقاليم السودانية للتعبير عن كل المساحات التى خَضعت للحكم المصرى .. ومع ذلك فإن كلمة السودان لم تستخدم كتعبيرٍ مطلقٍ له مدلوله السِّياسى للدلالة على الأراضى التى تقع جنوب مصر ولها حدود معيّنة مرسومة محدودة إلا فى بداية الحكم الثانى سنة ١٨٩٩م / ١٣١٧هـ . (١٢٧)

١٠ - **مملكة نوباتيا :** ومعناها بلاد النوبة وهو الاسم الرومانى الذى اشتهر به الجزء الشمالى من السودان لفترة طويلة ، ويضم حوض النيل من أسوان وحتّى الشّلال الثالث . (١٢٨)

١١ / **نبته :** ومكانها عند جبل البركل قرب الشّلال الرابع ، وهى تمثل إحدى عاصمتى إثيوبيا السُّفْلى .

١٢ - **مروى :** ومكانها عند البجراوية فى رأس مروى . (١٢٩)

١٣ - **دولة الفونج :** أو مملكة سنار .. وقد امتدت شوكتها من الشلال الثالث إلى جبال فازوغلى شمالاً وجنوباً ، ومن سواكن ومصوّع علِى البحر الأحمر إلى النيل الأبيض شرقاً وغرباً ... (١٣٠) هذا وقد دامت هذه المملكة ٣٢٦ عاماً إذ أنْشئتْ فى سنة ٩١٠هـ / ١٥٠٥م وزالت فى سنة ١٣٢٦هـ / ١٩٠٨م .

١٤ - **مملكة الفور :** أو سلطنة الفور . (١٣١)

١٥ - **مملكة تقلى :** وهو اسم لإحدى ممالك السودان . (١٣٢)

---

١٢٧ - الموانىء السودانية للدكتور صلاح الدين الشامى ص ٦/٥ نشر مكتبة مصر طبع دار الطباعة الحديثة سنة ١٩٦١م .

١٢٨ - دراسات فى تأريخ السودان وإفريقيا ج ٢ ص ١١٣ .

١٢٩ - شقير : جغرافية وتاريخ السودان ص ١٠٣ .

١٣٠ - راجع عن تاريخها : شقير : جغرافية وتأريخ السودان ص ٣٨٨/٣٨٠ فما بعدها ، ودراسات فى تاريخ السودان وأفريقيا للبروفسير يوسف فضل ج ٢ ص ٤٥ فما بعدها طبع ١٩٨٩ م .

١٣١ شقير : جغرافية وتاريخ السودان ص ٤٤١ فما بعدها ودراسات للبروفسير يوسف فضل ج ٢ ص ١١٣ .

١٣٢ - دراسات ليوسف فضل ج ٢ ص ١١٣ .

١٦ - **مملكة المقرة** : وكانت تضم المنْطقة من الحدود الجنوبية لمملكة نوباتيا وحتى ملتقى النيلين ، والجزء الأعظم من وشمال كردفان .

١٧ - **مملكة علوة** : وكانت تضمُّ منطقة الجزيرة ومنطقة البطانة شمال وأواسط كردفان ودارفور ، وقد سميت هذه المملكة فى بعض الوثائق القبْطية بمملكة الحبشة . (١٣٣)

١٨ - **بلاد البوانيت** : وهو اسم أطلق على البلاد الواقعة على الساحل الجنوبى للبحر الأحمر (١٣٤) على أنه مَا يُذكر هنا أن أهالى هذه البلاد كانوا أقدم من المصريين فى ممارسة الملاحة والاشتغال بالوساطة التجارية فى البحر الأحمر . (١٣٥)

١٩ - **المريس** : وهو اسم استعمله العرب للدلالة على بلاد السود . (١٣٦)

٢٠ / **إثيوبيا** : أو إيثيوبس وهو اسم كان يُطلقه اليونانيون على عموم سكان أفريقيا (١٣٧) وعلى الأخص على سكان ما كان بين النِّيل الأعلى وصحراء ليبيا وسواحل البحر الأحمر منها - على أن المؤرخ (هومر) عمّم إطلاقه على سكان ما بين (ابتداء آخر الشرق) إلى (آخر الغرب) ويستفاد مما كتبه كل من (هيرودث) و (بلين) .. أن اللفظ عند الأول مقصور على سكان النّيل الأعلا فقط وهو عند الثانى يطلق على سكان النيل الأوسط والأزرق والنوبة والحبشة .

هذا وقد انقسمت إثيوبيا قديماً إلى قسمين :

أحدهما : إثيوبيا العليا التى عرفت فيما بعد بالحبشة ثم إثيوبيا .

ثانيهما : إثيوبيا السّفلى وتعرف الآن بالسودان أو بجمهورية السودان .

وكان للأخيرة عاصمتان إحداهما نبته .. والأخرى مروى .

وقد عاصرت إثيوبيا السّفلى كلا من الفراعنة ،

---

١٣٣ - تاريخ المسيحية ص

١٣٤ - شقير : جغرافية وتاريخ السودان ص ٢٩٩ ونهر النيل ص ٧ .

١٣٥ - موانىء السودان ص ١٦/١٥ .

١٣٦ - دراسات للبروفسير يوسف فضل ج ٢ ص ١١٣ .

والفرس ، والبطالسة ، والرومان ، وبقيت معروفة بهذا الاسم إلى سنة ١٩هـ / ٦٤٠م وهي السنة التي زالت فيها دولة الرومان . (١٣٨)

أشهر عواصم السودان :

كانت عاصمة السودان بمفهومه السابق تنتقل من جهة إلى جهة بحسب تنقلات الحكومة (١٣٩) علماً بأن أشهر البلاد التي اتخذت عاصمة قبل البعثة النبوية وبعدها هي :

١ - **سوبا :** وهي أقدم مدينة بالسودان حتى أنه ليزعم البعض أنها من بناء سبأ بن نوح عليه السلام ويقولون : إنّ ثمت تشابها بينها وبين سبأ اليمنية من حيث ولاية الملكات على العرش ، ونظام المعابد ، وطريقة العبادة قبل الإسلام الأمر الذي دعاهم إلى أن يقولوا إن تحريفاً مّا قد حدث في الكلمة فحوّلها من سبأ الى سوبا .. على أنه أيّا كان الأمر فإن أهالي مملكة النوبة العليا أو علوة اتخذوا من سوبا المذكورة عاصمةً لملكتهم وعُنوا بها عناية فائقة حتى أنهم أشادوا بها المباني الجميلة ، والكنائس ، والمعابد الفخمة التي بنيت على طراز نبتا والنقعه ..

هذا وقد ظلت سوبا المذكورة أعلاه عاصمة عامرة حتى خربها الفونج وذهب تدميرها وخرابها مثلاً يجرى على لسان السودانيين حتى اليوم (١٤٠)

٢ - **قرى :** وكانت عاصمة لمشيخة (العبدّلاب) .. وقد بلغت أوْج مجدها وقوتها في عهد الشيخ عجيب المنجلك الذى تميز عصره بالفتوحات . (١٤١)

٣ - **حلفاية الملوك** (١٤٢) **:** وهى العاصمة البديلة للعاصمة (قرى) وكان قد أنشأها فى سنة ١٢٠٥هـ / ١٧٩٠م الشيخ عجيب الثالث ، وظلت عاصمة للعبدّلاب حتى مجيء الترك .. وفى عهد الأخيرين تحالف معهم الشايقية

---

١٣٩ - الجواهر الحسان فى تاريخ الحبشان ص ح .

١٤٠ - جغرافية وتاريخ السودان لشقير ص ١١١ ، وتاريخ الخرطوم ص ٩ وتاريخ الثقافة ص ٩ .

١٤١ - تاريخ الخرطوم ص ١٠ وجاء فى ص ٥ من نفس الكتاب أن الخرطوم ورثت مجد سوبا وقرى فجعلت عاصمة للسودان الحديث .

١٤٢ - لفظ الحلفايا كان ينصرف إلى إقليم واسع ولم يكن اسم موضع بعينه فى هذه الجهة راجع تاريخ الخرطوم ص ١٧٢ ، أما حلفايا الملوك التى عرفت بهذا الاسم فكانت عاصمة لمشيخة العبدّلاب فى أواخر العهد الفونجى .

منافسو العبْدَ ّلاب ومناوئوهم فانتصر لهم الأتراك وأقاموا منهم حامية للشايقية قوامها [٤٠٠] رجل تحت قيادة سنجك منهم فاستسلم لهم دون مقاومة الشيخ ناصر الأمين شيخ العبْدَ ّلاب على أنه لما قُتل الملك نمر إسماعيل باشا فى العام التالى ، وعمت الثورة الأقاليم الشمالية قام الشيخ الأمين بن الشيخ ناصر الأمين على رأس قوة من أهله وهجم على الحامية وقضى عليها قضاءً مبرماً الأمر الذى أغضب الأتراك فأصابوا العبْدَ لاب وضربوهم دون رحمة وصادروا أراضيهم فى الحلفاية وقرى ، وأقطعوها لحلفائهم الشايقية فازداد بذلك نفوذ الأخيرين وكوّنوا قوةً وعصبيةً . (١٤٣)

علماً بأنّ محمد أغا القبوجى باشى كبير الحجّاب بالسودان فى عصر محمد على كان قد أحضر أخيراً شيخ العبْد ّلاب ومنحه الأمان وأجلسه فى مكانه حاكماً ومنحه لقب ملك (١٤٤) فظلّت حلفاية الملوك لهذا السبب عاصمةً للإقليم واحتفظت بأهميتها لفترة من الزمن طغتْ فيه خلالها أهمية الخرطوم بحرى عليها فتضاءل دورها وانخفضت مكانتها . (١٤٥)

٤ - **مدنى** : أو ولد مدنى وقد تمّ اختيارها عاصمةً للسودان بديلاً عن سنار فى حوالى سنة ١٢٣٧هـ / ١٨٢١م (١٤٦) بناء على توجيه فى ذلك أصدره محمد على باشا .

٥ - **الخرطوم** : وقد اختيرت عاصمة للبلاد فى حوالى سنة ١٢٤٠هـ / ١٨٢٤م تنفيذاً لتوجيه فى ذلك أصدره محمد على باشا إلى عثمان بك فى ١٦ / ديسمبر ١٨٢٤م (١٤٧) وقد تلا ذلك بناء معسكر لجيش عثمان بك

---

١٤٣ - تاريخ الخرطوم للبروفسير محمد إبراهيم أبو سليم ص ١٠/١١ طبع دار الجيل بيروت سنة ١٣٩٩ هـ .
١٤٤ - تاريخ الخرطوم ص ٢١ .
١٤٥ - تاريخ الخرطوم ص ١٧٣ .
١٤٦ - تاريخ الخرطوم ص ١٥/١٦/٢١ .
١٤٧ - تاريخ الخرطوم ص ٢٥ هذا وكانت تقع ضمن حدود السودان بلدة أخرى تحمل نفس الاسم (خرطوم) وهى قرية تابعة لكلابشة تجاه جزيرة دارموت الواقعة على مقربة من المعبد الذى يسميه الأهالى بيت الوالى راجع رحلات بوركهات ص ١٠٦ .

أعقبه عمل جاد فى تعمير الخرطوم تبنّاه محويك الذى أطلق اسمه على منطقة الشجرة الواقعة جنوب الخرطوم (١٤٨) ثم جاء خورشيد باشا وحل محل محو بك فعمل على توسيع الخرطوم وكان قد بنى بها مسجداً فى سنة ١٢٤٥هـ /١٨٢٩م ، وقام بتوسيعه فى سنة ١٢٥٣هـ /١٨٣٧م .. (١٤٩) ونقل إليها كل دواوين الحكومة فى سنة ١٢٤٦ هـ/ ١٨٣٠ م (١٥٠) على أن الخرطوم تلبث أن أخليت من كلٍّ سكانها وهجرت حين سقطت فى يد الدولة المهدية فى سنة ١٣٠٣ هـ/١٨٥٨م ، ولم تعد إليها الحياة ويعمها الازدهار إلا بعد احتلال الأوربيين للسودان وقضائهم المبرم على أم درمان واجهة التحدى الأفريقى للتوغل الأوربى ، وذلك فى سنة ١٣١٦ هـ/١٨٩٨م .

١٦ - **أم درمان** : وقد عرفت بهذا الاسم فى عصر العنج السابق لعصر الفونج حيث قالوا إن بنتا لأحد ملوك العنج كانت تسكن بها ولها ولد اسمته (درمان) فنسبت البلدة إليها وصارت تعرف باسمها الحالى (أم درمان) (١٥١) ..على أنه أيا كان السبب فمن المؤكد أن شأن أم درمان اضمحل بعد عصر الفونج ، حتى لقد صارت حلة صغيرة (١٥٢) أقام بها خورشيد باشا عدة أيام قبل أن يستقر بالخرطوم . (١٥٣)

وفى سنة ١٣٠٣ هـ / ١٨٨٥ م بدأت أم درمان فى الازدهار بعد أن اختارها الإمام المهدى معسكراً له للهجرة (١٥٤) .وأعاد لها اسم البقعة المباركة الذى سبق أن أطلقه عليها الشيخ أحمد الطيب بن البشير جَد الأستاذ / محمد شريف شيخ الإمام المهدى . (١٥٥) مفضلاً لها بذلك على مدينة الخرطوم ، الأمر

---

١٤٨ - كان محويك قد عسكر تحت شجرة عرفت من قبلُ باسم شجرة النقارة وعرفت فيما بعد باسم شجرة غردون وتجاهل الناس حالياً ما التصق بالشجرة من أسماء وصاروا يطلقون عليها اسم الشجرة فقط تاريخ الخرطوم ص ١٧/١٦

١٤٩ - تاريخ الخرطوم ص ١٧ علما بأن شقير قال فى كتابه عن نفس المسجد مايلى وضع حجر الأساس لجامعها فى ١٧ سبتمبر سنة ١٩٠٠ م وسيتم بناؤه فى أواسط السنة الآتية راجع ص ١٣٤٩ جغرافية وتاريخ السودان .

١٥٠ - تاريخ الخرطوم ص ٢٦

١٥١ - تأريخ الخرطوم ص ٨٤

١٥٤ - تأريخ الخرطوم ص ٨٣

١٥٥ - سميت بالبقعة المباركة والبقعة الطاهرة وبدار الهجرة وبدار الفلاح وبمركز الإرشاد وبأمدرامان .. راجع تاريخ الخرطوم ص ٨٥ وراجع مقالا عن أم درمان بين التأصيل والتأهيل للأستاذ الطيب محمد الطيب ، نشر فى جريدة السودان الحديث بالسودان العدد ٩٤٧ بتاريخ الجمعة ١٥ صفر سنة ١٤١٣ هـ / ١٤/٨/١٩٩٢ م .

الذى سار على منواله فيه الخليفة عبد الله إذ ورد أنه - وفى السنة المذكورة التى توفى فيها الإمام المهدى وأعقبه هو - كان قد أمر القاطنين فى الخرطوم بإخلاء المدينة والانتقال إلى أم درمان ، ولم يستثن من ذلك غير الأشراف الذين كلّفهم بطرد من تبقى من أهالى الخرطوم بها . (١٥٦)

ولاهتمام الإمام المهدى وخليفته بأم درمان اختار الأول بها فضاءً واسعاً أحاطه بالشوك ليكون للأمة مسجداً ، وقد استبدل خليفته بالشوك سوراً من الطوب الأحمر وضع أساسه فى يوم الأربعاء ٤ / ربيع الأول سنة ١٣٠٥ هـ /١٨٨٧م وفرغ منه فى يوم الأربعاء ١٧ جمادى الأولى سنة ١٣٠٥هـ / ١٨٨٧ م (١٥٧) .

هذا وقد تعرضت أم درمان عاصمة البلاد لهجمة شرسة من الأوربيين وأعوانهم تسنى للسلاح فيها أن ينتصر على القوة والحق فسقطت أم درمان فى صباح الجمعة ٢ سبتمبر سنة ١٨٩٨م الموافق ١٣١٦ هـ وتم عقب ذلك تدمير المسجد الجامع وأحيل إلى ساحة لاستعراض الجيوش . (١٥٨)

٧ - **الخرطوم بحرى :** (١٥٩) وهى مدينة حديثة النشأة لم يكن لها وجود قبل بداية القرن الرابع عشر الهجرى العشرين الميلادى ، (١٦٠) وقد قامت على جزء من الموضع الذى كان يطلق عليه اسم الحلفايا ، ذلك أن المعروف تأريخيا أن لفظ الحلفايا كان قديما يطلق على إقليم واسع ، (١٦١) يعم شرق النيل وغربه حتى أنه ليذكر أن الشيخ أبو صالح بن الشيخ أحمد الطيب بن الشيخ البشير حين تحدث الكتّاب عن تاريخه وخلافته -

---

١٥٦ - تأريخ الخرطوم ص ٨١
١٥٧ - تأريخ الخرطوم ص ٩١
١٥٨ - تأريخ الخرطوم ص ١١٤
١٥٩ - تم افتتاح مسجد الخرطوم بحرى يوم الجمعة ١١/٣ ، وأقيم الحفل لبناء جامع الخرطوم بحرى فى الساعة العاشرة من صباح يوم الجمعة الثالث من نوفمبر سنة خمسين بعد التسعمائة والألف (١٩٥٠) م وذلك بالقرب من محطة الترام (سابقا) وأمام المجلس البلدى .
١٦٠ - تأريخ الخرطوم ص ١٧٢
١٦١ - تأريخ الخرطوم ص ١٧٢
١٦٢ - راجع التربية فى السودان للدكتور عبد العزيز عبد المجيد ص ١٧٦/١٧٢/١٧١ / وثيقة رقم ٣ ص ٢٠ بتأريخ ١٦ رجب .

(١٦٢) أشير إلى المنطقة ومكان المسجد الذى هو به بأنه يقع جهة الحلفاية (١٦٣) . وجاء ذلك بوضوح فى الدفتر رقم ١٢٥٧ صادر عرضحالات الداخلية بالوثيقة التركية رقم ٢ ص ٤ بتاريخ ٢٥ ربيع الآخرسنة ١٢٨٢ هـ . وبالدفتر رقم ٥٢٩ (معية عرضحالات) بالوثيقة التركية رقم ٣ صفحة ٢٧٣ بتاريخ ٢٢ جمادى الأولى سنة ١٢٨٢ هـ وبالدفتر رقم ١٢٨٢هـ بالوثيقة التركية رقم ٣ ص ٢٠ بتاريخ ١٦ رجب سنة ١٢٨٦هـ (١٦٤) .

٨ - **دنقلة العجوز** : عاصمة النوبة السفلى .. أومملكة المقرة وقد فتحها المسلمون فى سنة ٧١٧ هـ / ١٣١٧م ثم دخلت فى حكم ملوك سنار وكان خاتمة مجدها غزو الشايقية لها فى أواخر القرن الثامن عشر للمسيح أوائل القرن الثالث عشر للهجرة ، وبعده أصبحت يبابا فأخنى عليها الذى أخنى على لُبَد .. علما بأنّ بها مقامات للصحابة أحدها - كماقيل - لسيدنا عبد الرحمن بن أبى بكر الصديق .. مع أن المذكور مات بمكة أو على بعد عشر أميال منها بموضع يقال له الحُبْشى وذلك فى سنة ٥٣ هـ / ٦٧٣م كما ورد ذلك فى كتاب الاستيعاب لابن عبد البر (١٦٥) .

٩ - **دنقلة الجديدة** : عاصمة مديرية دنقلة وتوصف أحيانًا بالجديدة تميزًا لها عن دنقلا القديمة المذكورة وتسمى دنقلا الجديدة أيضًا بالأوردى أوالعرضى لأن إسماعيل باشا - بعد احتلال السودان - كان قد اختارها عاصمة للبلاد بدل دنقلة العجوز ووضع فيها أوردبا (أى فيْلقا من العساكر) فأطلق عليها اسم (الأوردى) وحرف إلى العرضى (١٦٦) .

١٠- **بربر** : وكانت عاصمة ذات شهرة وعلى الأخص فى عهد مملكة سنار وبعدها حين الغزو التركى للسودان وكانت مقر كرسى الميرفاب ، وقد سقطت فى يد جيش الإمام المهدى فى سنة ١٣٠٢هـ / ١٨٨٤م واحتلها الأوربيون وأعوانهم سنة ١٣١٥هـ / ١٨٩٧م ، وكان قد سكنها الشيخ زين العابدين الأموى الشنقيطى القادرى وبها توفى ودفن سنة ١٢٨٣هـ / ١٨١٦م (١٦٧) .

١٦٤ - راجع الوثائق المذكورة مترجمة فى كتاب التربية فى السودان للدكتور عبد العزيز عبد المجيد ص ١٧١/١٧٢/١٧٦/ طبع المطبعة الأميرية بالقاهرة سنة ١٩٤٩ م وراجع تأريخ الخرطوم ص ٤١/٢٠٤
١٦٥ - جغرافية وتأريخ السودان لشقير ص ٩٩/١٠١ والاستيعاب ج٦ ص ٣٤/٣٥ رقم ١٣٩٤
١٦٦ - جغرافية وتأريخ السودان لشقير ص ٩٩
١٦٧ - جغرافية وتأريخ السودان ص ١٠٥

١١ - **شندى** : وكانت مركز مملكة الجعليين وذات نشاط تجارى واسع فغدر بها وبأهلها الدفتردار فى فاتحة استعمار متمردى الأتراك للبلاد (١٦٨) .

١٢ - **سنار** : وهى من أشهر مدن السودان وأقدمها (١٦٩) وكانت مأهولة بالسكّان منذ زمن بعيد (١٧٠) .. وقد اتخذها الفونج فى سنة ٩١٠هـ / ١٥٠٤م عاصمة لدولتهم فسما نجمها وذاع صيتها فانْتسبَ أو نُسب إليها السكان (١٧١) وقصدها الناس من كل مكان (١٧٢) وأنْشىء لطلابها بمصر رواق خاص بهم عرف برواق السنارية ، وكان لعلمائها مكانة مرموقة فى العالم الإسلامى . إذا اتخذوهم مرجعًا فى بعض ما يكتبون من موضاعات فالشيخ أحمد الطيب بن بشير (المتوفى سنة ١٢٣٩هـ / ١٨٢٣م) كان شيخا لشيخ الشيخ محمد حقى النازلى (المتوفى سنة ١٣٠١هـ /١٨٨٣م) حيث أجازه فى خواص القافات ، وعن ذلك يقول النازلى فى كتابه خزينة الأسرار جليلة الأذكار ما يلى : اعلم أنّ هذه الآيات إذا قرئت كل واحدة منها مرة تكرر الأسماء المذكورة عقب كل واحدة منها ثلاث مرات مثلا : قيوم يرزق من يشاء القوة ثلاثا .. كذا. أجاز لى شيخى سليمان أدرنوى عن الشيخ أحمد السنّارى (١٧٣) ..وكان الشيخ محمد بن عثمان الصايغ السنّارى أستاذاً للشيخ صديق المدنى بن عمر خان تلميذ سيدى الشيخ محمد عبد الكريم السمان وعنه تلقى بعض معارفه حين زار أرض سنار .. (١٧٤)

هذا وكانت الكرامة التى ذكرها الشيخ صديق حين زيارته لأرض سنار ذات دلالة مفادها قوة الصلة بين أهالى سنار حكومة وشعبا وبين أهالى المدنية المنورة وإلا فما بالُ سلطان سنّار يبعث إلى الشيخ صديق أثناء وجوده بسنّار ويُكرم نزله ،ثم يبعث إليه غداة

١٦٨ - جغرافية وتأريخ السودان ص ١٠٦/١٠٧

١٦٩ - جغرافية وتأريخ السودان ص ١١٣

١٧٠ - كتاب الطبقات هامش ص ٣٩ سطر ٥ من رقم ١١

١٧١ - خزينة الأسرار للنّازلى ص ٧٥ . وفيه أشير إلى الشيخ أحمد الطيب بن البشير بأحمد السنارى .

١٧٢ - قطف أزهار المواهب اللدنية ص ١٨٥

١٧٣ - خزينة الأسرار ص ٧٥ طبع عيسى الحلبى بمصر .. علما بأن القافات مطبوعة بزيل حزب الأمان للشيخ أحمد الطيب .

١٧٤ - قطف أزهار المواهب الربانية من أفنان رياض النفحة القدسية للشيخ صديق بن عمر خان ص ز طبع دار الطباعة المحمدية سنة ١٣٩٣ هـ /١٩٧٣ م .

ذلك اليوم بأمامه الذى يصلّى به فيبلغه مانصُّه ..إن السلطان مابعث إليك إلا لتتوجه إلى الله ببركات أستاذكم (الشيخ محمد عبد الكريم السمان) فى نزول المطر فاسأل الله له فعسى ببركته أن يسقينا الغيث ويكون ذلك كرامة له .(١٧٥)

احتل متمردوا الأتراك سنار فى سنة ١٢٣٦هـ / ١٨٢٠م ..وجعلوها مركزا لمديرية سنار ، بل ومنفى لبعض من غضبوا عليهم من اللبنانيين وغيرهم ، ودامت فى يدهم حتى استردّها منهُم جيش الإمام المهدى سنة ١٣٠٣هـ /١٨٨٥م ..وبعدها خربت حتى لم يبق بها عام إعادة احتلالها سنة ١٣١٦هـ / ١٨٩٨م إلامئذنة لمسجد كان قد بناه خورشيد بك بأمر من محمد على باشا .(١٧٦)

١٣- **فرص** : وهى عاصمة مملكة نوبا طيبا أومملكة المريس الواقعة مابين الشلال الأول بأسوان حتّى آخر الشلال الثانى المعروف ببطن الحجر وبها أطلال مدينة قديمة يظن أنها من عهد الرومان (١٧٧) .

١٤ - **مروى** : التى تقع شمال كبوشيه عند قرية البجراوية وهى - كما هو معروف كانت عاصمة لدولة امتدت من الشلاّل الأول إلى أعالى النيل ، وكانت ذات حضارة كبيرة تمثلها الأهرامات والمعابد والعمارات والحفائر ، وظلّت ذات شأن حتى أسقطها الأكسوميون حوالى سنة ٣٥٠ م (١٧٨) .

١٥ - **نبته** : وهى عاصمة مملكة النوبة فى القرن الثامن قبل الميلاد ، وكان من أشد ملوكها الملك بعانخى الذى غزا مصر واستولى على السلطة فيها من سنة ١٣٣٥ قبل الهجرة ٧١٣ قبل الميلاد إلى سنة ١٢٨٧ قبل الهجرة ٦٦٠ قبل الميلاد ووطّد خلال حكمه لها صلات تجارية وسياسية مع عدد من دول العالم كان على رأسها سوريا وفلسطين حتى أن ملوك هذين القطرين اعتبروه صديقاً لهم وحاميا لبلادهم (١٧٩) .

---

١٧٥ - قطف أزهار المواهب الربانية ص ١٨٥ هذا وجاء فى نفس الكتاب الإشارة إلى بعض سكان سنار ممن التقى بهم المؤلف مثل الشيخ عبد الله بن بخيت الذى التقى به فى سنار ، والشيخ إبراهيم القولباوى الذى التقى به فى مكة راجع ص ١٨٩/١٨٥

١٧٦ - جغرافية وتأريخ السودان ص ١١٤/١١٣

١٧٧ - تأريخ المسيحية فى الممالك النوبية القديمة والسودان الحديث للأب الدكتور ج . فانتنى طبع .

١٧٨ - جغرافية وتأريخ السودان لشقير .. وتأريخ السودان لمندور ص ٣٨

١٧٩ - تأريخ السودان لمندور ص ٣٢/٣٠ ، والجواهر الحسان ص ٧/٦

حدود السودان السياسية

أراضى السودان التى كانت تعرف بذلك باسم كوش [١٨٠] أو باسم الحبشة أو إثيوبيا [١٨١] هذه الأراضى تعرضت لغزو أجْنبى قاده ضدها الملك (بى) الأول ثانى ملوك الدولة المصرية السادسة (سنة ٣٧٠٣ إلى ٣٥٠٠ ق . م [١٨٢] إذ يروى أنه أرسل قائده أونا (UNA) إلى جهات كورسكو [١٨٣] فتم له بذلك إخضاع المنطقة ودانت له بالولاء قبائل تلك الجهة .

وفى عهد الملك (متوسوفيس) وهو الملك الثانى عشر من ملوك الدولة المصرية السادسة - تم غزو السودان أو بلاد التوانيت مرة أخرى بقيادة القائد (هرخف) ، وأسروا فيمن أسروا منه بعض الأقزام ممن كانوا يحسنون رَقْص الآلهة [١٨٤] .

وفى أيّام الدولة المصرية الثانية عشرة (٣٠٦٤ - ٢٨٥١ ق . م) أعاد (أوسرتسن) الأول ثانى ملوك هذه الدولة غزو أراضى السودان فمد حدود مصر جنوباً إلى الشلال الثانى [١٨٥] ثم جاء (أوسرتسن) الثالث خامس ملوك هذه الدولة فوصل بحدود مصر إلى شلال سمنة واعتبر ذلك حداً فاصلا بين أراضى الدّولتين . [١٨٦] هذا ولم تمر فترة حتى استرد السودان استقلاله وأمكنه أن يملك قراره السياسى بعيداً عن التأثير الأجنبى فأتاح له ذلك منح اللجوء السياسى بأرضه لمن هاجر

---

١٨٠ - كوش : اسم عرفت به أراضى السودان فى التوراة وفى الآثار المصرية راجع جغرافية وتأريخ السودان لشقير ج ٢ ص ٢٩٧ وراجع التوراة الملوك الأول ١٤ : ٢٥ والأيام الثانى ١٢ : ٢/١ الملوك الثانى ٢٣ : ٢٩ الأيام الثانى ٣٥ : ٤٠ والجواهر الحسان ص ز ، والتربية فى السودان ج ٣ ص ١ ، هذا وكوش لفظ عبرى معناه الأسود راجع الفصائل اللغوية للدكتور/ محمود فهمى حجازى وهو بحث قدم لمؤتمر مجمع اللغة العربية فى دورته ٥٨

١٨١ - إثيوبيا : اسم أطلقه اليونانيون على جميع بلاد السود راجع أطلس تاريخ الإسلام للدكتور حسين مؤنس الخريطة رقم ٢٨ العالم فى عصر البعثة النبوية (أوائل القرن السابع الميلادى) وراجع أيضا الخريطة رقم ٢٠ والخريطة ٣١ ، والخريطة ٣٣ وراجع الجواهر الحسان ص ح وراجع كتاب التوراة جاءت من جزيرة العرب ص ٩١ (صور مرفقة من الخرائط وتجدها فى الباب السادس من هذا الكتاب تحت عنوان خرائط) .

١٨٢ - جغرافية وتأريخ السودان لشقير ج ٢ ص ٢٩٩

١٨٣ - كورسكو .. بلدة صغيرة تقع على بعد ١٢ $\frac{1}{2}$ من الميل من السبوع وهى أقرب نقطة نيلية إلى أبى حمد راجع شقير ص ٩٢

١٨٤ - شقير ص ٢٩٩

١٨٥ - شقير ص ٣٠٠

١٨٦ - شقير ص ٣٠٠

إليـه من المصـريين (١٨٧) فـراراً من عـسْف وبطش الرعاة العمالقة أولئك الذين قدموا من آسيا الجنوبية وغلبوا المصريين على أراضيهم واستعمروها ستمائة سنة ونيفًا .

بين السودان ومصر :

خلال فترة استقلال السودان كوّن أهله مملكةً مُنظّمةً جعلوا (نبتـه بالقرب من مروى) عاصمةً لها وأسّسوا بها حضارة تجلّت فى أنواع شتّى فى الفنون والصّنايع .. (١٨٨) وبنوا جيشاً ساعدوا به الملك أحمس أوّل ملوك الدولة الثامنة عشرة على طرد الرعاة من مصر وإعادة استقلالها لها بعد أن توّجا علاقاتهما بالمصاهرة والنسب حيث تزوج ملك مصر آنذاك بنت ملك السودان . (١٨٩)

وفى عهد الملك (تحوتمس) الأول ثالث ملوك الدولة المصرية الثامنة عشرة (١٦٠٠ : ١٣٨٠ ق . م) أعيد احتلال السودان عسكرياً فأصبح بذلك تابعاً لمصر ، غير أنه ما إن استرد استقلاله عنها حتّى قام بغزوه مرة أخرى (امنحتب) الثالث المعروف (بامنوفيس) تاسع ملوك الدولة المصرية الثامنة عشرة ، وقد دوّن هذا الأخير خبر انتصاراته على صخرةٍ بقرب جزيرة فيلى فى جنوب الشلال الأول ، حيث جزيرة أنس الوجود ، وبنى لنفسه هيْكلا فى صُلب ، وآخر فى عاصمة نبتة ، ووضَع أمام بابه صَفَّين من الكباش الرابضة على هيئة أبى الهول . (١٩٠)

وفى عهد (حور محب) آخر ملوك الدولة المصرية الثامنة عشرة أعيد غزو السودان بعد أن نعم فيما يبدو فترةً باستقلاله ، وأصبحت له دولة ذات شأن وبأس ، بدليل أن النصّ الذى سجل فيه (حور محب) خبر انتصاره على السودان جاء فيه : لقد قدم المقدّس الفاضل بعد أن قهر كبار الأمم أجمع وقوسُه تلمع فى يده ، فحبّذا هذا الملك القادر الفخيم الذى جاء برؤساء إثيوبيا . (١٩١)

ثم كانت الدولة المصرية التاسعة عشرة (١٣٨٠ : ١٢٣٠ ق . م) وفيها

---

١٨٧ - كان أبرز مهاجر المصريين هو مهجر أزقو راجع شقير ج ٢ ص ٣٠١

١٨٨ - راجع الحضارة والدين للبروفسير حسن الفاتح قريب الله .

١٩٠ - شقير ص ٣٠٣

١٩١ - شقير ص ٣٠٤

غــزا (رعـمسيس) الثاني . (١٩٢) ثاني ملوكها أرضَ السودان ، وأقـام لـه فـي تلمس (كلابشة) هيْكلاً صغيراً نادر المثال ، حفره في الصخر تذكاراً لانتصاره ، وهو من أثمن الآثار القديمة في مصر وإثيوبيا ، وعلى جدرانه نقـوش صـور وكـتـابات رائعـة الصنع .

ولرعمسيس المذكور آثار أخرى بالسودان منها :

١/ هيكل منحوت في صخرة في (الدر) .

٢/ هيكل من الحجر الرملي الصلب أقامه في (السُّبوع) .

٣/ قلعه بوادي (السُّبوع) . (١٩٣)

٤/ هيكل أبي سمبل على بعد ١٧٠ميلاً من الشلال الأول ، وهو هيكل عظيم منحوت في الصخرة في منحدر أكمة مرتفعة فوق النيل ، أقامه رعمسيس تذكاراً لانتصاره على الحيثيين في الشمال الشرقي من سورية وهو أجمل وأعظم الهياكل في إثيوبيا الشمالية أو السودان ؛ بل لقد ورد بأن في صنعه ونحته من العظمة مع البساطة على مالايوجد في غيره من هياكل وادي النيل كلّها .(١٩٤)

٥/ هيكل نبته .. وهو أقدم الهياكل :- فيما يبدو - بتلك المدينة (١٩٥) هذا وفي الفترة التي أعقبت انقضاء الدولة العشرين خرج السودانيون عن طاعة مصر واستقلوا ببلادهم فتسنَّى لهم بذلك تكوين دولة علا نجمها وذاع صيتها فأصبحت لها بذلك الريادة والسيادة في كل المنطقة، بل لقد روى أنها مدت حدودها فضمت إليها بعض الأراضي المصرية ، ودحر ملكها (الملك بعنخي) هجومًا للملك (تفتحْت) حاول به استرجاع بعض أراضي بلاده على أنه ما إن استسلم الأخير لسطوة الملك بعنخي حتى أقامه نائبا له بمصر مُقراً كذلك أمراءه على ما كانت لهم من

١٩٢ - رعمسيس الثاني هو ابن أمينوفيس أو أمونفاثيس كما كان يعرف قديماً وهو اسم لفرعون مصر الذي عاصره سيدنا موسى عليه السلام راجع هامش كتاب تاريخ مختصر الدول للعلامة غريغوريوس أبي الفرج بن أهرون الطبيب الملطي المعروف بابن العبري تصحيح وفهرست الأب أنطون صالحاني اليسوعي طبع دار الرائد اللبناني بلبنان سنة ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م . هامش ص ٢٧

١٩٣ - شقير ص ٣٠٦

١٩٤ - شقير ص ٣٠٦

امتيازات سابقة فى عهد مليكهم - جاعلا له ولهم من مدينة (نبتة) عاصمة للمملكة الموحّدة التى ضمّت (السودان ومصر). (١٩٦)

وانقضت أيّام الملك بعنخي .. وفى أيّام ابنه الملك (كاتشا) أو (كاشتا) ثار عليه نائبه بمصرالملك (تفنت) ، ثم من بعده ابنه (باكوريس) واستطاعا استرداد مصر من قبضة السودانيين ، غير أن الملك السودانى (سباقون) ابن الملك (كاتشا) أعاد فتح مصر مرة أخرى بعدأن قتل ملكها (باكوريس) ،وبذلك أسّس دولة عرفت فى تأريخ مصر بالدولة الخامسة والعشرين الإثيوبية (٧١٥ : ٦٦٤ ق.م) .

هذا ومما يذكر عن الملك (سباقون) أنه كان رجلاً عدلاً فخوراً ، محبًا للتقدم والإصلاح ، بدليل أنه لما تولى سرير الملك شرع فى تنظيم مصر وضبْط إدارتها ، فأبقى كل رئيس على إقليمه مع حفظ نفوذه على الرؤساء بمراقبة أمراء إثيوبيين له وجعل شقيقته (آمن ريتس) ملكة على الوجه القبلى فى ثيبه وأنشا بمصر الجسور ، وأكثر من حفر الترع حرصًا على البلاد من أن يمسها غرق ، ورّمم كثيرا من المعابد ، واستبدل عقوبة القتل بالأشغال الشاقة ، واشتهر بحسن التّدبير ، وجودة السياسة فتمتعت مصر فى عهده بالراحة والاستقرار والأمان والرخاء . (١٩٧)

على أن طموح هذا الملك ورغبته فى التوسع ، وبسْط نفوذه على بلاد الشام وحرصه على مساعدة (هوشع)ملك إسرائيل ، وتحالفه معه ضد (شلمنصر) ملك آشور الذى كدّر صفاء الفينيقيين والإسرائيليين والفلسطينيين كل ذلك عجل بحتفه وزوال سلطانه - حيث هزم فى حربه ضد الملك آشور من ناحية ، وثار عليْه سكان الوجه البحرى تحت رئاسة (اسطيفانيس) أحد أقرباء الملك (باكوريس) من ناحية أخرى ، وبذلك زال ملكه بمصر وانحصر سلطانه داخل بلاده بالسودان . (١٩٨)

بعد أن مات (سباقون) استطاع الملك (سبيخون) أن يستعيد حكم مصر ويخضعها

١٩٦ - شقير ص ٣١٥/٣٠٧
١٩٧ - شقير ص ٣١٦/٣١٥

لسيطرته ، على أنه ما إن استتب له الأمر حتى ثارعليه أحد أمرائه من السودانيين واسمه (طهراق) فقضى على ملك (سبيخون) ونصّب نفسه ملكا بدلاعنه ثم زحف طهراق على اسطيفانيس وحرر (منف) من قبضته واستدعى من بعد أمُه من السودان فولاّها حكم الوجه البحرى والقبلى ومنحها لقب (سيدة الأمم) .(١٩٩)

وفى النصف الأول من القرن السابع قبل الميلاد تعرضت مصر لغزو أجنبى من الأشوريين انسحب على إثره السودانيون من مصر ، ثم وفى سنة ٦٦٩ ق.م عاودوا فتحها فصدهم عنها الأشوريون ، على أنهم ما إن علموا بعودة الملك آشور إلى بلاده (نيترى) حتى استرجعوا من أمرائه أملاكهم ، وظلوا حكاما عليها فترة بلغت فى مجموعها عشرين عاما .

هذا وقد انسحب الملك طهراق من مصر بمحض اختياره ولما توفى بالسودان تولى الملك من بعده صهره (أوردآمن)ثم خلفه الملك (توات ميامون) (٢٠٠) وفى عهد هذا الأخير تم فتح السودان لمصر فتوحّدت قيادتها السياسيه تحت إمرة السودانيين بعد أن ساعدهم على النصر إخوانٌ لهم كانوا قد كونوا حزبًا قويًا فى (ثيبة) وضواحيها وأقاموا فيها زمانًا حائزين لرتبة الكهانة فى معبد (آمن رع) (٢٠١) وفى آخر أيام هذا الملك الأخير تآمر ضده بعض وجهاء مصر واقتسموا الملك بعده فيما بينهم وكانوا اثنى عشر حاكما فسمِّيت حكومتهم بالمقاقمة الأنثى عشرية وداموا على ذلك خمس عشرة سنة إلى أن قام أحدهم وهو (بسامتيك) بلاستئثار بمفرده بحكم مصر ، مستعينا لتحقيق ذلك ببعض المرتزقة من اليونانيين الذين آزروه فى التخلص من منافسيه من ناحيه ، ثم فى إبعاد السودانيين إلى خارج أسوان من ناحية أخرى منهين بذلك فترة ٤٩ سنة شهدت فيها مصر باعتراف المؤرخين عدالة لم تشهدها من قبل . (٢٠٢)

١٩٨ - شقير ص ٣١٦
١٩٩ - شقير ص ٣١٧/٣١٦
٢٠٠ - شقير ص ٣١٨/٣١٧
٢٠١ - شقير ص ٣٢٠/٣١٨
٢٠٢ - شقير : جغرافية وتأريخ السودان ص ٣٢٠

بعض أشهر لغات السودان قديماً :

اللغات السامية التى دخلت المناطق السودانية عن طريق الشرق منذ القرن العاشر قبل الميلاد كانت تشمل :

أ/ لغة الجِعِز (الكِعِز) : Gueze Geez

وهذه اللغة هى أقدم ماوصل إلينا مدونا من اللغات السامية بالسودان .. ويتمثل المحفوظ منها حاليا ومن القرن الثالث الميلادى – فى نقوش خالية من الحركات ، علما بأنّ ما على اللغة من حركات فى العصر الحاضر هى حركات حادثة نسْبيًا إذ يرجع تأريخها إلى القرن الخامس بعد الميلاد .. هذا وكانت اللغة المذكورة ذات تراكيب ومعان أشبه ماتكون باللغة العربية الفصحى .. (٢٠٣) وهى وإن أخذت تنقرض منذ القرن الثانى عشر الميلادى فقد بقيت حيّة بفعل الكنيسة وإن انحصرت دائرتها فى نطاق ضيق لايكاد يتعدى الطقوس الدينية .

ب/ اللغة التّجْرية (التكرية) : (٢٠٤)

Tigré : Tigre

وهى لغة تنتسب إلى منطقة التِّجرِى وكانت منتشرة فى منطقة تمتد من مُصَوِّع إلى كَسَلا ويتحدث بها الارتريون وسكان جزيرة (دهلك) وقد أخذ فى تدوينها منذ أوائل هذا القرن .(٢٠٥)

ج / اللغة التجرينية (التكْرينية) :

Tigrigana (Tigri) Tigrinya : Tigrai

وكانت كسابقتها تنتشر فى منطقة تمتد من مُصوّع إلى كَسَلاوتحدث بها كذلك بعض سكان شمال السودان .(٢٠٦)

د/ اللغة الأمهرية : Amharic

وهى لغة ذات طابع كوشى وكانت أكثر انتشارا من سابقتها إذ تحدث بها بعض سكان شمال السودان وشرقه كما تحدث بها سكان

٢٠٣ – العربية هى إحدى اللغات السامية الجنوبية التى كانت تنتشر فى شمال وجنوب شبه الجزيرة العربية وفى الحبشة (السودان) وأقدم نص عربى قديم وصل إلينا منها يرجع تاريخه إلى سنة ٣٧٨ بعد الميلاد علما بأن العربية المذكورة ذات مراحل تاريخية متعددة ومستويات لغوية شتى وقد استخدم القرآن منها اللغة الفصيحة وعليه فيها اعتمد النحاة فى وضع قواعد اللغة العربية كما اعتمدوا على كلام العرب شعراً ونثراً حتى منتصف القرن الثانى الهجرى بالنسبة للحضر وأواخر القرن الرابع بالنسبة للبدو (راجع الفصائل اللغوية للأستاذ دكتور محمود فهمى حجازى ص ١٢/١١) .

٢٠٤ – نفسه ص ١٤

٢٠٥ – نفسه ص ١٤/١٥

٢٠٦ – الفصائل اللغوية ص ١٥

الحبشة فى حدودها الحالية ، وأقدم ما وصل إلينا من نصوصها يرجع إلى القرن الثالث عشر الميلادى (السابع الهجرى) . (٢٠٧)

هـ/ اللغة التى تسمى اصطلاحا بالمصرية القديمة (الهيروغليفية):

وهى لغة استخدمت فى الكلام والكتابة فى السنوات (٣٢٠٠- ٢٢٤٠ق.م) إبان عهد الدولتين القديمة والوسطى اللتين امتدت حدودهما الجغرافية والسياسية حتى سمنة ؛ الأمر الذى جعل الغزاة الهيروغليفية لغة رسمية للسودان سجّل بها الأخيرون آثارهم ، واستخدموها فى الكلام والكتابة تبعا لمن احتلوا بلادهم .

و/ اللغة التى تسمى ا صطلاحا بالمصرية الحديثة

وهى لغة استخدمت فى الكلام والكتابة فى عهد الأسرة الثامنة عشرة التى كان للسودانيين الدور المعلّى فى إنشائها وتكوينها واستقرار أمورها إذ ساعدوا بجيشهم ملكها أحمس أول ملوك الدولة الثامنة عشرة على طرد الرعاة من مصر وإعادة استقلالها بعد أن توجا علاقات الجوار بينهما بالمصاهرة والنسب حيث تزوج ملك مصر آنذاك بنت ملك السودان . (٢٠٨)

فى عهد هذه الدولة ذات النفوذ السِّياسى والعسكرى للسودان فيها على مصر والتى ظلت قائمة حتى عهد البطالمة استعمل السودانيون الكتابة الهيروغلوفية كما استعملوا الخط الهيراطيقى (٢٠٩) · علما بأنه فى أواخر القرن السادس قبل الميلاد هاجر إلى مملكة مروى عاصمة السودان الشمالى آنذاك – آلاف من المصريين غضبا من الملك بسامتيك الأول مؤسس الدولة المصرية السادسة والعشرين (٦٤٤-٥٢٥ ق . م)حيث آثر عليهم جيشا كوّنه من اليونان .

وفى السودان نعم المهاجرون بترحيب وإكرام خاص من ملك البلاد رووا أنه أقطعهم أراضى اتخذوها لهم موطناً استقروا به وتوالدوا فنشأت من ذريتهم طائفة كبيرة نالت شهرة ومكانة عند ملوك السودان حتى أنهم أجلسوهم على

---

٢٠٧ - الفصائل اللغوية ص ١٥
٢٠٨ - جغرافية وتاريخ السودان لشقير ص ٣٠٢
٢٠٩ - الفصائل اللغوية ص ١٦

يسارهم وأسموهم طائفة (الأسماخ) أو (الأتومولى). (٢١٠)

فى عهد هؤلاء الأسماخ أو الأتومولى أخذت الكتابة الهيروغلوفية المذكورة سابقا - صورة مختصرة غير الهيراطيقية أطلقوا عليها اسم (الديموطيقية) وظلت فى السودان كما هو الحال فى مصر لغة كتابة طوال العصور الصاوية واليونانية والرومانية (٢١١).

هذا وقد استعان ملوك السودان بالأسماخ أو الأتومولى المذكورين فألحقوهم بجيش البلاد ليردوا لهم ما كان لأسلافهم فى بلادهم من مكانة سلبها منهم اليونانيون .. على أن السودان لم يلبث أن غزا مصر بهؤلاء المهاجرين وبغيرهم من السودانيين وذلك فى سنة ٥٩١ ق . م إبان عهد بسامتيك الثانى ثالث ملوك الدولة المصرية السادسة والعشرين (٢١٤).

ز / اللغة المروية :

ح/ اللغة القبطية : وكانت قد شاعت هذه اللغة بالسودان إبان العصر النصرانى وعلى الأخص بعد أن عظم الاتصال بين النوبة والإسكندرية حتى أنه ليروى أن مطارنة النوبة كانوا يفدون إلى السودان من الإسكندرية بعد أن ينصبهم لهذا الغرض بطريرك الأقباط .. هذا وكانت اللغة القبطية المذكورة تكتب بأبجدية أخذت أربعة وعشرين حرفا من الأبجدية اليونانية وسبعة أحرف من الخط الديموطيقى (٢١٣)

ط/ لغة البجة (او اللغة البشارية :

وهى لغة كوشية كانت تنتشر على ساحل البحر الأحمر فى المنطقة الشمالية الشرقية من السودان ، على أن دائرة انتشارها حاليا قد انحسرت بعد أن عمت اللغة العربية كل أجزاء السودان بحدوده الحالية .

---

٢١٠ - جغرافية وتاريخ السودان لشقير ص ٣٢٣

٢١١ - الفصائل اللغوية ص ١٦ وتاريخ السودان لمندور ص ٥٠

٢١٢ - جغرافية وتاريخ السودان ص ٣٢٣

٢١٣ - الفصائل اللغوية ص ١٦

ى/ **اللغة العربية :**

تعد اللغة العربية (٢١٤) من حيث الخصائص الصوتية والصرفية أقرب اللغات من اللغة السامية الأم .. وكانت قد انتشرت قديما فى المنطقة التى تحد من الجنوب الشرقى بالخليج العربى ، ومن الشمال الشرقى ببلاد مابين النهرين ، ومن الجنوب الغربى بالهضبة الحبشية ، ومن الشمال الغربى بالبحر الأبيض المتوسط وامتدت شمالا على مدى عدة قرون إلى الأندلس فى عهد الدولة الإسلامية بها .

هذا وتنقسم اللغات السامية إلى :

١/ **السامية الشرقية :** وهو مصطلح يطلق فى إطار التقسيم الجغرافى للغات السامية على اللغه الأكدِيّة ؛وهى كما ورد لغة العراق القديمة وكانت كتابتها بالأحرف المخروطية الشكل مقطعية وليست أبجدية .

٢/ **السامية الغربية :** وهى مصطلح يُطلق فى إطار التقسيم الجغرافى على اللغات السامية التى انتشرت فى الشام والجزيرة العربية والحبشة .

٣/ **السامية الشمالية .**

٤/ **السامية الجنوبية :**

ومنطقة انتشارها قديما شبه الجزيرة العربية شمالها وجنوبها والحبشة . فى إطار هذه اللغة السامية الجنوبية نشأت اللغة العربية .. والأخيرة تسمية عامة تشتمل على كل مستويات اللغة العربية من النقوش القديمة والشعر الجاهلى والقرآن الكريم والحديث الشريف ولغة الآداب والعلوم واللهجات فى عصر ازدهار الحضارة الإسلامية إلى العصر الحديث علما بأنه وفى داخل العربية المذكورة مراحل تأريخية متعددة ومستويات لغوية شتى ، ويستخدم الباحثون لوصفها مصطلحات مختلفة مثل :

٢١٤ - بالرغم من أن اللغة العربية أقدم تأريخيا من اللغتين الكنعانية والآرامية وبالرغم من أن اللغات الثلاثة المذكورة كانت تستخدم لدى مجتمعات مختلفة فى غرب شبه الجزيرة العربية - إلا أنه من المرجح أن اللغة الكنعانية (التى تمثل اللغة العبرية لهجة من لهجاتها) كانت قد ماتت أو كادت فى سنة ٥٠٠ ق . م وحلت محلها اللغة الآرامية فأصبحت فى ظل حكم الاخمينيين لغة الإدارة فى أنحاء الإمبراطورية الفارسية واللغة المشتركة لمنطقة الشرق الأدنى .. هذا وبحلول القرون الأولى لميلاد سيدنا المسيح عليه السلام - كانت اللغة العربية وهى أصلاً لغة القبائل الرعوية للبادية الشامية العربية وكذلك فى أجزاء من العراق والشام غير تاركة سوى جيوب صغيرة من المتكلمين بالآرامية فى هاتين المنطقتين الأخيرتين فى القرن السابع أو الثامن للميلاد (راجع التوراة) .

أ/ العربية الفصحى .

ب/ العربية المولّدة .

ج/ العربية المعاصرة .

د/ اللهجات العربية .

ولما كانت اللغة العربية لغة أصيلة بالسودان ، انتشرت بين أهله فى نفس الوقت الذى انتشرت فيه بين سكان شمال وجنوب شبه الجزيرة العربية (٢١٥) فقد كان من الطبيعى أن يتحدث بها عامة المواطنين وخاصتهم ، بل وأن يستخدموا اللغة الفصحى منها بكفاءة تجلّت مظاهرها فيما يلى :

١/ **مكنتهم** من أن يفهموا ويتأثروا بالدعوة الإسلامية التى شرحها لخاصتهم وعَبْرهم لعامتهم سيِّدناجعفر بن أبى طالب .

٢/ **مكنتهم** من أن يفهموا ويُقدِّروا ويستجيبوا لخطاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إليهم .

٣/**مكنتهم** من أن يتعاملوا تجاريا مع جيرانهم فى الشرق .

٤/ **مكنت** بعض النصارى من أن يؤثّروا على عُبَيْد الله بن جحش فيرتدّ - والعياذ بالله - عن الإسلام .

٥/ **مكنتهم** مِنْ أن يتعاملوا مع من هاجر إلى بلادهم من الصحابة .

٦/ **مكنتهم** من أن يستجيبوا لعمرو بن أمية بن خُويلد الضّمرى مبعوث رسول الله صلى الله عليه وسلم للنجاشى فيردوا معه المسلمين على ظهر سفينتين خصّصها لهذا الغرض .

٧/ **مكنتهم** من أن يستمعوا ويستهجنوا دعوة عبد الله بن ربيعة مبعوث المشركين للإيقاع بالمسلمين ، مما جعله يرجع هو وصحبه خائبَين .

٨/ **مكنت** النجاشى من أن يُقنع عمرو بن العاص بالدعوة الإسلامية فيسلم على يديه .

٩/ مكّنت الأفراد والجماعات من أن يهاجروا طلبا للاستقرار النهائى أو المؤقت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم .

١٠/ مكّنت أسرا كاملة من أن تستقر حتى قبل ظهور الإسلام بمكة وغيرها من بلاد العرب .

حسن الفاتح قريب الله

عضو المجمع المراسل

من السودان

٢١٥ - الفصائل اللغوية للأستاذ الدكتور محمود فهمى حجازى ص ١٢/١١

الأعلام الجغرافية والأمم المتحدة ★

للأستاذ الدكتور عبد الهادى التازى

لا يمكن لأى مشروع تنموى - كيفما كان شكله وحجمه - أن يتم دون أن تكون هناك خريطة تحدد موقع المشروع كخطوة أولى لمعرفة حظوظ نجاحه ، ولن تكون الخريطة قائمة إلا باشتمالها على عدد من الأعلام الجغرافية التى من شأنها أن تساعد على ضبط مكان المشروع وتحديد آفاقه .

وحتى يكون هناك ضبط للخريطة وللعلم الجغرافى يسهّل على الخبراء فى مختلف جهات العالم ، أن يلتقوا فيه على مائدة واحدة ويتحدثوا بلسانٍ واحد ومصطلحٍ واحد ، فكرت الأمم المتحدة فى أن تعهد إلى المجلس الاقتصادى والاجتماعى (ECOSOC) بإنشاء مؤتمر عالمى مفتوح بصفة مستمرة يُعنَى بالخرائط ويضبط العَلَم الجغرافى ليس فقط لأن ذلك وسيلة فعالة من وسائل التنمية . وليس فقط لأنه وسيلة فعالة من وسائل التقارب بين الأمم ، ولكن لأن العَلَم الجغرافى تراث من حق كل بلد ، بل ومن واجبها كذلك أن تحتفظ به وتنطق به كما هو عندها . ومن حقها أن تفرض على الأمم المتحدة نفسها طريقة النطق بذلك العلم وطريقة كتابته على سائر الخرائط التى تروج فى العالم كله ..

وإن الدور الهام الذى تقوم به الخريطة فى عالمنا الحاضر بما تجدد فيه من تطورات ، وماعرفه من تغيّرات . كلّ ذلك يكوّن تحدياتٍ جديدة للمهتمين بالخريطة وبالتالى للمهتمين بالعلم الجغرافى حتى نسهل الاتصالات وحتى نتجنب الأخطاء التى حرص أسلافنا على تلافيها فى العلم الجغرافى الذى كان تحريفه عندهم بمثابة تحريفِ نصٍ مقدس !!

نحن نعلم أن السبب فى تأليف ياقوت الحموى لموسوعته العظيمة : (معجم البلدان) إنما كان ضبطَ علم جغرافى ورد فى حديث نبوى شريف ، فلقد كان ياقوت بمرو الشاه خان ، فى مجلس يناقش موضوعَ أسواق العرب فى الجاهلية وضبطِ كلمة (حُبَاشة) حيث كان الرسول صلى الله عليه وسلم يتجر لحساب السيدة خديجة ، فرأى ياقوت أنها بضم الحاء ، ورأى أحدهم أنها بفتح الحاء ، فاندفع ياقوت يبحث عن نصوص تؤيد ما ذهب إليه وطال بحثه حتى وقع على مايؤيد رأيه ، ومن هنا جاء تفكيره فى وضع موسوعة تحتوى على 12.953 فقرة تضبط أسماء البلدان على ما يقوله هو فى المقدمة مغتنما هذه الفرصة ليردً

★ ألقى هذا البحث فى الجلسة الحادية عشرة من مؤتمر المجمع بتاريخ ٥ من ذى القعدة سنة ١٤١٥هـ الموافق ٥ من أبريل (نيسان) سنة ١٩٩٥م .

على المثل السائر القائل : « ما ترك الأول للآخر شيئاً » وليردّد قولة الجاحظ : « ليس هناك أضرُّ على العِلم من ذلك المثل الذى يفتر الهمة ويضعف المنة » على حد تعبير ياقوت ..!

فمن أجل ضبط العَلَم الجغرافى اليوم تمت الدعوة فى الأمم المتحدة إلى التعاون الدولى من أجل تحقيق رسالة المؤتمر العالمى الهادفة ، بكل صدق ، إلى غرضٍ شريف يتمثل فى أن تضيف كل دولة ماعندها من رصيد حول هذا الموضوع ؛ موضوع العلم الجغرافى تأليفًا وجرداً وضَبْطًا سواء على صعيد الخريطة أو على صعيد السجلات ...

وقد أوصى المجلس الاقتصادى والاجتماعى كذلك بإنشاء هيئة للخبراء فى الأعلام الجغرافية تعمل على إنجاح أهداف المؤتمر الدّولى الذى نتحدث عنه ، وعلى هيئة الخبراء أن تجتمع على رأس كل سنتين .. حيث يستمع الخبراء لتقارير كل دولة بما أنجزته من أعمال فى ميدان الخريطة على صعيد الجامعة أو على صعيد المجامع والأكاديميات والجمعيات الجغرافية الوطنية . وهنا نجد بطبيعة الحال عدداً من الأقسام :

قسم أوربا ، وقسم أمريكا ، وقسم آسيا ، وقسم إفريقيا ، وقسم العالم العربى .

وبالرغم مما يتراءى من أن هذا المؤتمر علمى تقنى ، لكنا نلاحظ أنه يتخذ أحيانًا طابعًا سياسيًا عندما يتعلق الأمر بالانقسامات والخلافات الناشئة بين الدول عندما تتعارض مصالحها على الحدود فيما بينها ، فهنا نجد أن دولة ما تختار هذا العَلَم ليعبر عن إقليم ما من أقاليمها بينما تحاول الدولة الجارة أن تفرض عَلَمًا محدداً تعتقد أنه هو الذى يؤدى الحقيقة التاريخية .

وأمامنا اليوم الأعلام الجغرافية فى دولة فلسطين التى نراها تتعرض للتحريف والتزييف ، ومن هنا كان اهتمام المؤتمر بمحاربة الأسماء الدخيلة وإعطاء الشرعية للأعلام الأصيلة التى وردت فى كتب التراث العربى .

ينبغى أن أذكر هنا أن اللغة العربية - بفضل عملنا الدائب المستمر - أصبحت لغةً رسميةً للمؤتمر ، وأصبح فى استطاعة الأعضاء العرب أن يختاروا - إذا شاءوا - أن يتحدثوا باللغة العربية التى تترجم فوراً إلى سائر الأعضاء الذين بلغ عددهم مئة وستين عضواً فى الدورة الأخيرة التى انعقدت فى نيويورك يونيه 1994، وفى استطاعة كل دولة عربية أن تقدم تقاريرها وخرائطها باللغة العربية .

وقد كان من أبرز مبرِّرات حضور اللغة العربية فى أعمال هذا المؤتمر العالمى ، أن هذه اللغة أسهمت بتآليفها فى الجغرافيا وبرجالها المرموقين فى الفكر الجغرافى ، أقول أسهمت بما يعتز به العالم اليوم من تراث جغرافى . وقد كان فى صدر ما يهتم به المؤتمر لتحقيق أهدافه طريقة أداء الحروف العربية بالحروف اللاتينية على نحو ما يهتم بطريقة نقل الحرف اليونانى والروسى مثلا إلى الحروف المتداولة .

المشروع المعروض للمصادقة	طريقة الموسوعة الإسلامية	مقترح بيروت المعدل	الحرف العربي
A	A	A	الهمزة: في الأول أ
U	U	U	أ
I	I	I	إ
ↄ	ↄ	ↄ	في الوسط والآخر
B	B	B	ب
T	T	T	ت
TH	TH	TH	ث
J	DJ	J	ج
Ḥ	Ḥ	Ḥ	ح
KH	KH	KH	خ
D	D	Ḍ	د
DH	DH	DH	ذ
R	R	R	ر
Z	Z	Z	ز
Ṭ	Ṭ	Ṭ	ط
D	Ẓ	Ẓ	ظ
K	K	K	ك
L	L	L	ل
M	M	M	م
N	N	N	ن
Ṣ	Ṣ	Ṣ	ص
Ḍ	Ḍ	Ḍ	ض
C	C	ʿ	ع
GH	GH	GH	غ
F	F	F	ف
Q	Ḳ	Q	ق
S	S	S	س
SH	SH	SH	ش
H	H	H	هـ
W	W	W	و
Y	Y	Y	ي

وهنا أذكر أننا . نحن المجموعة العربية فى المؤتمر - دائماً نصطدم بأنّ الأخوة العرب لا يتفقون على طريقةٍ واحدةٍ على نحو ما تتفق عليه المجموعات الأخرى المهتمة - كما أشرنا - بأمر الحرف الروسى والحرف اليونانى .. لماذا لَمْ نتفق ؟ لأن كل واحد يريد أن يجر النار إلى قُرْصه كما يقول التعبير العربى .. بعضنا متأثر بما خلفه فيه الاستعمار الإنجليزى وبعضنا متأثر بما خلفه الاستعمار الفرنسى ، وأنتم تعلمون أن أمامنا فى المؤتمر العالمى ثلاثَ مشروعات :

١ - المشروع الذى يُعرف بمشروع بيروت المعدّل .

٢ - المشروع الشهير الذى تتبعه إلى اليوم الموسوعة الإسلامية .

٣ - المشروع الأخير المعروض للمصادقة .

وإذا كنا قد اتفقنا على معظم الحروف فإن هناك نقاطًا لا تزال محل خلاف (صورة من الجدول) .

أولاً - الجيم : الموسوعة تكتبها كذا DJ ونحن نتجنب حرف D ونكتفى بـ : J

ثانيا - الظاء : الموسوعة الإسلامية تكتبها Ẓ ونحن نتجنب حرف Z ونكتبها : D̲

ثالثاً - القاف : الموسوعة تكتبها K ونحن نكتبها : Q

وإلى جانب هذا يهتم المؤتمر العالمى بالطريقة المثلى التى تمكن من أداء الحرف اللاتينى بالحرف العربى ، أعنى الطريقة التى يقع عليها الاتفاق من سائر الدول العربية - وهنا نلاحظ أيضاً ومع الأسف - أن البلاد العربية منقسمة على نفسها حول هذا الموضوع ، وهكذا نجد إخواننا فى مصر ينطقون حرف الكاف المعقودة جيما ، مثلاً : (دوكول) يكتب فى المطبوعات المصرية (دوجول) ، و(كيب) يصبح (جيب) و(بيكوفيتش) يُسمى (بيجوفيتش) ، بينما إخواننا فى سوريا يؤدون حرف (ك) بالغين ، فيقولون (دوغول) ، و(غيب) أو (بيغوفيتس) ، بينما يكتبه المغاربة على أشكال أخرى .

وفى إطار التوصية التى صدرت عن الدورة السابعة عشرة للخبراء العالميين المنعقدة فى نيويورك (على ما أسلفنا) تم تأليف لجنةٍ خاصة لإعداد الاحتفال بمرور ثلاثين سنة على إنشاء المؤتمر العالمى المذكور . وقد كان فى صدر ما فكرت فيه هذه اللجنة من تظاهراتٍ ثقافية تخصيص يومٍ فى السنة لتحسيس الجمهور بأهمية العلم الجغرافى ... وكان مما تقرر

من توصيات كذلك تكريم الرحالة المغربى الكبير أبى عبد الله محمد بن بطوطة الطنجى باعتباره أحد الروّاد المواقعيين (الطّوبُونيمِسط) الذين أسهموا بصفةٍ فعالة فى الحفاظ على العَلَم الجغرافى صيانةً وإنقاذاً من التحريف والتزييف .

فعلاً كان ابن بطوطة من الأوائل - إن لم يكن هو الأول - الذين حرصوا على أن يَشْكُلوا العلم الجغرافى بالتحريكات والتسكينات الموصوفة ، أى إنه عندما يورد العَلَم سواء كان فى المشرق أو المغرب يُحركه ، وجدناه مثلاً عندما يذكر مدينة (بَيْوَم قُطْلُوا) يشكلها قائلاً :إنها بباء موحدة مفتوحة وياء ساكنة وواو مفتوحة وميم ، وقاف مضمومة وطاء مسكنة ولام مضمومة وواو .

وقد أكبر زملاؤنا فى هذا المؤتمر العالمى من بلاد الصين الذين حرص ابن بطوطة على ذلك النوع من الضبط مؤكدين أنه يدل على أن ابن بطوطة زار الصين فعلاً خلافًا لما أشاعه بعض المستشرقين الذين أنكروا أن يكون ابن بطوطة وضع قدمه فى الصين ! لمجرد أنه استعصى عليه تحديد موقع عَلَمٍ من الأعلام .

أريد القول : إن الخبراء الجغرافيين تنبهوا للمعروف والجميل الذى قدمه الرحالة المغربى للعَلَم الجغرافى الذى لولا صنيعُه ذاك فى العصور الوسطى لضاعت علينا طريقة النطق الصحيح بعددٍ كبيرٍ من الأعلام الجغرافية .

وقد كان مما يهتم به المؤتمر العالمى للأسماء الجغرافية الطريقة المثلى لتلقى العلم الجغرافى من سكان المناطق التى نلتقط فيها هذا العَلَم .. فعلاوةً على المصادر التاريخية التى نستقى منها العَلَم الجغرافى سواء أكانت هذه المصادر نثراً أم شعراً ، وعلاوةً على التآليف الجغرافية المخصصة للمواقع الجغرافية ، علاوةً على كلّ ذلك فإن المصادر الشفوية لها أثرها على مصداقية الحديث عن الأعلام الجغرافية تمامًا على نحو ماكان أسلافنا من أمثال ياقوت الحموى والشريف الإدريسى يتلقون هذه الأسماء من سكان النواحى ...

وقد حرص المؤتمر العالمى لتنميط الأعلام الجغرافية على الحصول على أكبر ما يمكن من مصطلحاتٍ جغرافية تتفق عليها المجامع والأكاديميات فى كل جهات العالم ، وعندما كنا نتحدث للخبراء هناك عن جهد مجمعنا هنا فى القاهرة وعما يقوم به من أعمال كنّا نتلقى مختلف الإشادات وموفور التهانى .

ولابد أن أذكر هنا أن أعمال المؤتمر لا تقتصر على الأعلام الجغرافية على وجه البسيطة ولكنها تتجاوزها إلى ابتكار أعلام تحتاجها التطورات التى ظهرت على الساحة العلمية، تحتاجها فى بطون البحار عندما أصبحنا نرى ونسمع عن رواد البحار الذين يقدمون لنا عبر التلفاز ، تقاريرهم عما يوجد تحت الماء ....

المؤتمر العالمى يطلب إلى أعضائه أن يساعدوه على تقديم أسماء وابتكار أعلام لتلك العوالم التى نكتشفها يومًا عن يوم .

وعلى نحو ما نقوله عن جوف البحار نقوله كذلك عن الفضاء الذى أصبح مغزوًا من لدن العلماء حيث أصبحنا نشاهد نزول الإنسان على سطح القمر .

وهكذا فإن المؤتمر العالمى للأعلام الجغرافية تجاوز أيضًا عالم الأرضين ليطلب إلى المجموعة العربية أن ترشح له أسماءً لعلماء أعلام ، يطلقها على مناطق القمر حتى تصبح مصطلحاتٍ يستعملها رواد الفضاء .

تلك طموحات المؤتمر الدولى الذى اشترك فى أعمال خبرائه ، السنة الماضية - كما قلنا - 160 مُمثلاً وملاحظًا عن ستٍّ وستين دولة من دول العالم وست مؤسسات متخصصة ومنظماتٍ غير حكومية وثلاث منظمات علمية دولية ..

والإجماع من كلّ هؤلاء على ضرورة أنْ تنشئ كل دولة لجنة أو هيئة تتألف من المؤرخين والجغرافيين والاجتماعيين تنكب على جمع وضبط الأعلام الجغرافية الموجودة بها على أساس خريطة مدققة تعتمد على مقياس لايقل عن 1/50000.

ومن المهم أن أذكر أن بعض الدول الغربية (بِالْغَين) ماضية فى طريقها لجرد سائر أعلامها الجغرافية (كانادا) مثلاً تسير فى مسح كل أراضيها - على سعتها - لإعداد سجلاتٍ تضبط الأعلام بمساحتها ومعناها .. وعندما ينتهى العلماء الجغرافيون إلى الحقيقة النهائية حول علم من الأعلام تتخذ الحكومة - على أعلى مستوى - قراراً باعتماد وتزكية ما وصل إليه علماؤها فى الجغرافية ، ومن ثمت فإنه لا يجوز لأية سلطةٍ ولا جهةٍ أن تتصرف فى ذلك العَلَم تبديلاً أو تحريفاً ، وهم يعتبرون أن أى تغيير يلحق بذلك العَلَم يعتبر عدوانًا على التراث يُتابع صاحبه ...!

وفى مقابلة هذا نجد أننا ، فى عالمنا العربى الزاخر بكل المعطيات ، مقصّرون أوّلا فى إعداد السجلات وفى تدقيق النشرات الجغرافية التى تتعلق بكل دولة ؛ فإننا قد نقرأ أو نسمع عن اسمٍ جغرافى يُنطق به محّرفًا

فى وسائل إعلامنا : « إذاعة ، تلفزة ، صحافة » ، ولا نقوم بواجبنا فى تصحيح الخطأ والعودة إلى الصواب ولا نقوم بواجبنا فى تحسيس الجمهور بأهمية العلم الجغرافى : مَن أملاه علينا ؟ وما معناه ؟ وكيف تطور النطق به ؟ وهل هو من أصل عربى أو من أصل آخر ؟ وكيف يضبط ويشكل ؟

لا يوجد فى الجهات الأخرى مؤلَّف على نحو رحلة الرحَّالة ابن بطوطة التى اهتمت بضبط الأعلام الجغرافية حرفًا حرفًا ، تلك الرحلة التى يُنعت صاحبها اليوم من لدن علماء الغرب على أنه أعظم رحالةٍ فى تاريخ البشرية جمعاء .

ولقط طلعت علينا المجلة الأمريكية الشهيرة (NATIONAL GEOGRAPHIC) فى عددها : دجنبر 1991 ببحثٍ مخصصٍ للرَّحَّالة ابن بطوطة رصدت أموالاً طائلة لفريق علمى يقوده السيد طوماس أبير كرومبى) (Thomas j ABERCROMBIE) الذى قام مع فريقه بتتبع خطوات ابن بطوطة ابتداء من مدينة طنجة إلى طايوان .. مرحلة مرحلة .. وصدر عنه تقرير كان من أمتع التقارير التى طالعتنا بها المجلة المذكورة فى خمسين صفحة .

وقد كان نصيبنا ، نحن العرب ، من هذه الدراسة أننا قمنا فى إحدى مجلاتنا بترجمة بعض فصولها ترجمة مُبتسرة غفلت عن الكثير من الأهداف التى توخاها التقرير القيم .

ومن هنا نرى أنه أصبح لزاما علينا أن نجند ناشئتنا وسائر أطرنا فى التعليم الجامعى خاصة ، لكى يخصصوا ندوات لهم حول هذه الأعلام الجغرافية فى مناطقهم وأقاليمهم ، كما يجب أن نجند وسائل أعلامنا على تقديم تعليقات عن الأماكن الجغرافية التى نقلت عن أسلافنا فى العالم العربى والإسلامى ..

أيها الزملاء الأعزاء :

إنى لم أقل كل شىء عن المؤتمر العالمى للأعلام الجغرافية . لقد كان علىّ أن أتحدث عن لائحته الداخلية .. وكان علىّ أن استعرض أمامكم أعمال لجانه الثلاثة .

- اللجنة التى تهتم بالمناهج المتبعة داخل كل دولة لإنجاح الغرض .
- اللجنة التقنية التى تهتم بوسائل ضبط الأعلام .
- اللجنة المهتمة بالمناهج الدولية .

ويحرص المؤتمر العام للأمم المتحدة على أن يظل يقظًا ومتنبهًا لكل التوصيات التى

تقتضيها الظروف أو يُمليها الواقع ، وهكذا وجدناه يوصى بإنشاء قسم يختص بالأعلام الجغرافية الواقعة فى جنوب إفريقيا كما ينشئ قسمًا لأوربا الشرقية وشمال آسيا ...

كما نجده يعيد النظر فى تركيبة قسم أمريكا اللاتينية . وبين يدى المؤتمر الآن قضية إسرائيل التى كانت ضمن مجموعة إيران التى ترفض اليوم أن تكون مع إسرائيل نظراً لكون اللغة لا تجمع بينهما ، واقترحت إحدى الدول أن تنضم إسرائيل إلى المجموعة العربية التى تملصت بدورها من أن تكون إسرائيل ضمن مجموعتها ، الأمر الذى دعا الأمم المتحدة إلى إنشاء قسم خاص بالدولة العبرية ... !

والمؤتمر يظل مفتوح الأبواب لكل تغيير يقع فى بلاد مَا لعلم جغرافى .. ولو كان اسم دولةٍ أو اسم عاصمةٍ حتى يأخذ المؤتمر ذلك بعين الاعتبار . والمقرر أن يتم عقد المؤتمر السابع فى طهران بعد سنتين من هذا التاريخ .

والذى أريد أن أختم به حديثى المقتضب هذا أن تنصبَّ توصياتنا فى هذه الدورة الواحدة والستين من دورات مجمع اللغة العربية على الاهتمام بالعَلَم الجغرافى فى الدول العربية ستكون هذه التوصية إسهامًا جاداً فى تحديد هوية كل دولة عربية بما تشتمل عليه من قبائلَ وعشائرَ وما تحتوى عليه هذه القبائلُ والعشائر من مواقع جغرافية لها دون شك تاريخٌ يُروى ومن شأنه أن يساعد على معرفة الذاتية العربية .

وأرجو أن يكون من بين التوصيات إنشاء خلايا فى الشُعب الجغرافية بمختلف الجامعات العلمية بكل البلاد العربية ، خلايا تشتغل على إعداد لوائح للأعلام الجغرافية الموجودة فى بلادها ، فليس من المعقول أبداً أن نجد اسمًا لموقعٍ جغرافى فى الجزيرة العربية مثلاً مرَّ به بالأمس رحالة من رحالاتنا وضبطه بالاسم والنعت ثم إننا نعجز اليوم عن أن نجد له أثراً .

ولابد أن ندعو إلى تشجيع كلّ الدراسات التى تهتم بالفكر الجغرافى لدى العرب ، ونعنى بصفة خاصة بالعَلَم الجغرافى . وإنى لأذهب أكثر من هذا إلى ضرورة ربط مجمعنا صلته بسائر المجامع والأكاديميات فى العالم لتوحيد الجهود مع كل تلك المؤسسات من أجل إبراز أهمية التعريف بالعَلَم الجغرافى وأهميته فى الحديث عن الهُوية العربية .

عبد الهادى التازى

عضو المجمع من المغرب

بعض الأعلام الجغرافية المشهورة ★

للأستاذ الدكتور عبد الله الطيب

من هذه الأعلام الحبشة :

(١) فى كتاب المسعودى مروج الذهب أنَّ بلاد الحبشة حارة يابسة وأن مبدأها من أرض الجنادل جنوب أسوان .

وهذا النصف يصدق على بلدنا السودان .

وفى كتاب هيرودتس (The Hiorories) المترجم عنه إلى الإنجليزية أن مبدأ إثيوبيا من عند جزيرة الفيل بأسوان وأن عاصمة إثيوبيا مروى .

ومروى المعروفة بهذا الاسم عند الشلال الرابع من نهر النيل فى الشاطئ الأيسر منه . بإزاء كريمة التى هى إحدى نهايات الخطوط الحديدية السودانية وبالقرب منها جبل البركل وفى ناحية آثار قديمة ، ولكن هيرودتس لم يعن مروى هذه ، وإنما عنى المكان الذى يعرف باسم البجراوية بالقرب من بلدة كبوشية شمالى مدينة شندى على الشاطئ الأيمن من النيل ، وفى البجراوية آثار قديمة ، من معابد ومصانع وبالقرب منها عدد كبير من الأهرام أقرب إلى حجم هرم الجزيرة الأصفر وهى من حجر الرمل وبناؤها محكم وهى حادة الانخراط يقال إنها أكبر مجموعة من الأهرام فى العالم ذكر ذلك صاحب « الممر النوبى » The nubian Corrido نقلا فيما أحسب عن سير دوجلاس نيوبلد فى رسائله وهذا قد كان السكرتير الإدارى فى السودان فى السنوات مابين أواخر الثلاثين إلى أواسط الأربعين .

وكان أحد أساتذة الآثار الوافدين علينا ممتحنين خارجيين بجامعة الخرطوم يذكر أن اسم البجراوية أقرب أن يكون هو الاسم الصحيح من اسم مروى ، وهذا ترجيح استحسانى لا تقوم به حجة ، ولعل اسم مروى المعاصرة هو أيضا اسم قديم استعير من اسم البلد التى هى أقدم منه والله أعلم .

ويزعم عزانا الحبشى ملك أكسيوم أنه غزا البجراوية أى مروى القديمة وأحرق ما كان بها من مزارع القطن .

ولا يخفى أن هذا غير القطن الذى أدخل زراعته الحكمدار ممتاز باشا فى أرض توكر فى القرن الماضى .

---

* ألقى هذا البحث فى الجلسة الحادية عشرة من مؤتمر المجمع بتاريخ ٥ من ذى القعدة ١٤١٥ هـ الموافق ٥ من أبريل (نيسان) سنة ١٩٩٥ م .

وفى الموسوعة البريطانية أن القطن قد يكون أول من زرعه السبئيون ، فإن كان ملك أكسيوم من السبئيين فقد ترى أنه قد وجد منه مزارع فى أرض النيل بناحية البجراوية فأهلها أولى بأن ينسب إليهم أول التوسع فى زراعة القطن .

٢ - هذا ، وفى كتاب صفة جزيرة العرب للهمدانى فى طيبة القطرية - أن الحبشة الوسطى مبدؤها من عيذاب جنوب مصر ونهايتها باضع وهى شمال مصوع ولا يخفى أن هذا هو ساحل السودان ، وقد أعاد طبعه الشيخ حمد الجاسر عالم الجزيرة وعضو المجمع جزاه الله خيراً .

٣ - وفى سيرة ابن هشام فى خبر رؤيا ربيعة ابن نصر أن أحد الكاهنين قال ، أقسم برب الحرتين من حنش ليملكن أرضكم الحبش، والآخر قال أقسم بما بين الحرتين من إنسان ليملكن أرضكم السودان .

فالحبش والسودان كأنهما مترادفان .

والحبشة وإثيوبيا كأنهما مترادفتان .

ويقال إن معنى إثيوبيا بلاد السودان . ويذكر بعض علماء الآثار أنه يجوز أن يكون من معانى إثيوبيا (بلاد الطيب) .

ويوجد اسم ثيبا أو طيبا فى بلاد السودان وفى مصر وفى بلاد اليونان، فكأنه يدل على البلاد التى يجلب منها أو إليها الطيب .

وفى السودان أخشاب طيب كثيرة - منها الشاف وهو ضرب من الطلاح والكليت والهبيل وأصناف أخرى ، وعادة الدخان معروفة فى السودان وهو نوع من الحمام الساخن يكون أحيانا علاجا من الرطوبة وأكثر ما تستعمله النساء لتجميل البشرة . وفى أشعار العرب ذكر نيران توقدها النساء ، **قال الشماخ** :

رأيت وقد أتت بخران دونى
وحالت دون أرحلنا الدير
لليلى بالبويرة ضوء نار
تلوح كأنها الشعرى العبور

وفى المعلقات أنها توقد بالعود ، **قال اليشكرى** .

أوقدتها بشخصين بعود كما يلوح الضياء

وقال العبادى :

ياسليمى أوقدى النارا
إن من تهوين قد حارا
رب نار بت أرمقها
تعضم الهندى والفارا
وبها ظبى يؤهجها
عاقد بالخصر زنارا

وقال كثير :

وماروضة بالحزن باكرها الندى
يمج الندى جثجاثها وعرارها

بأطيب من أردان عزة موهنا
إذا أوقدت بالمندل الرطب نارها

وقد تكون تلك النار توقد بأخشاب دون الصندل والمندل فى الطيب فيجعلها الشعراء صندلا ومندلا على سبيل التزيد والمبالغة كمزعمهم أنهم أبدا على ظهر ناقة أو بعير وقد لا يكون مركب الشاعر إلا قدميه أو حمارا ، وقلما يذكر الحمار فى الشعر مُفْتَخرًا به مع أنه قد كان من أكثر مراكب العرب . قال تعالى : «والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة» .

وقال تعالى : «وانظر إلى حمارك» . وقال تعالى : « إن أنكر الأصوات لصوت الحمير »

٤ - ومما يدل على أن الدخان كان معروفا من عادات الطيب عند العرب قول الآخر وهو فى ديوان الحماسة :

آليت لا أدفن قتلاكم
فدفنوا المرء وسرباله

٥ - وفى سيرة ابن هشام وهو أيضافى الحديث الشريف مروى عن أم المؤمنين أم سلمة رضى الله عنها أن النجاشى حاربه لجاشى آخر وكان بينهما عرض النيل وأن سيدنا الزبير بن العوام نفخت له قربة فعام ثم عاد وأخبر سيدنا جعفرا وأصحابه أن نجاشيهم قد انتصر على خصمه . وهذا الخبر يدل على أن الحبشة التى أمها الصحابة فيها نيل يعام ، وحبشة أكسيوم أنهارها سريعة الجريان رهيبة لا يقدم أحد على السباحة فيها وهى تمر بأيىّ جارف ، ومنطقة أديس أبابا لم تدخل فى ملك الدولة الإثيوبية الحديثة إلا فى أيام منليك أو قبله بقليل .

٦ - لا يزال المزورون بالمدينة يعرفون أهل السودان باسم الحبش وعلى ذلك الكتاب الموسوم باسم الطراز المنقوش فى محاسن الحبوش . ويحسبنا هذا القدر عن العلم الجغرافى (الحبشة) .

أدوليس :

فرضة على البحر فى ناحية مابين مصوع وحلايب فى الزمان القديم ونجدها فى الخرائط القديمة أحيانا أقرب إلى موضع مصوع وأحيانا أقرب إلى موضع سواكن ، وهى من فرضات الفراعنة القدماء .

قال الشاعر وهو طرفة بن العبد :

عدولية أو من سفين ابن يامن
يجور بها الملاح طورا ويهتدى

وعند الشراح أن العدولية هى السفنية العظيمة . وبذلك فسروا هذا الحرف فى شعر أبى دؤاد .

وعندى أن عدولية هنا منسوبة إلى عدولة وهى أدوليس بالنطق العجمى من طريق البطالسة

أو نحوهم من الروم أو الإفرنج .

وهذا الحدس مما يرجحه قول « ابن يامن » فدل على أنها سفن تمخر فى البحر متاجرة ببضائع ابن يامن هذا وملاحيه ، وابن بلاريب « بنيامين » فهو تاجر يهودى . وهذا الاسم عينه ذكره امرؤ القيس حيث قال يذكر تمراً وبساتين بناحية المشقر :

حمته بنو الربداء من آل يامن

بأسيافها حتى أقر وأوقرا

فذكر آل يامن كما ترى . وقوله بنو الربداء يوقف عنده - قال الآخر :

أسد علّى وفى الحروب نعامة

ربداء تنفر من صفير الصافر

ولون الربدة يضرب إلى السواد .

قالوا وكان بنو عامر يغلب عليهم لون السواد ومنهم أربد الذى أصابته الصاعقة وهو أخو لبيد الشاعر لأمه ، فهل كان هذا لقباله ؟

وإن كان بنو يامن الذين ذكرهم طرفة وامرؤ القيس يهودا سودا فهل هم من الفلاشة أى اليهود السود ؟

ويقال إن هؤلاء من نسل سيدنا موسى لأن سيدنا موسى كانت له زوجة إثيوبية كما فى سفر السدد من التوراة ، فهل أخطأ الشاعران فنسبا بنى موسى عليه السلام إلى بنيامين عليه السلام ؟ الله أعلم .

علوة :

ذكرت الدكتورة الأديبة العالمة فى تحقيقها لرسالة الغفران عند قول المعرى فى سِينيَّتِه التى أوردها على لسان الجن :

تحملنا فى الجنح خيل لها

أجنحة ليست كخيل الأنيس

تقطع من علوة فى ليلها

إلى قرى شاس بسير هميس

أنها لم تجد علوة فى المراجع .

وهذا عجب ، فعلوة اسم معروف فى تأريخ الحبشة القديم أنها اسم للإقليم الذى عاصمته « سوبا » أو « سبا » كما ينطقها بعضهم ، وقد انقسمت دولة البجراوية القديمة إلى طائفتين إحداهما عاصمتها دنقلة العجوز شمالى الشلال الرابع وتسمى « المقرة » ويختلفون فى نطقها فيقال المَقُرَّة والمُقْرَة وعندى أن الوجه الثانى أرجح لأن كلمة المُقر مستعملة إلى الآن ويُعْنى بها مكان تجمع الماء وهو حق الزراعة ، وأحسب أن جزيرة مقرات اشتقاق معناها من هذا . لأن الماء حولها كالحوض ، وأصل الكلمة عربى أو مشترك بين البجراوى القديم والكوشى والعربى ، وقال امرؤ القيس .

فتوضح فالمقرات لم يعف رسمها

لما نسجته من جنوب وشمأل .

وقال أبو تمام :

ولو كان يغنى الشعر أفناه سافرت
حيا ضك منه فى العصور الذواهب

هذا والطائفة الأخرى عاصمتها سوبا وهى مملكة علوة ولعلها سميت بهذا لوقوعها فى أعالٍ من حوض النيل وأحسب المعرى يشير إلى شىء من هذا فى قوله :

وما قام فى عليا زغاوة منذر
فكيف لجسم ينتجين إلى بقع

وهو بهذا ينكر أن يكون قد قام فى الحبشة نبىٌّ ، رداً بذلك على من قال بنبوة لقمان الحكيم وقد قيل إنه حبشى وزعم بعض المفكرين أنه كان عبداً لداود عليه السلام واحتج ابن كثير بأن العبودية تمنع أن يكون نبيا وغفل عن أن يوسف عليه السلام وهو نبى « شروه بثمن بخس دراهم معدودة » والله أعلم .

سوبا - سبا -

موضع بالسودان بالقرب من الخرطوم - هل له صلة بسبأ الأقدمين ،إن يك ذلك فلعل هذه الكتابة التى أعيت قراءتها علماء الآثار على برابى أهل البجراوية . وملوكهم القدماء من أصل سابق للسبئية ومنه اشتق الخط المسمارى .

وفى الكتاب المقدس « شيبا » وفى ناحية البركل موضع يقال له « شيبا » ومن أسماء الكتاب المقدس « بت شيبا » وهى التى يزعمون أنه رآها نبى الله داود « وخر راكعًا وأناب » كما فى سورة «ص» لا كما يزعمون من أنه تابع فيها هواه فهو نبى معصوم وهذا عندنا من التحريف الفاسد كما لا يخفى . وهل وقع خلط عند رواة الكتاب المقدس بين « بت شيبا » هذه وبين بلقيس فهى بنت سبأ ؟ وهل وقع خلط عندهم بين سليمان وداود فجعلوا بزعمهم أن سليمان عليه السلام ابن « بت شيبا » وما كانت إلا زوجته إن استفيد هذا المعنى من قولها : «وأسلمت مع سليمان » ومن الذى يذكره المفسرون من أمر شعر ساقيها واستعمالها النورة لإزالته - الله أعلم .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما .

الدكتور عبد الله الطيب

عضو المجمع من السودان

طائفة من « الأعلام الجغرافية » في العراق

للأستاذ الدكتور إبراهيم السامرائى

لقد اخترت من الأعلام الجغرافية فى العراق طائفة منها ذات الفائدة اللغوية والتاريخية ، وقد استبعدت منها الأعلام التى كثر درسها فعُرِفت فى الموسوعات التاريخية ودوائر المعارف مثل « بغداد » . ولم أذكر من هذه « الأعلام » التاريخية إلا ما بقى معروفًا فى عصرنا فى تنظيمات العراق الإدارية .

وأبدأ هذه « الطائفة » بمدينة كردية عُرفت فى التاريخ الإسلامى ووردت فى الأخبار هى :

١ - إربِل :

قال أهل البلدان ومنهم ياقوت فى «معجم البلدان» :

إرْبِل : وزان «إثْمِد» ، ولايجوز فتح الهمزة .

أقول : هذا هو ضبط هذه الحاضرة فى التاريخ القديم ، ولكنها الآن « أربيل» وزان «أفعيل» وليس فى العربية شىء من هذا .

وهى من «المحافظات الكردية» فى شمالى العراق ، وفيها جامعة للآداب والعلوم . وهى فى الألسن الدارجة قبل عدّة عقود من السنين « أرويل » بالواو دون الباء ، وهذا شىء من الإبدال يعرض للألسن الدارجة .

جاء فى « *معجم البلدان* » :

إرْبِل : قلعة حصينة ومدينة كبيرة فى فضاء من الأرض واسع بسيط ، ولقلعتها خندق .

أقول : وهى فى حاضرنا مدينة فسيحة فى فضاء من الأرض قد تخلىّ عن القلعة التى لم يبق منها إلا معالم دارسة .

ألقى هذا البحث فى الجلسة الثانية عشرة من مؤتمر المجمع بتاريخ ٩ من ذى القعدة سنة ١٤١٥ هـ الموافق ٩ من أبريل (نيسان) سنة ١٩٩٥ م

وقد نُسب إليها جماعة من أهل العلم والحديث منهم أبو أحمد القاسم بن المظفّر الشهرزورى الشيبانى الإربلى .

وقد صنّف فى « تاريخ إربل » ابن المستوفى كتابه الشهير . وقد طبع هذا فى العراق وكان من مطبوعات وزارة الثقافة والإعلام منذ ما يقرب من ربع قرن ، حققه وقدّم له الأستاذ الدكتور سامى الصقّار .

ومن المفيد أن أشير إلى ما قاله فى «إربل» أنوشروان البغدادى المعروف بـ «شيطان العراق الضرير» .

تبًّا لشيطانى وماسوّلا
لأنّه أنزلنى « إربلا »
نزلتُها فى يوم نَحْسٍ فما
شككتُ أنى نازل «كربلا»

أقول : و«كربلا» فى البيت الثانى هى « كربك » المدينة التى شهدت معركة الطفّ ، وقُتل فيها أبو عبد الله الحسين بن على بن أبى طالب - رضى الله عنه - وسيأتى الكلام عنها.

٢ - الإسكندرية :

بليدة صغيرة من «محافظة بابل» .

قال ياقوت : قرية على دجلة بإزاء الجامدة بينها وبين واسط خمسة عشرفرسخاً .

أقول : هى فى عصرنا على غير ماذكره ياقوت من كونها على دجلة ؛ لأنها كما أشرنا من «محافظة بابل» فهى على الفرات .

أقول : لعلّ الذى ذكره ياقوت هو قرية على دجلة ذهبت معالمها ، فجدّت فى عصرنا قرية أخرى على الفرات ، أو قد نحمل ذلك على سهو من ياقوت على ما عُرف من ضبطه والتزامه .

وليس لنا من علم فى سبب التسمية ونسبتها إلى الإسكندر المكدونى .

والذى يقوّى كون القرية على الفرات فى «بابل» علمنا أن الإسكندر قد وصل إلى بابل، والتاريخ معروف .

٣ - آلوس :

قرية على الفرات قرب عانات والحديثة كما قال ياقوت فى «معجم البلدان» .

وقد تقال بمدّ الهمزة «آلوس» ، وهى بهذا النطق فى عصرنا .

قال ياقوت : وإليها يُنسب المؤيّد الألوسى الشاعر المتوفىّ سنة ٧٥٥٧ .

ذكره العماد فى «الخريدة» قسم العراق .

أقول : وقد نُسب إليها جمهرةٌ من أهل العلم فى عصرنا كان منهم أبو الثناء الألوسى صاحب التفسير المشهور ، والسيد محمود شكرى الألوسى صـــاحب «بلوغ الأرب» ، والسيد نعمان خير الدين ، ترجم لهؤلاء الثلاثة وغيرهم الأستاذ خير الدين الزركلى فى «الأعلام» .

٤ - الأنبار :

قال ياقوت : قال أبو القاسم :

«الأنبار» : حدّ بابل ، سُمِّيَت بذلك لأنه كان يُجمَع بها أنابير الحنطة والشعير والقتّ والتبن . وكان يقال لها الأهراء .

قال الأزهرى : واحد الأنبار «نِبرْ» ، وجمع الجمع « أنابير» .

فتحها خالد بن الوليد سنة ١٢ للهجرة أيام الخليفة أبى بكر الصّديق - رضى الله عنه -.

أقول : و« الأنبار» فى عصرنا محافظة على الفرات الأوسط تتبعها نواحٍ عدّة وتنظيمات إدارية .

وقد نُسب إلى « الأنبار » طائفةٌ كبيرة فيهم اللغويون والنحويون والمحدثون والشعراء وغيرهم . والنسبة إلى الجمع «أنبارىّ» .

ويرى الفرس أن «الأنبار» كلمة استعارها العرب وتوهّموا فى صيغتها الجمع .

جاء فى «المعجمات » الفارسية أن :

« أنبار» بمعنى «امتلاء» أو « مايبرزه الإنسان» أو مايكون من ذلك من الحيوان الذى يُتّخذ سماداً أو مخزن الغِلال والتبن والعَلف» .

أقول : ويكاد يتفق ماجاء فى المعجمات العربية وماجاء فى المعجمات الفارسية ، وليس القطع فى الأمر ممكنًا .

وفى الألسن الدارجة تحوّل «أنبار» إلى «عَنْبَر» و «عُمْبار» بمعنى «المخزن» للبضائع والغِلال .

٥ - بابل :

جاء فى«معجم البلدان» .

بابل اسمُ ناحيةٍ فيها الكوفة والحلّة يُنسَب إليها السِّحْر ، قال تعالى : « وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت» ١٠٢ سورة البقرة .

قيل : بابل العراق ، وقيل : بابل دُنبا وَنْد .

وقيل : لما حَشَرَ الله الخلائق إلى بابل بعث إليهم ريحًا فحشرتهم واجتمعوا ببابل . فقام يعرُب بن قحطان ، أوّل من تكلمً بالعربية ، ولم يزل المنادى ينادى : من فَعَل كذا وكذا فله كذا وكذا ، حتى افترقوا على اثنين وسبعين لساناً ، وانقطع الصوت ، وتبَلْبَلَت الألسن فسُمِّيت «بابل» .

أقول : انتهى ما أثبته ياقوت فى «معجمه» ولكنّنا فى هذا العصر ندرك ما وصل إليه أهل التنقيب فى الحضارات القديمة . وقد بدأ هؤلاء درسهم الجادَّ منذ أوائل القرن التاسع عشر ، فعرفوا اللغة البابلية الآشورية ، وقرأوا النقوش فى الألواح ، وعلى النصب والتماثيل ، وعرفوا شريعة حمورابى التى سبقت التاريخ المسيحى بعشرات من القرون ، واكتشفوا مكتبة آشور بانيبال . وكان من جملة ذلك فوائد تاريخية وحضارية تتجاوز هذا الذى كان للعرب مما أورده ياقوت .

ومن هذا عرفنا أن « بابل » لاصلة لها بما يعنيه المصدر « بَلبلَة » الذى يفيد التّفرّق إن « بابل » تعنى « باب إيل » أى باب الإله (١) .

ولكن العرب حرّفوا الاسم إلى بناء «فاعل» فكان من ذلك المعنى الذى وصلوا إليه من « البلبلة » .

أقول : وقد سَمّى العرب فى حاضرهم وماضيهم (بابل) فى أعلام الذكور ، ولكن للنصارى من العرب اتصال بالسريانية التى عُرف فيها « بابل » فرجعوا إلى الأصل وهو «باب إيل» فكان من أعلامهم « بابيل» ، وهذه الصيغة « فاعيل » هى بناء اسم الفاعل فى هذه اللغة .

وبهذه اللغة ورد فى الأثر «قابيل وهابيل» ابنى آدَم - عليه السلام .

ومن هنا كان من أسماء النصارى «ناصيف» ، وهو لدى المسلمين «ناصف» ، وغير هذا .

و «بابل» القديمة فى عصرنا موقع أثرى يشتمل على بقايا الحفائر التى قام بها العلماء المنقبون فى القرن الماضى ثم ما كان منها فى هذا القرن . وقد شارك فى تلك الأعمال علماء من الألمان والفرنسيين والإنكليز ثم خلفهم العراقيون .

---

(١) أقول : من هذا أيضاً إسرافيل ، وعزرائيل وميكائيل . و « جبرائيل » و « وجَبْر » وجَبْر ا فى العربية والسريانية تعنى « الرجل » . وكذلك فى العبرانية (جبِر) .

و « بابل » الحديثة اسم محافظة كبيرة مركزها الرئيسى مدينة الحلّة التى سنعرض لها. إن إطلاق اسم بابل على المحافظة بجملتها كان منذ سنين قليلة .

٦ - باجسرا:

قال ياقوت : باجسرا بليدة فى شرقىّ بغداد بينها وبين حلوان على عشرة فراسخ من بغداد .

خرج منها جماعة من أهل العلم والرواية منهم أبو القاسم عبد الغنى بن محمد بن خليفة الباجسراوى ، وكان صالحاً ، له شعر حسن ورغبة فى الأدب ، توفى سنة ٥٣١ هـ .

أقول : والذى نعرفه عن هذه البليدة أنها الآن « أبو جِسْره » . ولابد لنا أن نقول أن الاسم الحالى « أبوجسره » هو الاسم القديم «باجسرا » ، والعامة فى كل عصر تذهب فى الأسماء إلى شىء آخر .

إن « باجسرا » موضع قديم يحمل الأصل السريانى ، فإن « با » تعنى « بيت » ، وهذا اللفظ الذى اجتُزِئَ به عن « بيت » معروف فى أسماء المواضع والبلدان فى البلاد التى عرفت التراث الآرامى فى بلاد ما بين النهرين وبلاد الشام مثل : باخمرا ، وباصيدا ، وباعشيقا ، وغيرها .

ولما عُرِّبت هذه المواضع ذهبت كلمة « با » التى هى « بيت » [1] وتحوّلت إلى حرف الباء فى صدر هذه الأسماء نحو : بعشيقه وبحمدون، وحذفت فى أسماء أخرى فقالوا صيدا وسُورا وغيرهما .

وأما الألف فى آخر هذه الأسماء فهى الألف المعروفة فى نهايات الأسماء الآرامية التى تشير إلى أداة التعريف الآرامية ثم فقدت وظيفتها هذه، وبقيت علامة فى آخر الأسماء . وقد ذهبت الألف واكتُفى بالفتحة مع هاءٍ للتأنيث .

---

(١) من المفيد أن أشير إلى أن « با » تتصدر طائفة من الأعلام اليمنية ، وهو شىء ورثته اللغة اليمنية فيما ورثته من خصائص لغوية قديمة . إن « با » هذه فى الأعلام : باحسين ، باأحمد ، بابكر وغيرها هى «أبو» ، ولكنها فى لغة اليمن لزمت الألف دائماً وهذا نجده فى الشاهد القديم .

واهًا لسلمىَ ثم واهًا واها   فليتَ عيناها لنا وفاها
إن أباها وأباها أباها   قد بَلَغا فى المجد غايتاها

والرجز شاهد أيضًا فى التزام المثنى بالألف .

ولى أن ألحق بهذا « الباء » فى الأعلام القديمة اليمنية نحو : بلحارث ، وبالهجيم ، وبَلْعَنبر وغيرها من أسماء القبائل . وهذه الباء هى اجتزاء من « تنبوُ أو بنى » .

٧ - باحزانى :

بليدة صغيرة فى أرض جبلية من نواحى الموصل فى العراق . أهلها أكراد أشداء يعتنقون «اليزيدية » مذهبًا ، وهم أهل مذهب باطنى يعبدون الشيطان ، وبينهم نصارى يدل عليهم هذا الاسم للمكان « باحزانى » . إنه نظير الأسماء القديمة العراقية التى تدلّ على التأثير الآرامى ، كما أشرنا فى « باجسرا » .

ولكن هذا الاسم قد خُتم بالياء على خلاف تلك الأسماء ، وهذا يعود إلى أن الآراميين السريان فى بلاد العراق نساطرة لهم خصوصية لغوية فيها مجئ الياء[1] قد تقول : ولِمَ جاءت الألف فى الأسماء الأخرى ؟ والجواب أن تلك الأسماء قد غلب عليها الطابع الآرامى . ولم يرد اسم « باحزانى » فى معجم ياقوت .

٨ - بادَرايا :

جاء فى « معجم البلدان » :

أنها طَسّوج بالنهروان أو بليدة بقرب باكسايا بين البَنْدنيجَيْن ونواحى واسط . منها يكون التمر القَسْب اليابس الغاية فى الجودة .

أقول : هى فى عصرنا « بَدْرة » وأغلب أهلها من الأكراد الفيلية الشيعة فى الحدود الشرقية جنوبىّ بغداد بما يقرب من مئتى كيلو متر .

أقول : والاسم يشير إلى الأصل الآرامى وهى «با » التى تعنى « البيت » و « دَرايا » بمعنى « الديار » أو المنازل .

وما زال هذا الاسم « بيدْرايا » يطلق على التمر القَسْب الذى يؤتَى به منها .

٩ - باعشيقا :

جاء فى « معجم البلدان » أنها من قرى الموصل من نواحى نَيْنَوَى فى شرقىّ دجلة لها نهر جارٍ . أقول : هى فى عصرنا « بَعْشيقه» ، وهى من القرى التى يسكنها يزيديوّن كما ذكرنا فى « باحزانى » ، وهم أكراد غلاظ شداد . وفيها نصارى نساطرة .

ويعنى الاسم « باعشيقا » بيت أصحاب العمل أى الزرّاع الفلاحين ، وأرضها خصبة يزرع فيها القمح والحبوب ، وفيها الشجر كالجوز وغيره .

---

(١) يدلّ على ميل النساطرة إلى الياء ما عُرف فى أعلامهم « مَتّى » بالياء ، وهو « مَتّى » فى السريانية الغربية ومنه « مار متىّ » صاحب « إنجيل متىّ » ، وكذلك « أدَى » ومنه « أدّى شير » رئيس أساقفة سِعِرْد ، وهو الكلدانى الآشورى .

١٠ - باعقوبا :

جاء فى « معجم البلدان » : قرية بأعلى النهروان ، وقال : وظنّى أنها غير بعقوبا القرية المشهورة على عشرة فراسخ من بغداد .

أقول : قد يكون ماظنّه صحيحًا ، ولكن الذى يهمّنى أنها بليدة ذات صيغة سريانية صُدِّرت بـ « با » وقد تكلمنا على ذلك . وهى فى عصرنا مركز محافظة « ديالى » وكأنها «بيت يعقوب » ونهر يعقوبا الأعظم «النهروان» وهو نهر كبير بقرب بغداد ، وهو الحدّ بين طريق خراسان والخالص ، وهو نهر تامراً بعينه .

١١ - باكسايا :

جاء فى « معجم البلدان » : أنها بلدة قرب البَنْدَنيجَيْن وبادرايا بين بغداد وواسط فى الجانب الشرقى فى أقصى النهروان وإليها ينسَب أبو محمد عباس بن عبدالله بن أبى عيسى الباكسائى يُعرَف بـ « الترقفى » أحد أئمة الحديث توفى سنة ٢٦٨ هـ .

أقول : إن « باكسايا » قرية صغيرة إلى أقصى الجنوب من بغداد فى الجانب الشرقىّ تقرب من مدينة العمارة فى محافظة مَيْسان ، لا يحُسَب لها حساب فى التنظيمات الإدارية فى عصرنا .

والاسم يشير إلى أن أهل باكسايا التى أوردها ياقوت فى معجمه آراميون نصارى قبل أن يتمّ فتحها على أيدى المسلمين فى «فتوح العراق » .

١٢ - بَرَاثا :

جاء فى « معجم البلدان » :

بَراثا محلة فى طرف بغداد فى قبلة الكرخ وجنوبىّ باب محوّل ، وكان لها جامع مفرد تصلّى فيه الشيعة ، وقد خُرِّب عن آخره ، وكذلك المحلة . . .

وفى سنة ٣٢٩ فُرغ من جامع بَراثا وأقيمت فيه الخطبة ، وكان قبلُ ومسجداً يجتمع فيه قوم من الشيعة يسبّون الصحابة ، فكبَسَه الراضى بالله وأخذ من وَجَده فيه وحبسهم وهدمه حتى ساوّى به الأرض .

ويزعمون أن عليًا مرَّ بها لما خرج لقتال الحرورية بالنهروان ، وصلّى فى موضع من الجامع المذكور .

أقول : ولم يبق فى عصرنا إلا ما أثبته الخِططيّون ومنهم الدكتور مصطفى جواد من موضع الجامع فأعيد بناؤه جامعًا ومسجداً للشيعة تقام فيه احتفالات دينية خاصة .

والاسم يحمل الصورة الآرامية شأنه شأن المواضع والحواضر العراقية التى خُتمت بالألف كما سنرى .

و « بَراثا » تومئ إلى « البَـرْث » فى العربية وهو الأرض السهلة اللينة .

١٣ - البصرة :

أقـول : لم أرد أن أجعل « البصـرة » فى عـدّة أسـمـاء الحـواضـر فى هذا الموجـز ، وذلك لأنها مادة واسعة عُنى بها الأقدمون وأهل هذا العصر من عرب وغيرهم من العلماء الغربيين . غير أنى أدرجتها لأقول :

إن أهل البلدان الأقدمين ومعهم اللغويون قد توسّعوا على طرائقهم فى ردّ الأسماء القديمة إلى مادة فى العربية فتعسّفوا وخانهم الدرس .

إنك تجدهم فى « البصرة » كما تجدهم فى الكوفة ذهبوا إلى أن البصرة حجارة غليظة كما قال الأنبارى أبو بكر ، وكما قال قطرُب اللغوى المعروف . وقال غيرهما : حجارة رخوة فيها بياض ، وقالوا : فيها الحصى . وقالوا: أرض تسوخ فيها القدم ....

أقـول : لعل « البـصـرة » التى مـصّـرها المسلمون بعد الفتح هى اسم قديم هو « بَصرا » العلم الذى وقفنا على نظائره فى حواضر العراق وبلاد الشام .

وقد حوّل العرب فى نطقهم الفتح الطويل فى آخـر الاسم إلى عـلامـة للتـأنيث هى هاء التأنيث فكانت « بصرة » كما كانت «كوفة» التى سيجىء الكلام عنها .

وقـال ياقـوت :

وفى اصطلاح أهل البـصـرة أن يزيدوا فى اسم الرجل الذى تُنسب إليـه القرية ألفًا ونونًا نحو « طَلْحَتان » وهو نهر يُنسَب إلى طلحة بن أبى رافع مـولى طلحـة بن عـبـيـد الله . و«خِيرتان» نهر منسوب إلى خيرة بنت ضَمرة القُـشَـيـرية امـرأة المهلّب بن أبى صـفـرة . و«مُـهَلّبان» : نهر منسوب إلى المهلّب بن أبى صفرة ، وغير هذا .

أقول : وفى هذا شىء آخر ذكره البلاذرى فى كلامه على البصرة فى « البلدان » (١) . ولنا أن نعود إلى عـصـرنا فنجد فى حـاضـر

(١) انظر « البلدان » للبلاذرى ص، ٣٤٦، ٣٧٢ . وقال ياقوت : قال البلاذرى : « عبّادان » قطيعة لحُمران بن أبان مولى عثمان بن عفان . وقال : قال ابن الكلبىّ : أوّل من رابط بعبّادان عبّاد بن الحصين فنُسبت إليه . ومن هذا : « أميتان » نسبة إلى أبى أمية ، « وجعفَران » نسبة إلى أم جعفر ، ومثله « خالدان » وغيرها . وانظر : Grundiss der iranischen philologie 12, 176, Nöldeke LA 12,183

البصرة فى بليدة من أعمالها تُسَمىّ أبا الخصيب شيئًا من هذا منه : « يُوسفان » لقطيعة ، ونهر لابدّ أن يكون منسوبًا إلى أحد من الأوائل يدعى « يوسف » ، كما نجد «مهيجْران » ولعلها « مُهاجران » وتحوَّلت إلى ما تحوَّلت إليه فى اللغة الدارجة ، ولابد أن يكون صاحب هذه النسبة أحداً اسمه « مُهاجر » .

كما نجد موضعاً فى هذه البليدة يُدعى «باب سليمان» ، ولعلّ « باب سَلْمانان »

والبصرة اليوم محافظة واسعة تتبعها حواضر وقرى عدة [1] يجرى فيها نهر صغير يُدعَى « نهر العشّار » ، ولعل العشّارى من الشعراء المتأخرين منسو ب إلى النهر أو أنه منسو ب إلى آخر كان « عشّاراً » أى يستوفى العُشور . و « أبو الخصيب» هى « بَلخْصيب» فى نطق العامّة .

١٤ - البَنْدَنَيْجَيْن :

قال ياقوت : لفظه لفظ التثنية ، ولا أدرى أن « بَنْدَنَيجْ » مفردة .

قال حمزة : هو بناحية موضع يُسمَّى «وَندْنيكان » وعُرِّب على « البَنْدَنَيْجَيْن » ، ولم يفسِّر معناه . بلدة مشهورة فى طرَف النهروان من ناحية الجبل ، من أعمال بغداد وقال ياقوت أيضًا :

وحدَّثنى العماد بن كامل البَنْدَنَيْجّى الفقيه قال : البَنْدَنَيْجَيْن اسم يطلق على عدة محالّ متصلة ، وأكبر محلة فيها يقال لها «باقطنايا » ، وبها سوق ودار للإمارة ومنزل القاضى ، ثم بُوَيقيا ، ثم سوق جميل ، ثم فِلِشْتُ ، وقد خرج منها خلق من العلماء : محدّثون وشعراء وفقهاء وكتّاب .

أقول : وقال أهل الدرس فى عصرنا الباحثون فى « الخطط » :

أن « البَنْدَنَيْجَيْن » هذه هى «خانِقين» التى أوردها ياقوت فى « معجمه» بكسر النون بعدها قاف . وقال : هى بلدة من نواحى السواد فى طريق هَمَذان من بغداد بينها وبين «قَصْر شيرين» ستة فراسخ لمن يريد الجبال .

أقول أيضاً : « خانقين » فى عصرنا ، بفتح النون ، كما أوردها ياقوت ، وكذلك «قصر شيرين» ، والأولى عراقية ، والثانية إيرانية . والعامة تقول : « خانجْين » ، وهى «خانه كَين » فى اللغة الفارسية بمعنى «الأرض التى يُنْزَل فيها » .

---

(١) اتسعت رقعة التنظيمات فى البصرة فشملت جهات فى الخليج ، وشبه الجزيرة ، ومنها « دبَّى » وغيرها .

فهل نرى من وجه لنصل بين «البَنْدَنَيْجَنْ» و « خانقِين » ؟ ما أرى شيئاً فى هذا .

١٥ - تكريت :

قال ياقوتْ : هى بفتح التاء والعامّة يكسرونها ، بلدة بين بغداد والموصل ، وهى إلى بغداد أقرب ، بينها وبين بغداد ثلاثون فرسخاً . ولها قلعة حصينة فى طرفها القبلى ، راكبة على دجلة ، وهى غربى دجلة . وكان أوّل من بنى هذه القلعة سابور بن أرد شير بن بابك لما نزل الهَدّ ، وهو بلد مقابل تكريت فى البريّة.

قال عبيد الله بن الحرّ ، وكان قد وقع بينه وبين أصحاب مصعب وقعة بتكريت قُتِل بها أكثر أصحابه ونجا بنفسه فقال فى أبيات :

فإنْ تَكُ خيلى يومَ تَكريتَ أحجَمَتْ

وقُتِّل فرسانى ، فما كنتُ دانيا

وقد فتحها المسلمون فى عهد عمر سنة ١٦ هـ . أرسل إليها سعد بن أبى وقّاص جيشاً عليه عبد الله بن المعتم فحارب أهلها حتى فتحها عنوةً . نُسب إليها جماعة من أهل العلم .

أقول : وقد ورد فى المصادر النصرانية أن أهلها كانوا نصارى ، وقد عرفنا من أولئك النصارى أنطون التكريتى ، وله مصنَّفات فى الثقافة السريانية .

وعُرِف أن صلاح الدين بن أيوب قد ولد فيها .

وكانت تكريت فى عصرنا هذا بليدة صغيرة تابعة لقضاء سامَرّا وهى وسامَرّا تابعتان إداريًا لبغداد العاصمة .

ولما قامت ثورة السابع عشر من تموّز سنة ١٩٦٨ م رأت الحكومة أن تجعل «تكريت» مركز محافظة ففُصِلت عن كونها تتبع سامرّا ، ثم جعلت سامَرّا تتبع تكريت فى شؤونها الإدارية .

وهكذا تتبدّل الحال ، فتكون سامرّا التى كانت عاصمة العباسيين طوال نصف قرن من أعمال تكريت ولكل زمان رأي وحكم ونظام .

قلتُ : صارت تكريت فى عهد الثورة مركز محافظة صلاح الدين يكون فيها سامَرّا والدور وغيرهما وبها الآن جامعة للآداب والعلوم .

وقد ورد اسم تكريت فى النقوش الآشورية بالخط المسمارى ، فهى على هذا من المراكز القديمة .

١٦ - تلّ أعفر :

أقول : هذا هو الاسم فى كتب البلدان ، وقد رُكِّبَت هاتان الكلمتان لدلالتهما على بليدة معروفة فكانت « تَلَّعْفَر » .

قال ياقوت : هكذا تقول عامّة الناس [أى تلّ أعفر] ، وأما خواصُّهم فيقولون : « تَل يَعْفَر » ، وأصله التلّ الأعفر ، وهو اسم قلعة ورَبَض بين سنجار والموصل . فيها نهر جارٍ ، وهى على جَبَل منفرد . وإليها نُسِبَ الشاعر التَّلَّعْفَرىّ موسى بن أبى من الذين مدحوا الملك الأشرف .

أقول : وهذه البليدة تتبع الموصل .

١٧ - الحديثة :

الحديثة القديمة هى التى دعاها ياقوت «حديثة الفرات » ، قال :

هى على فراسخ من الأنبار ، وفيها قلعة حصينة فى وسط الفرات ، والماء يحيط بها ، دخلها المسلمون فى خلافة عمر . نُسب إليها جماعة من الرجال من المحدّثين وغيرهم كما أشار الخطيب فى « تاريخ بغداد » .

أقول : وهى فى عصرنا بليدة صغيرة على الفرات الأوسط من أعمال محافظة «الأنبار» .

١٨ - الحَضْر :

جاء فى « معجم البلدان : أن « الحَضْر » اسم مدينة بإزاء تكريت فى البرية ، بينها وبين الموصل والفرات . وهى مبنيّة بالحجارة المهندمة بيوتها وسقوفها وأبوابها . كان فيها ستّون برجاً كباراً ، وبين البرج والبرج تسعة أبراج صغار ، بإزاء كل برج قَصْر وإلى جانبه حمّام .

ومرّ بها نهر الثرثار ، وكان نهراً عظيماً عليه قرًى وجنان .

وقال الشرقىّ بن القطامى : لما افترقت قضاعة سارت فرقة منهم إلى أرض الجزيرة ، وعليهم ملك يقال له الضَّيْزَن بن معاوية ... وكان فيما زعموا ملك الجزيرة كلها إلى الشام فنزلَ مدينة « الحَضْر » .

أقول : إنها مدينة ظاهرة آثارها أقبل

عليها الدارسون العراقيون ومنهم فؤاد سَفَر وكتب عنها وأشار إلى أن أهل « الحَضَر » بفتحتين عَرَب ، وملكهم « سَنَطْرُق» غير أن المشاهد العارف بفنون العمارة القديمة يدرك وهو يشاهد الحضر أن هذه الأبنية ذات عمارة رومانية فى حجارتها ونقوشها ، وفن التماثيل القائمة ولاسيما ما كان منها للمرأة . ثم إنه يدرك أن هذه الآثار تشبه آثار « بُصْرى وإبلا » فى بلاد الشام ، كما أنها تشبه ما هو معروف من نظائرها فى « البتراء » فى الأردن . إنه الفن الرومانى فى الأبنية فى أقواسها وعفوها ، وتماثيل الآدميين الدقيقة فى إبراز الصورة البشرية .

إنّ « الحضر » مدينة عراقية كانت تعرف باسم حطارا ، عرفت أطلالها وسط بادية ما بين دجلة والفرات المعروفة بـ « الجزيرة » على بعد ثلاثة كيلو مترات من وادى الثرثار ، وعلى مسافة ٦٠ كيلو متراً من قلعة شرفاط .

ثم إن لغة نقوش الحجر فى حروفها الآرامية ودلالاتها لا يمكن أن تكون عربية ، وأهلها عرب كما ذهب الأستاذ فؤاد سفر ، وإن « سَنَطْرُق » من غير الأعلام التى نعرفها فى العربية .

وإذا كان فى النقوش اسم « سَنَطْرُق ملك العرب فهذا لا يبعد عن ورود « العرب أو العريان » فى الآثار البابلية . وقد يعنى هذا أن كلمة « عرب وعُربان » أطلقها أولئك الأقوام على القادمين من بلاد العرب « أى شبه جزيرة العرب » .

ويؤيد هذا أن لغة النقوش آرامية برسومها ومعانيها ، فلابد أن يكون أهلها آراميين عاشوا فى منتصف القرن الأول للميلاد .

ثم إن التشابه فى الآثار والخصائص الفنية بين آثار الحضر ونظائرها فى بلاد الشام والأردن ليشير أن هذه محطّات رومانية أقامها الرومان مع أهل البلاد حماية لإمبراطوريتهم حين كان لها توسّع وامتداد فى الشرق .

١٩ - الحلّة :

قال ياقوت : هى فى اللغة القوم «النُّزُول» .

وهى عدّة مواضع أشهرها «حِلة بنى مَزْيَد» ، مدينة كبيرة بين الكوفة وبغداد كانت تُسَمَّى « الجامعَيْن » .

وكان أول من عَمرّها سيف الدولة صَدَقة ابن منصور بن دُبَيْس بن على بن مَزْيَد الأسدى سنة ٤٩٥ هـ .

أقول : هى « الحِلّة » فى عصرنا مركز محافظة بابل ، وقد مّر الكلام عليها . ولم يكن اسم بابل هو الشامل العام لهذه الجهة بما فيها « الحلة » وحواضر صغيرة أخرى إلا بعد إصلاح التنظيمات الإدارية فى عهد ثورة تموز الثانية .

أقول : خرج من الحلة جمهرة من أهل العلم والأدب ، ومنهم الشاعر صفى الدين الحلى ، والمحقّق الحلى من كبار رجال الشيعة، وشعراء آخرون فى القرون المتأخرة اشتهر من بينهم السيد حيدر الحلى فى القرن الماضى .

وهى اليوم مدينة عامرة كثيرة النفوس يمر فيها الفرات ، وهى ذات زرع ونخيل .

٢٠ - حمّام علىّ:

بليدة تتبع الموصل صغيرة . قال ياقوت : إنها بين الموصل وجهينة قرب عين القار ، غربىّ دجلة ، وهى عينٌ ماؤها حارٌ كبريتى .....
أقول : يقصدها الناس للاستحمام والعلاج .

٢١ - الحُوَيْزة :

جاء فى « معجم البلدان » : أن الحُوَيزْة موضع حازه دُبَيْس بن عفيف الأسدىّ أيام الطائع لله ، ونزل فيه بحِلّته ، وبنى فيه أبنية . وليس هذا بدُبَيْس بن مَزْيَد الذى بنى « الحِلّة» بالجامعَيْن ، ولكنه أسدىّ أيضاً .

وهذا الموضع بين واسط والبصرة وخُوزستان فى وسط البطائح .

نُسِب إلى الحُوَيْزة قوم منهم عبد الله بن حسن بن إدريس الحُوَيْزى من أهل الحديث .

أقول : وقد أورد الخاقانى فى « شعراء العراق » غير واحد من الشعراء المتأخرين اشتهروا بـ « الحويزىّ » .

أقول أيضاً : إن « الحُوَيْزة » قرية حدودية بين جنوبى العراق وإيران على قرب من « الهور الكبير » الذى يُعرف بـ « هور الحُوَيْزة » إلى الجنوب الشرقى من مدينة العِمارة مركز محافظة « مَيْسان » . وهى منطقة كثر فيها النزاع والحرب بين العراق وإيران منذ عصور عدّة ، ومازال هذا إلى اليوم .

٢٢ - الحيرة :

قال ياقوت : هى مدينة كانت على ثلاثة أميال من الكوفة ، يقال له « النَّجَف » ، زعموا أن بحر فارس (١) كان يتصل به . وبالحيرة « الخَوَرْنَق والسدير » ، مسكن ملوك العرب فى الجاهلية من زَمن نَصر من لخم النعمان وآبائه ، والنسبة إليها « حاريّ » على غير قياس .

أقول : و « الحيرة » اليوم بليدة صغيرة من أعمال محافظة « الديوانية » على الفرات الأوسط ، وهى منطقة زرع وفلاحة ونخيل .

٢٣ - الخابور :

قال ياقوت : الخابور من أرضٍ « خَبْرةٍ » وخَبْراء ، وهو القاع الذى ينبت السِّدْر . و«الخَبار» : الأرض الرخوة ذات الحجارة .

و « الخابوراء » : اسم موضع لعلّ نهر الخابور يمر فيه .

و « الخابور » : نهر كبير بين رأس عين والفرات من أرض الجزيرة .

أقول : إن نهر الخابور يمر - فى جزء من أعلاه - بأرض الجزيرة من بلاد الشام ، ويدخل العراق ، وعلى ضفافه فى العراق قرًى ومواضع منها « فيش خابور » بليدة أهلها أكراد .

٢٤ - الخالص :

قال ياقوت : اسم كورة عظيمة من شرقى بغداد إلى سور بغداد .

أقول : وهو الآن بليدة فى محافظة «دَيالا » (٢) ، يمرّ فيها نهير صغير هو نهر الخالص وهى منطقة فلاحة وبساتين فاكهة ونخيل .

٢٥ - خانقين :

انظر « البَنْدَنيجَيْن » .

٢٦ - الدُّور :

قال ياقوت : الدُّور سبعة مواضع بأرض العراق من نواحى بغداد ، أحدها « دُور »

---

(١) أقول : إن تسمية « بحر فارس » ترد فى كتب البلدان العربية الجغرافية كما وردت فى « كتاب العين » للخليل . وهذه هى التى تُدعى فى عصرنا « الخليج العربى » وفيه بلاد عدّة معروفة . والتسمية القديمة مأخوذة ومستوحاة من عصور الإمبراطورية الإيرانية التى تفسّحت فى هذه البلاد العربية . وأذكر وأنا طالب فى الإعدادية كنا نطلق مصطلح « خليج البصرة » على هذا « الخليج الكبير » .

(٢) أقول : ديالى ، محافظة ونهر فى عصرنا ، وأرى أنها كلمة تحمل ما يومئ إلى أصل سريانى ، ولكنى لم أجده فى المعجمات السريانية ، ولا فى العبرانية .

تكريت وهو بين سامَرّا وتكريت ، والثانى بين سامَرّا وتكريت أيضًا يُعرف بـ «دور عربايى» .

أقول : إن « دور عَربايى » يشير إلى التسمية السريانية ، ويعنى هذا أن أهلها عرب وآراميون .

وأقول : هذا هو الذى يهمنى من «الدُّور» التى هى مواطن إقامة حضرية فى العراق ، وأما ما بقى منها فهى خارج العراق .

و « الدُّور» الأولى كانت قرية تتبع سامرّا ، ثم اتّسعت حالها بعد ثورة تموز فساوت سامرّا فى درجتها الإدارية .

وقد خرج كثيرون من « الدور» هذه فى عصور ماضية ونُسبوا إليها ومنهم أبو عمر حفص ابن عمر الدوريّ ترجم له ابن الجزَرىّ فى طبقات القراء ١/٢٥٥ وغير هذا كثير .

أقول أيضًا : وهى الآن فى النطق السائد « دُور » كما نقول « صُوت » فى الألسن الدارجة ، ولكنّ النسب إليها كما هو فى فصيح العربية « دُورىّ » .

٢٧ - ذى قار :

أقول : هذا موضع قديم هو « ذو قار » ولكن المعاصرين أغفلوا وجه الاسم فلزم الياء فى كل الأحوال . وهذا الاسم لمحافظة كبيرة تقع على ضفتى الفرات الأسفل تشتمل على حواضَر وقرًى ، مركزها « الناصريّة » مدينة واسعة أسسها ناصر باشا السعدون فى العهد العثمانى المتأخر .

و« ذوقار » فى مصادر التاريخ والأدب ماء لبكر بن وائل قريب من الكوفة بينها وبين واسط .

وحديث ذى قار مع كسرى والنعمان ابن المنذر قد ورد فى كتب التاريخ القديم الذى كان منه وقعة ذى قار المشهورة التى انتصر فيها العرب على الفرس .

وقيل بصدد هذه الوقعة إنها كانت يوم ولادة الرسول الكريم - صلى الله عليه وسلم - وقد أشار إليها أبو تمام فى قصيدته التى مدح بها أبا دُلَف العجلىّ .

٢٨ - زاخو :

بليدة فى أقصى شمالى العراق منها يدخل

القاصد إلى الأراضى التركية ، أهلها أكراد مسلمون وبينهم نصارى ، ولعلّها من «زاخا» السريانية بمعنى «النظافة والصفاء» .

٢٩ - سامَرّا :

جاء فى « معجم البلدان » أنها سامَرّا بالقصر ، وسامَرّاء بالمدّ ، وسُرَّ مَن رأَ ، وسُرَّ مَن راء ، وقد ورد هذا كله فى الشعر .

قال البحترى :

وأرى المطايا لا قصور بها
عن ليل سامَرّاءَ تذرَعُهُ

وقال الحسين بن الضحّاك :

سُرَّ مَن را أسَرُّ من بغدادِ
فالهُ عن بعض ذكرها المعتادِ

وقال البحترى :

لأرحَلَنَّ وآمالى مطرَّحة
بسُرَّ مَن راءَ مُسْتَبْطَى لها القَدَرُ

وهى مدينة بين بغداد وتكريت ، شرقىّ دجلة .

قال أبو سعد : سامراء بلد على درجةٍ فوق بغداد بثلاثين فرسخاً يقال لها «سُرَّ من رأى» ، فخفّفها الناس وقالوا : سامرّاً .

أقول : وهى مدينة مازالت فيها آثار العباسيين والمئذنة الملويّة ، ودار الخلافة وبقية أطلال القصور . وإلى جوار هذه بقايا خطة المدينة القديمة فى شوارعها وطرقها .

وهذه مجاورة للمدينة الحديثة التى فيها الإمام على الهادى والإمام حسن العسكرى ، وموضع غيبة الإمام المهدىّ المنتظر .

والنسبة إليها « سامَرّىّ » ، وقد عُرف بهذه النسبة خلق كثير من محدِّثين وقرّاء وغيرهم .

وأخبار سامرّاً فى الأدب والشعر مستفيضة (١) .

وكأنى أرى أن « سامراً » تحمل فى بنائها الصيغة الآرامية فى انتهائها بالألف . وأما ما قيل من صور تسميتها فذاك شىء ولّده استحسان الشعراء والناس الذين سكنوها وارتضوا إقامتهم فيها فقالوا : سُرَّ مَن رأى ، وغيرها .

---

(١) أقول : ولى فى هذا كله مصنّف وسمته بـ « إعلام الوَرَى فيما نُسِبَ إلى سامَرّا » طبع دار الحكمة بلندن .

٣٠ - سنجار :

قال ياقوت : سنجار ، بكسر أوّله وسكون ثانيه ثم جيم وآخره راء ، مدينة مشهورة من نواحي الجزيرة بينها وبين الموصل ثلاثة أيام . وهي في لِحْف جبل عالٍ .

ويقولون : إن سفينة نوح - عليه السلام- لما مرّت به نطحته ، فقال نوح : هذا سِنّ جبل جار علينا ، فسُمّيت « سِنْجار » .

قال ياقوت : ولستُ أحقّق هذا والله أعلم به .

وقال ابن الكلبي : إنما سُمّيَت سنجار وآمد وهِيت باسم بانيها .

وقال حمزة الأصبهاني : « سنجار » تعريب « سِنكار » (١) ، ولم يفسّره .

وهو مدينة طيبة في وسطها نهرٌ جارٍ .

وقيل : إن السلطان سنجر بن ملكشاه بن ألب أرسلان بن سلجوق وُلِد فيها فسُمّي باسمها عن الزمخشريّ .

وقد خرج منها جماعة من أهل العلم والأدب والشعر .

وقد نُسب إليها جماعة من أهل العلم من أهل عصرنا منهم أسعد بن يحى بن موسى بن منصور الشاعر ويعرف بالبهاء السنجاريّ .

أقول : و « سنجار » اليوم بليدة بلحف الجبل كما ذكر ياقوت من موضعها ، وأهلها أكراد مسلمون وبينهم نصارى من أصول سريانية شرقية يطلقون على أنفسهم «الكلدان» . وأضيف أن من نُسب إلى سنجار أبو محمد الأمير حسن بن الأمير يوسف الملقّب بـ « المكزون السنجاريّ » المتوفى سنة ٦٣٨ هـ (انظر تاريخ العلويين للطويل) .

٣١ - شهْرزوْر :

قال ياقوت : شهرزور كورة واسعة بين إربل وهَمَذان ، أحدثها زَور بن الضحّاك . و «شِهْر» بالفارسية المدينة .

وأهلها أكراد . وقد خرج منها العلماء وأعيان الفضلاء والفقهاء ، يفوقون الحصر . وكثير من أولئك نسبوا إليها واشتهروا بـ « الشهرزوريّ » .

---

(١) لقد حقّقت في قول حمزة هذا في معجمات اللغة الفارسية فلم أجده ، وكأني أميل إلى أن أهل المعرّب من العلماء العرب لم يكن لهم معرفة حسنة بالفارسية على قربهم منها . ونسبة حمزة إلى أصبهان لا تعني شيئاً ، وقد تأكدت أن ابن الجواليقي لا يعرف الفارسية وإن شمّر في أقواله ، ونسب ألفاظاً كثيرة إليها لم تكن فارسية .

٣٢ - صَيْـدا (أبو صَيْدا) :

أقول : هى بليدة صغيرة على نهر ديالى تُعرف بـ (أبو صَيْدا) . و « صَيْدا » هذه نظير الاسم نفسه « صَيْدا » من حواضر بلاد الشام المشهورة التى تكون فى عصرنا فى جنوبىّ لبنان وهى « باصَيْدا » و « با » كما بيّنا فى « با عشيقا » و « با عقوبا » تَعنى «البيت» وعلى هذا تكون « باصَيدا » تفيد «بيت الصيد» . والمدينة على هذا تحمل الصيغة الآرامية .

أقول : والعرب من أهل اللغة والتاريخ ذهبوا إلى تفسير مادة « صيداء » يعنى الحجر الأبيض تُعمَل منه البرام « جمع برمة » ، كما فسروا البصرة والكوفة أنها تربة وحجارة رخوة ونحو هذا ، وليس لنا أن نقبل هذه التفسيرات .

٣٣ - عـانة :

قال ياقوت : « عانات » بليدة فى أعلى الفرات .

قال الكلبى : قُرى « عانات » سُمّيت بثلاثة إخوة من قوم عاد . قال الأعشى :
كأنّ جنِيّا من الزنجبيل خالط فيها ، أو اريّاً مَشورا .

وإسْفنْط عانَةَ بعد الرقاد شكّ الرصاف إليها عذيرا .

وقال : قلعة حصينة على الفرات .

أقول : قد تكون الفائده قليلة لنا ، نحن الدارسين ، ونحن ننظر فى أقوال المتقدمين كالكلبى والشرقى بن القطامى وغيرهما . ولنا أن نعرف أنها « عانة » و «عانات» ، وقد عرفت « هانا » فى العهد البابلى القديم .

وهى « أناتا وأناتو » فى المصادر اليونانية الرومانية .

أقول : إن الذى ورد فى مصادر الإغريق من أنها « أناتو أو أناتا » هو معروف فى الأكديّة البابلية والرسم المسمارى للهمزة والعين واحد ، وقد ظن نفر من أهل الآثار أن «العين» لا توجد فى الأبجدية الأكدية ، وهذا وهْم . وفى العربية الفصيحة « العانة » القطيع فى الحُمُر الوَحْشية ، قال الشاعر القديم :

وبينا هما عَنّت على البُعد عانة

قد اكتنزت لحماً وقد طُبِّقَتْ شَحْما

ولكننا نجد « عانا » السريانية تفيد «الضأن » (١) .

أقول : لعل بُليَدة «عانة» قد سُمّيت بهذا الاسم الذى يدلّ على الضأن !

---

(١) ربما اختلفت اللغات السامية فى المشترك من اللفظ بينهما كما كان فى «عانة» فهى فى الآرامية الضأن ، وفى العربية « حُمر الوحش » .

قلتُ : إن « الضاد » فى العربية يقابله العين فى الآرامية ، ولذلك كانت « البيعة » التى نُقلت من السريانية الآرامية بصوت العين لتعنى « بنية النصارى أو الكنيسة » ، وكان ينبغى أن تكون « بَيْضة لأنها فى الحقيقة =

وهى فى عصرنا بليدة على الفرات فى الجانب الأيسر ، وفيها جزر فى وسط النهر جُعِلت بساتين فيها نخيل وأعناب .

وقد اقتضت مصلحة لبناء سُدّ على الفرات فى موضع هذه المدينة أن تُزال المدينة ويُرسَم لها موضع آخر يبعد عنها ، تجلب إليه مياه الفرات ، فزالت وبكاها أهلها ممن عرفوا الماضى وكيف عمروها وغرسوا نخيلها وشجرها وشقوا فى ذلك .

٣٤ - عين التمر :

قال ياقوت :

هى بلدة قريبة من الأنبار ، غربىّ الكوفة ، بقربها موضع يقال له « شِفاثا » ، منها يُجلَب القَسْب والتمر . فتحها المسلمون أيام أبى بكر الصديق على يد خالد .

أقول : نعم قد تقرب « عين التمر » من الأنبار فى سعتها القديمة التاريخية ، ولكنها الآن تابعة لمحافظة « كربلا » ، على طرَف البادية ، وهى بليدة صغيرة جداً .

أما قول ياقوت : بقربها موضع يقال له «شِفاثا» ، فصحيح ، وهذه الآن ناحية صغيرة يكثر فيها النخيل ، وماؤها من عيون يخالطه مركبات معدنية كالكبريت وغيره . وللعراقيين فى عصرنا مثل عامى ، يقولون : «ترجو العافية فى شِفاثا » [1] .

٣٥ - الفَلّوجة :

قال ياقوت : الفلّوجة الكبرى والفلّوجة الصغرى قريتان كبيرتان من سواد بغداد والكوفة .

أقول : و « الفلّوجة » فى عصرنا مدينة عامر من محافظة الأنبار ، على الفرات يمر بها الذاهب من بغداد إلى دمشق براً . وكان الناس يبدلون من الفاء ثاءً .

٣٦ - كَرْبَلاء :

قال ياقوت : هى بالمدّ ، وهى الموضع الذى قتل فيه الحسين بن على - رضى الله عنه - فى طرف البرية عند الكوفة . فأما اشتقاقه فالكربلة رخاوة فى القدمين ، يقال : جاء يمشى مكربلاً ، فيجوز على هذا أن تكون أرض هذا الموضع رخوة فسميت بذلك . ويقال :كربلت الحنطة إذا هذّبتها ونقّيتها فيجوز على هذا أن تكون هذه الأرض منقّاة من الحصى والدغل ، فسُمّيت بذلك .

= « قُبّة بيضاء اللون » . قال تعالى : « .. لَهُدِّمَت صَوَامِعُ وبِيَعٌ » .

(١) شفاثا هذه من الأصول الآرامية التى بقيت فى أسماء المواضع والمدن ، ولم أهتد إلى دلالتها .

وأورد ياقوت أن الحسين قال : ما اسم هذه الأرض التى نحن فيها ؟ قالوا : كربلاء ، فقال : أرض كربٍ وبلاء ! وأراد الخروج منها فمنع كما هو مذكور فى مقتله .

أقول : و « كَرْبَلاء » اليوم مركز محافظة كبيرة ذات بساتين فيها نخيل وشجر يسقيها نهر يدعى « الحسينية » يأخذ ماءه من دجلة .

أقول أيضاً : هى بالقصر فى اللغة الدارجة ، وهى كذلك فى لغة الشعر ، ومما ورد من ذلك فى لغة الشعر ما نسب إلى الشريف الرضى من قوله فى مطلع قصيدة طويلة :

كَرْبَلا لازلتِ كَرْباً وبَلا

ما لَقِى عندكِ آلُ المصطفَى

وقد وردت ممدودة فى قول الرباب بنت امرئ القيس ترثى الإمام الحسين :

إنّ الذى كان نوراً يستضاء به

بكربَلاءَ قتيلٌ غير مدفونِ

وكأنى أجعل الأصل هو لغة القصر «كَرْبَلا» وبذلك أستطيع أن ألحق هذه الكلمة بالأصول الآرامية فى أسماء المدن فيما بين النهرين وبلاد الشام .

٣٧ - الكوفة :

قال ياقوت : « كوفان » اسم أرض ، وبها سميت الكوفة . و« كوفان والكوفة » واحد والكوفة من أض بابل من سواد العراق . سميت لاستدارتها من قول العرب : رأيت كُوفاناً وكَوَفاناً .

وقيل سُمِّيت « كوفة » لاجتماع الناس بها ، من قولهم : تكوَّف الرمل .

وقد مُصِّرت فى أيام عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - سنة ١٧ هـ ، وقيل : سنة ١٨ هـ .

وقال قوم : إنها مُصِّرت بعد البصرة بعامين أى سنة ١٩ هـ .

قال أبو عبيدة : لما فرغ سعدُ من وقعة رستم بالقادسية .

أقول : لم يكن للدارسين الثقة التامة فيما سجله ياقوت وغيره عن الحواضر القديمة ذات الأصول التى سبقت تاريخ العرب والمسلمين ، فقد ذهبوا إلى شىء من القصص التى يختلط فيها التاريخ بالأسطورة . وقد ذهبوا أحياناً فى

الوصول إلى شيء يرضيهم بالرجوع إلى تأويل الكلم القديم بما يناسب العربية ، أو قل : إنهم وضعوا شيئاً فحملوا غيرهم عليه ، ألا ترى أنهم فسّروا البصرة والكوفة وصَيدا بشيء يتصل بالأرض والحجارة وبسطوا على كل من هذه لوناً يميزها !

أقول : لابد لي أن أذهب إلى أن «الكوفة» « من الكلم القديم « كوفا » التي تومئ إلى الصيغة السريانية وأن العرب حين واجهوا هذا ومثلها باعقوبا وبعشيقا ، نظروا إلى الألف الأخيرة ، وهي فتحة طويلة مالوا إلى تأنيث هذه الألفاظ فأضافوا هاءً محتفظة بفتحة قبل الهاء على غرار المؤنّثات في العربية فصارت : كوفة وبصرة وبعقوبة وبعشيقة . كما مالوا إلى هذا في الكلمات الأخرى نحو سوريا [1] وتركيا وإيطاليا ، وفَرنسا وغيرها ، وجعلوها : سوريّة وتركية وإيطالية وفَرَنْسة .

وكأني أستدل على هذا الرأي في «الكوفة» بما ورد في مصادرنا في «كوثَى[2]» أو «كوثا» فقيل كوثَى : موضع بسواد العراق في أرض بابل ، وهي سُرّة السواد .

أقول : لابد أن يكون هذا الموضع أصلاً لـ «كوفا » التي تحوّلت إلى «كوفة» . وبين الثاء والفاء إبدال كثير في العربية فقالوا : جَدَث وجَدَف ، وقالوا : ثآليل وفآليل . وعامة العراقيين يقولون «ثلّوجةً» للفلّوجة التي مرّ ذكرها . وسمعنا لدى القرويين من يقول : «فَلج» للثلج .

٣٨ المدائن :

قال ياقوت : هي عدّة مدن عراقية اسمها بالفارسية «توسفون» (طَيْسَفون) ، وهي بما يقرب من ٣٥ فرسخاً جنوبيّ بغداد . اتّخذها سعد بن أبي وقاص مقرًّا له في فتح العراق . واتّخذها الفرثيون مَشْتًى ، وأعقبهم الساسانيون فاتخذوها عاصمة .

أقول : في هذه المدينة «طاق كسرى» أو إيوان كسرى الذين ورد ذكره في سينيّة البحتري الشهيرة التي مطلعها :

---

(١) قيل في «سوريّا» إن هيرودتس الإغريقي حين مرّ بهذه المواضع حسبها «بلاد الآشوريين» فكانت لديه أشوريا أو أسّوريا ، ومن هذا جاء الاسم «سوريا» .

(٢) و «كوثى » من أسماء مكّة - حرسها الله - .

صُنتُ نفسى عما يُدنِّسُ نفسى

وتَرَفَّعتُ عن جَدا كلِّ جِبْس

وفى هذه المدينة : قبر الصحابى سلمان الفارسى ، ويطلق عليه العراقيون كما يطلقون على البليدة كلها «سلمان پاك» و « پاك » هذه تعنى « النظيف والطاهر » بالفارسية . وبقى « سلمان پاك » هو المعروف فى التنظيمات الإدارية ، ثم اجتهد أولو الأمر فأعادوا كلمة «المدائن» إلى هذه البليدة كما أعادوا أسماء قديمة أخرى لحواضر كثيرة مرَّت بنا فى هذا «الموجَز» .

٣٩ - المَوْصِل :

قال ياقوت : الموصل إحدى قواعد الإسلام ، قليلة النظير كِبَراً وعِظَماً وكثرةَ خَلْق وسَعَةَ رُقعة . وهى باب العراق ، ومنها يُذهب إلى خراسان ، ومنها يُقصَد إلى أذربيجان لأنها وصلت بين الجزيرة والعراق ، وقيل : وَصَلت بين دجلة والفرات ، وقيل وصلت بين سنجار والحديثة .

أقول : هى فى عصرنا حاضرة مهمة ذات قيمة تاريخية واقتصادية ، وهى أمّ الربيعين مركز محافظة كبيرة اختير لها الاسم الآشورى القديم «نَيْنَوَى» التى تشمل عدة مدن وحواضر وقرى .

ولابد من القول فى نبذة موجزة عن «نَيْنَوَى» فأقول :

هى عاصمة الآشوريين فى الألف الأول قبل الميلاد التى ورد ذكرها فى سفر التكوين من العهد القديم وقد أشير إلى نمرود الذى أسّسها فى سهل «شنعار» . وهناك إشارات أخرى إلى هذه الحاضرة فى سفر ناحوم من أنبياء بنى إسرائيل .

ولم أهتدِ إلى معرفة معنى «نينوى» فيما بين يدى من مراجع يسيرة ، ولم يُشر الغربيون إلى هذا وهم يبحثون وينقبون فى آثار الآشوريين ومدينتهم هذه « Ninive » .

أقول : وقد خرج من الموصل جمهرة من أهل العلم ، ونُسب إليها عدد كبير منهم (١)

وللموصل شهرة حضارية عرفت فى فنون الصناعات ومنها صناعة النسيج . وحديث «موصلايا » ودلالتها معروفة .

٤٠ مَيْسَان :

قال ياقوت : هو ، بفتح فسكون وسين مهملة وآخره نون ، ، اسم كورةٍ واسعة كثيرة القرى والنخل بين البصرة وواسط ، قصبتها ميسان .

---

(١) كان من منشورات المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية كتاب مفيد هو «تاريخ الموصل » .

وفى هذه الكورة أيضًا قرية فيها قبر «عُزَيـر» النبىّ - عليه السلام - مشهور معمور ، يقوم بخدمته اليهود ، ولهم عليه «وقوف» وتأتيه النذور ، وأنا رأيته . ويُنسَب إليه «مَيْسانِى ومَيْسْنانى» . وكان أمير المؤمنين عمر بن الخطّاب ، لمّا فتحت مَيْسان فى أيّامه ولاّها النعمان بن عدى بن نَضْلة بن عبد العُزّى بن حُرثان ..... وكان من مهاجرة الحبشة ، ولم يُوَلّ عُمر أحداً من بنى عَدىّ ولايةً قطّ غيره لما كان فِى نفسه من صلاحه .

وأراد النعمان امرأته معه على الخروج إلى مَيْسان فأبَتْ عليه فكتب النعمان إلى زوجته :

ألا هل أتى الحسناءَ أنّ حليلَها

بَميْسانَ يُسقَى فى زجاجٍ وحَنْتَمِ

إذا شئت غَنَّتنى دهاقين قَريةٍ

وصَنّاجة يجثو على حَرْف مَنْسِمِ

فإنْ كنتَ نَدمانى فبالأكبَرِ اسْقِنى

ولا تَسْقِنِى بالأصغر المُتَثلّمِ

لعلّ أمير المؤمنين يَسوءُه

تَنادُمُنا بالجَوْسَقِ المُتهدّمِ

فبلغ ذلك عمرَ ، فكتب إليه :

بسم الله حم تنزيل الكتاب من الله العزيز غافر الذنْب وقابل التَّوْب شديد العقاب ... أما بَعدُ فقد بلغنى قولك : «لعلّ أمير المؤمنين يسوءُه» وايمُ الله ، لقد ساءنى ذلك ، وقد عزلتك .

أقول : وقد أطلق اسم مَيْسان فى عصرنا على القرية الصغيرة التى فيها قبر « العُزَير» نبىّ الله - عليه السلام - . لقد كان هذا قبل مايقرب من خمسين سنة . ثم تنبّه أهل الرأى إلى ما كان منهم فعادوا إلى الاسم ونزعوه عن القرية وأطلقوه على رقعة واسعة جداً وجعلوه محافظة مركزها مدينة «العمارة» على الجانب الشرقىّ من دجلة بين واسط والبصرة .

٤١ - النّجف :

قال ياقوت : بظهر الكوفة كالمسنّاة ، تمنع مسيل الماء أن يعلو الكوفة ومقابرها . وبالقرب من هذا الموضع قبر أمير المؤمنين - رضى الله عنه - على بن أبى طالب . وقد ورد ذكر الموضع فى الشعر ولاسيما حين يعرض الشعراء لرثاء الإمام ، قال على بن محمد العلوىّ المعروف بـ «الحِمَّانِىّ الكوفِىّ» .

فيا أسَفِى على النَّجَف المُعَرَّى

وأوديةٍ منوّرة الأقاحى

أقول : وكانت مدينة النجف تابعة لمحافظة «كَرْبلا» ، ثم رأت الحكومة أن تجعلها محافظة لمكانتها الدينية والعلمية ، كان هذا منذ ما يقرب من ربع قرن .

٤٢ - نِيْنَوى :

انظر « المَوْصِل » .

٤٣- هيت :

قال ياقوت : هى بُليدة على الشاطىء الغربى من الفرات فى الرقعة الواسعة التى دُعيت «الأنبار» .

وقد عُرفت بـ «القار» وهو المعروف لدى أهل الصنعة .

أقول : وهذه المدينة هى التى ذكرها المعرّى فى شعره :

هاتِ الحديثَ عن الزوراء أو هيتا

وموقد النار لا تكرى بتكريتا .

٤٤ - واسط :

قال ياقوت : هى عدة مواضع منها :

واسط الحجّاج وهو أعظمها وأشهرها ، سُميّت لتوسُّطها بين البصرة والكوفة .

أقول : لم يكن معروفًا أمر واسط قبل ربع قرن إلا فى أطلالها وبقاياها فى حجارة وجدد متناثرة بعيداً عن نهر الفُرات ببضعة كيلومترات . غير أن أولى الأمر - جريًا مع سياستهم التنظيمية فى الحواضر والمدن - أعادوا هذ الاسم إلى المنطقة التى كانت تعرف بـ «لواء الكوت[1] » أو محافظة الكوت فِى منتصف الطريق بين بغداد والبصرة ، فكانت «محافظة واسط» .

خاتمة

هذا موجز بالأعلام الجغرافية فى العراق جعلته إلى أهم الأعلام ذات الأصول الجغرافية التاريخية وماعرض لها فى مسيرتها التاريخية، وقد ابتعدت فيه عن المشهور مثل « بغداد » وغيرها لكثرة ما كتب فيها .

إبراهيم السامرائى

عضو المجمع من العراق

---

(١) «الكُوت» حاضرة حديثة أنشأها الناس حول ماكان «Cot» فى الإنكليزية وهو المنزل الصغير الذى أقامه الإنكليز فى القرن التاسع عشر نقطة ومركزاً لهم على طريق الهند ، وهذا المنزل نظير «كُوت الزّين» و«كوُت الإمارة» وغيرها . ولابد أن يكون أوّل قيام «الكويت» هذا .

مجمع اللغة العربية ...

غـاية شـوط ...

قصيدة للفريق يحيى عبد الله المعلمى

غــايةُ الشــوط بِحِـصنِ الخــالدينْ ... مــعــقلِ الإبداع والفن الرصينْ
بعــد كــدٍّ وكــفــاح لا يلينْ ... تبلغ الذروةَ آمــالُ السنينْ
عِـشْـقُنا الفـحـصى بوجـد الوالهينْ ... قـد رعـيناها بشـوقٍ وحنينْ
وعـذارى الشـعـر حـينًا بعـد حينْ ... تتـراءى كطيـوفٍ للعـيـونْ
كـفـراشـات بأعـمـاق السكونْ ... حـائمـاتٍ عن يسـار ويمينْ
تيَّـمَـتْنِى ... صـيَّـرَتنى فى شـجـونْ ... كى أنالَ القـربَ .. قُـربَ العاشـقينْ
وتـأبَّتْ بدلال وفـتـونْ ... تنشـد الإغـداق رقـراق المعينْ
مـهـرها الديبـاج والخـزُّ الثـمينْ ... لِمـعَـانٍ .. تنشـر اللفظ المبينْ
بوشـاح بُحـتـريٍّ اليـاسـمينْ ... وقـد ازدان بوشْيِ الملهَـمينْ
ببلوغ الأوج مَن ذا يستـهينْ ؟ ... بحـمـاكم صـرت وضـاء الجـبينْ

★ ★ ★

كم تجـافى الجنب فى المهـد الوثيـرْ ... فى ليـالى السعـد والعـهد النضيـرْ
كـانت (الأسـفـار) كـالكنز الأثيـرْ ... تُتـرِع الوجـدان بالعلم الغـزيرْ
كل سِـفـر بشـهـيق وزفـيـرْ ... كـان دنيـاى ومـصـباحى المنيـرْ
أشـهـد الأفـلاك مـا بين السطورْ ... فى ائتـلاق منذ أعـمـاق العـصـورْ

أى صعب هو فى عزمى يسيرْ والأمانى حيثما سِرتُ تسيرْ
وعشقت الشعر فى سمت غضيرْ لا يعانى من زحاف أو كسورْ
وجفوت (النبط) أمياً فطيرْ يرمق الفصحى بصمت لا يحيرْ
أين سكنى الكوخ من سكنى القصورْ أين - لا أين - لأُمِّيٍّ غريرْ
أين لفظ دارج المبنى حسيرْ من فصيح اللفظ ذى المعنى الغزيرْ
لغة القرءان للفذ البصيرْ نبع إثراء إلى يوم النشورْ

★ ★ ★

بين أقلامى وأوراقى عهودْ كنت فيها عن سُمُوٍّ لا أحيدْ
أنشد التوفيق بالجهد الجهيدْ كان نبلُ القصد لى بيتَ القصيدْ
وكتاب الله لى نعم المفيدْ كان مِشْكاتى إلى الرأى السديدْ
وحديث المصطفى حبل الوريدْ صار زادى فى صدور وورودْ
وشؤون الأمن فى الإسلام بيدْ صرتُ فيها صاحب الشأو البعيدْ
بعد تصنيفىَ للجمِّ العديدْ كان إقدامى بإخلاص شديدْ
ما قصدت الزهو والفخر المديدْ بل كجندى مشى بين الجنودْ
لابتغاء الأجر من رب مجيدْ كان كدحى ... لا لسبق أو صعودْ
سدد الخطو إلى منحى يُشيدْ برجالات لهم نهج رشيدْ
تذكر (الأعلامَ) منهم بالمزيدْ من دراسات تشوق المستزيدْ

★ ★ ★

إيه يا نخبة أقطاب البيانْ ... أوَ حقًّا ما يراه الناظرانْ
ما بدا فى الحفل من رأى العيانْ ... أشخوص أم (عقود من جمانْ)
كنت قبلاً فى بعادٍ وافتتانْ ... وحدا بى للطموح الحرَمانْ
(مجمع الضاد) دوامًا فى الجنانْ ... واختيارى فيه لى عزٌ وشانْ
كنت بالأمس بسيف وسِنانْ ... وأنا اليوم يَراع ولسانْ
كنت طوداً فى نزال وطعانْ ... ويداى اليوم كم ترتجفانْ
فأعينونى بتدعيم الكيانْ ... أنا فى البدء جدير باحتضانْ
لغة الضاد ستبقى فى أمانْ ... لا اعتلالٌ يعتريها أو هوانْ
بل شموخٌ بابتكارات (اللجانْ) ... أنتم الحراس فى هذا الزمانْ
أتقنوا التنقيب فى شتى المظانْ ... لازدهارٍ فى زمان أو مكانْ

الفريق

يحيى بن عبد الله المعلمى

عضو المجمع المراسل

من السعودية

★ ★ ★

ثانياً : بحوث
لم تلق فى المؤتمر

الجهود العربية فى ضبط الأعلام الجغرافية

لشبه الجزيرة العربية

للأستاذ الدكتور عبد الله يوسف الغنيم

إذا كان الهدف التطبيقى للجغرافيا فى الوقت الحاضر هو خدمة المجتمع والمساهمة فى تنميته ، فإن خدمة الجغرافيا للدراسات الأدبية والإنسانية لا تقل شأنًا عن ذلك . وقارىء الأدب العربى القديم يحتاج إلى معرفة البيئة التى ظهر فيها ذلك الأدب معبِّرا عنها ، وكذلك المؤرخون وكُتّاب السِّيرة وغيرهم .

ومعرفة البيئة المذكورة تقتضى معرفة أعلامها الجغرافية التى ترتبط أسماؤها إلى حدّ كبير بخصائص المكان وصفاته . ومن هنا فإن المحافظة على صورة الاسم للعلم الجغرافى لها أهميتها فى التعرّف على طبيعة المكان ، إضافة إلي المساهمة فى تحديد موضع ذلك العَلَم الجغرافى ووشائجه التاريخية والحضارية .

وسنعرض فى هذه الدراسة المسحية للمراحل المختلفة التى مرت بها الجهود العربية المبذولة لضبط الأعلام الجغرافية وتحديدها فى شبه الجزيرة العربية ، ويتخلل ذلك عرض للمشكلات التى عالجتها تلك الجهود ، وبيان بأوجه النقص المختلفة ، وبخاصة ما يتعلق بالتصحيف فى أسماء المواضع والذى عانى منه الأقدمون والمحدثون على حدٍّ سواء .

وقد مرت الجهود المبذولة للمحافظة على أسماء الأعلام الجغرافية بثلاث مراحل :

المرحلة الأولى : الدراسات الأساسية

ارتبطت هذه المرحلة بالفتوح الإسلامية الأولى حيث اختلط العرب بغيرهم من الشعوب فى الحواضر العربية ، الأمر الذى أدى إلى ظهور بعض العجمة فى كلامهم ، فخشى العرب على عربيتهم ، وبها نزل القرآن الكريم ، وحرص الخلفاء وسراة القوم على أن يتولى فصحاء المربين تنشئة أبنائهم عليها ، أو إرسالهم إلى البادية لينشأوا بين العرب الفصحاء .

وحينما بدأت النهضة الأدبية العلمية فى الحواضر العربية فى القرنين الثانى والثالث الهجريين ، نشط علماء العربية فى جمع مفردات لغتهم وتسجيلها ، وبخاصة ما ورد

منها في شعر الجاهلية وصدر الإسلام ، واحتاجوا إلى شرح تلك المفردات وتوضيحها للباحثين ، فكان أن رحلوا إلى البادية ليأخذوا العلم من معدنه ، حيث بقيت العربية على نقائها القديم لم تداخلها العجمة التي أصابت المدن والحواضر .

من هؤلاء العلماء النَّضْر بن شُميل (توفي ٢٠٤ هـ) وأبو عبيدة مَعْمَر بن المثنى (١١٤ - ٢١٠ هـ) الذي أقام بالبادية نحو أربعين سنة ، وعبد الملك بن قريب الأصمعي (١٢٨ - ٢١٦ هـ) وغيرهم . وقد صنف أولئك النفر من العلماء مصنفات كانت أشبه بالمعاجم المتخصصة تناولوا في كل منها مظهراً من مظاهر البيئة البدوية ، كالطير ، والوحش ، والنبات ، والدارات ، وغير ذلك من المصنفات التي كانت المصدر الأساسي لأصحاب المعاجم اللغوية التي ظهرت فيما بعد .

وقد كان نصيب المواضع من ذلك النشاط العلمي كبيراً ، وذلك لما تتضمنه قصائد الجاهليين وصدر الإسلام من أسماء تتعلق بمنازل القبائل ومناهل المياه ومواطن الكلأ . وكان العربي مخلصًا لبيئته محبًا لها يحن إلى ملاعب صباه ومنازله القديمة التي هجرها ، يمر عليها أو يتذكرها في غربته ، فيعدد منازلها ومناهلها ويذكر الطرق التي تصل إليها ، وقد حفلت مطالع القصائد العربية ببيان طائفة كبيرة من أسماء المواقع اهتم بتسجيلها علماء اللغة المشار إليهم .

وظهرت مجموعة من المصنفات التي اهتمت بالمواضع في الجزيرة العربية تحت عناوين مختلفة ، منها « بلاد العرب » و « مناهل العرب » و « صفة الجزيرة العربية » وغيرها ، وقد عرض ابن النديم في كتابه الفهرست مجموعةً منها وأجملها ياقوت الحموي عند بيانه لمصادره ضمن الصنف الخاص بالكتب التي قُصد بها ذكر البوادي والقفار ومنازل العرب الواردة في أخبارهم وأشعارهم ، وأشار ياقوت إلى عدد من المؤلفين في هذا الباب ، منهم أبو سعيد الأصمعي ، والحسن بن أحمد الهمداني ، وأبو الأشعث الكندي ، وأبو سعيد السيرافي ، وأبو محمد الأسود الغندجاني ، وهشام بن محمد الكلبي الذي وقف له على كتاب سمّاه « اشتقاق البلدان » ، وغيرُهم .

المرحلة الثانية : المعجمات الجغرافية

تمثل هذه المرحلة فترة ظهور المعجمات الجغرافية التى اعتمدت فى جانب رئيسى منها على كُتب المرحلة السابقة . وتضمنت تصحيحًا وضبطًا للتراث السابق فى هذا المجال ، ولم تقتصر تلك المعجمات على ضبط اسم الموضع فحسب ، بل تعدته إلى التعريف بذلك الموضع وتحديده وذكر ساكنيه ، وهذا ما أعطى لتلك الكتب صفتها الجغرافية . ولم تكن تلك المعجمات خاصة بمواضع الجزيرة العربية فقط ، بل وردت فيها مواضع كثيرة أخرى فى مختلف الأقطار الإسلامية لورودها فى كتب التاريخ والأخبار أو لصلتها بالفتوح .

وكان من أوائل المعجمات الجغرافية « معجم ما استعجم » لأبى عبيد البكرى (ت ٤٩٦ هـ) الذى يعتبر أول معجم غير لغوى فى أسماء المواضع يبنى على الترتيب «الألفبائى» الحديث . وظهر بعد معجم البكرى مجموعة من المعجمات التى التقت عند هدف واحد هو درء خطر التصحيف والتحريف عن أسماء الأعلام الجغرافية . ومن أمثلة ذلك كتاب « الجبال والأمكنة والمياه » لأبى القاسم محمود بن عمر الزمخشرى (ت ٥٣٨ هـ) ، وكتاب « الأمكنة » لنصر ابن عبد الرحمن الإسكندرى (ت ٥٦٠ هـ) ، وكتاب « الأماكن » لمحمد بن موسى الحازمى (ت ٥٨٤ هـ) وكتاب « معجم البلدان » لياقوت الحموى (ت ٦٢٦ هـ) . إضافة إلى معجمين آخرين هما «تقويم البلدان» لأبى الفداء (ت ٧٣٢ هـ) و «الروض المعطار» للحميرى (ت ٧٤٩) .

وإذا ما تركنا جانباً الترتيب الزمنى لتأليف الكتب المذكورة ، فإننا يمكن أن نصنفها فى ثلاث فئات واضحة :

أولاً : معجمات هدفت إلى بيان اتفاق الرسم واختلاف اللفظ الناشئ عن اختلاف الإعجام أو علامات الضبط ، وهى مقسمة إلى أبواب بحسب المواد المتفقة فى الرسم ومرتبة وفق أولها فى الترتيب الألفبائى ، فمثلاً فى باب (ثبير وسُرّ) ورد هذا الباب فى حرف الثاء ولم يرد فى حرف السين ، ومثل ذلك يقال فى باب (ثُرَيَّا ويُرَنا) الذى يرد فى حرف الثاء .

وقد سار على هذا المنهج معجمان رئيسان هما كتاب « الأمكنة والمياه والجبال والآثار ، ونحوها ، المذكورة فى الأخبار والأشعار » لأبى الفتح نصر بن عبد الرحمن الفزارى الإسكندرى

وكتاب «الأماكن» لمحمد بن موسى الحازمى . وقد عاصر الحازمى نصراً واستفاد كثيراً من كتابه مادةً ومنهجًا ، إذ يتفق الكتابان فى معظم النصوص اتفاقًا يكاد أن يكون تامًا الأمر الذى جعل ياقوت الحموى يتهم الحازمى بانتحال كتاب نصر واختلاسه . غير أن دراسة الشيخ حمد الجاسر لهذين الكتابين تنتهى إلى أنه رغم كون الكتابين يكادان يتفقان اتفاقًا حرفيًا إلا أن كتاب الحازمى يمتاز على كتاب نصر بأن قسمًا كبيراً من المواضع أورد الحازمى تحديدها نقلاً عن علماء ذكر أسماءهم واستشهد بأشعار كثيرة ، واطلع على كتب كثيرة لا نجد لها فى كتاب نصر ذكراً ، ويتضح ذلك بصورة خاصة فى أول الكتاب . أما كتاب نصر فله ميزة لا توجد فى كتاب الحازمى فهو فى آخر كل حرف من حروف الهجاء يسرد أسماء كثير من المواضع المبدوءة بذلك الحرف ويحدد مواقعها ، وهذا ما لا يوجد فى كتاب الحازمى (ص : ١٦ مقدمة حمد الجاسر من كتاب الأمكان للحازمى) .

ولهذين الكتابين قيمة خاصة إذ يقدمان حصراً مبوبًا وواضحًا لأسماء الأماكن التى قد يدخلها التحريف أو يقع فيها التصحيف ، وهو منهج فى ضبط أسماء الأعلام الجغرافية لا نجد له مثيلاً فى الكتابات الأخرى التى جاءت فيما بعد في التراث العربى ، ولا يقتصر ما جاء فى الكتابين على المواضع الواردة فى الجزيرة العربية ، بل يتجاوز ذلك إلى المواضع التى لها ذكر فى الفتوح فى بلاد (مصر والشام وفارس ... وغيرها) أو يُنسب إليها بعض العلماء المشاهير ، ومثال ذلك نص الحازمى فى باب شِيزْ ، وَشَبَرَ ، وَسَيِّر :

اما الأول : بكسر الشين بعدها ياء تحتها نقطتان وآخره زاى ناحية بأذربيجان ، من فتوح المغيرة بن شعبة صلحًا ، يقال : منها كان زَرَادَشْتُ الذى يُقال : إنه كان نبى المجوس وقصبةُ هذه الناحية أرْمِيَّةُ .

واما الثانى : بفتح الشين والباء الموحدة المخففة وآخره راء : موضع من نواحى البحرين.

واما الثالث : بفتح السين المهملة بعدها ياء تحتها نقطتان مشددة مكسورة : كَثِيبٌ بين المدينة وَبَدْرٍ ، يُقال : هناك قَسَمَ رسول الله صلى الله عليه وسلم غنائم بدر ، وقد يُخَالَفُ فى لفظه .

ويلاحظ من هذا المثال بعض الاختلافات بين كتابَيْ الحازمى ونصر ، فالأخير أورد هذا النص

ضمن باب شَبَر وشيز وسَبُر ، وقد جاءت عبارة نصر مقتضبة لكنها وافية بالغرض . ونص الحازمى عن « سير » بالياء أصح من نصر الذى أوردها بالباء الموحدة التحتية ، وقد أكد ذلك الشيخ حمد الجاسر فى حواشيه على كتاب الحازمى .

ثانياً - معجمات قُصد بها بيان ما اشترك لفظًا واختلف صقعًا ويمثل هذا الجانب المعرفى فى تسجيل الأعلام الجغرافية أهمية خاصة فى إزالة الالتباس الذى يواجه القارىء نتيجة تشابه الأسماء . والكتاب الوحيد الذى وردنا فى هذا السياق هو كتاب ياقوت الحموى « المشترك وضعًا والمفترق صقعًا » انتحله من كتابه الكبير معجم البلدان ، ذكر فيه « ما اتفق من أسماء البقاع لفظًا وخطًا ووافق شكلاً ونقطًا وافترق مكانًا ومحلاً ، واختلف صقعًا ومُحْتلاً ... » وقد رتب ياقوت كتابه هذا على حروف المعجم ، ملتزمًا ذلك من أول الكلمة ثم ما بعدها . ومثال ذلك :

« باب الزَّارة ثلاثة مواضع : بعد الألف راء : الزارة قرية كبيرة بالبحرين لها ذكر فى الفتوح ، ومنها مَرزُبان الزارة ، والزارة قرية بالصعيد قرب قِفْط ، الزارة من قرى طرابلس الغرب منها إبراهيم الزراى ... » (ص : ٢٣٠) .

وهذا الأسلوب فى ضبط الأعلام الجغرافية يوفر معرفة بالأعلام المكررة التى غالبًا ما يؤدى الجهلُ بها إلى أخطاء علمية سواء ما يتعلق منها بالجانب الجغرافى أو نسبة بعض العلماء إلى غير أقاليمهم وغير ذلك من الالتباسات .

ثالثاً - معجمات للبلدان نهجت الترتيب الألفبائى المعروف في العصر الحديث ، فيبدأ المعجم بالهمزة والألف ثم الهمزة والباء ، وهكذا إلى انقضاء الحروف الثمانية والعشرين ، وقد سار على هذا النهج البكرى ، والزمخشرى ، وياقوت الحموى . وإذا ما تركنا كتب الزمخشرى وأبى الفداء والحميرى جانبًا لأنها تعتنى بضبط المواضع على النحو الذى سار عليه البكرى وياقوت وقصرنا كلامنا هنا على كتابى « معجم ما استعجم » و « معجم البلدان » ، فإننا نلاحظ الآتى :

معجم ما استعجم :

كان الغرض الذى دفع البكرى إلى تأليف كتابه هو شيوع التصحيف فى أسماء المواضع

بين الناس ، فلما رأى أن ذلك قد استعجم على الناس ، أراد أن يفصح عنه ، بأن يذكر كل موضع مُبَيَّن البناء ، مُعْجَم الحروف ، حتى لا يدرك فيه لبس أو تحريف (١) .

وأورد البكرى فى مقدمته أسماء المواضع التى يحدث فيها التصحيف عادةً ، منها نَاعِجَة وبَاعِجَة ، نَبْتَل وَثَيْتَل ، نَحْلَة ونَخْلَة ، وما إلى ذلك .

وضرب الأمثلة على تصحيف علماء اللغة كالأصمعى وأبى عبيدة لأسماء المواضع ، وذكر من علماء الحديث يزيد بن هارون ، وأنه على إمامته فى الحديث وتقدمه فى العلم يصحف « جُمْدَان » وهو جبل بالحجاز بين قديد وعسفان من منازل بنى أسلم ، فيقول « جُنْدَان » بالنون ، وهو من المواضع الواردة فى الحديث (٢) .

منهجه فى تحديد الموضع :

لما كان الغرض من تأليف المعجم هو المحافظة على النطق الصحيح ومواضع الأعلام الجغرافية ، فإن ضبط الموضع - لغةً ومكانًا - من أهم الأغراض التى اعتنى بها البكرى فى معجمه ، وهو فى هذا يلجأ إلى إحدى طريقتين :

(أ) التصريح بذكر بناء الكلمة ، نحو قوله « الجَزْلاء ، على وزن فَعْلاء » .

(ب) التنبيه على الحروف المهملة والمعجمة بواحدة ، والمثناة والمثلثة والفوقية والتحتية ، نحو قوله « أُسَيْس : بضم أوله ، والياء المعجمة باثنتين من تحتها ، بعدها سين مهملة ، على لفظ تصغير أُس »(٣). ويعتنى البكرى بالضبط عناية كبيرة ، فيتتبع ضبط الموضع فى المصدر الذى يأخذ عنه ويشير إلى ذلك ، ففى رسم (دُورِم) - مثلاً - قال : « هكذا تكرر فى كتاب الهمدانى مضبوطًا » (٤) .

ويأتى بعد الضبط تحديد الموضع ، ويمكن أن نفرق بين عدة صور لتحديد الموضع فى معجم البكرى بخلاف معجم ياقوت الذى يكاد يسير على نظام واحد ، فالاسترسال فى أى موضع من المواضع عند ياقوت دليل على أهمية ذلك الموضع ولا يكون عادةً إلا عند ذكره المدن .

---

(١) البكرى : معجم ما استعجم ، (١ / ١) .
(٢) المرجع السابق ، (١ / ٣) .
(٣) معجم ما استعجم : (١ / ١٥٢) .
(٤) معجم ما استعجم : (١ / ١٥٢) .

ويمكن أن نميز بين نمطين فى أسلوب تحديد الموضع عند البكرى :

الأول : مواضع اقتصر على ضبطها دون أن يتعرض لمكانها ، ومعظم هذه المواضع نقلها عن ابن دريد ، ويقتصر تعريف البكرى لها على قوله : « موضع ذكره ابن دريد ولم يحدده » ، ويمكن اعتبارها من مشكلات البحث التى تدعو من يأتى من بعده إلى متابعة الدراسة فيما توقف فيه . وهذا ما فعله ياقوت - على سبيل المثال - حينما توافرت لديه المعلومات عن بعض هذه المواضع .

الثانى : مواضع ينسبها البكرى إلى الإقليم الذى تقع فيه ، فيقول بأن ذلك الموضع فى نجد أو تهامة أو حصن بأرض اليمامة . أو ينسبها إلى بلاد قبيلة معينة فيقول : « موضع فى ديار غطفان » أو « اسم واد لبنى سليم » ، ثم يورد البكرى شاهداً أو أكثر من شواهد الشعر، أو حادثة تاريخية ترتبط باسم ذلك الموقع .

معجم البلدان لياقوت الحموى :

ذكر ياقوت فى مقدمته أن حافزه إلى تأليف كتابه هو تلك المناظرة التى جرت له مع أحد المحدثين فى مجلس السمعانى عن « حُباشة » اسم موضع جاء فى الحديث النبوى ، وهو سوق من أسواق العرب فى الجاهلية ، فقال ياقوت أنه « حُبَاشة » بضم الحاء ، أما الآخر فقال إنما هو « حَبَاشة » بالفتح ، وأصر على ذلك . ولما تبين لياقوت صواب رأيه بعد طول بحث ألقى فى روعه افتقار العالم إلى كتاب يُعنى بتقييد أسماء المواضع وضبطها .

ويختلف كتاب الحموى عن كتاب البكرى فى أن الأول قد اعتمد على طائفة كبيرة من المصادر ، ولم يقتصر على كتب اللغة والأخبار كما فعل البكرى . وقد أشار ياقوت إلى ثلاث طبقات من المصادر :

أولها : طبقة القدماء أمثال أفلاطون وفيثاغورس وبطليموس .

وثانيها : كتب طبقة الإسلاميين الذين سلكوا نهج القدماء فاهتموا بذكر البلاد والممالك وعينوا الطرق والمسالك ، مثل ابن خرداذبة واليعقوبى والجيهانى والاصطخرى وابن حوقل والبشارى وغيرهم .

وثالثها : طبقة أهل الأدب الذين قصدوا الأماكن العربية والمنازل البدوية ، أمثال أبى سعيد الأصمعى ، وأبى عُبيد السكونى والحسن بن أحمد الهمدانى .

وانتقد ياقوت كلَّ طبقة من الطبقات الثلاث ، فالأولى وقف لهم منها على تصانيف عدة ، وجهل أكثر الأماكن التى ذكرت فيها ، وأبهم عليه أمرها وعدمت لتطاول الزمان فلا تعرف . والثانية أسماء الأماكن فى كتبهم مصحفة مغيرة قد مسخها من نسخها . وأما الثالثة فإنها وإن وجدت لها أصول مضبوطة فإنها غير مرتبة وشديدة الاختصار لأن قصدهم منها تصحيح الألفاظ .

ثم ذكر الحموى منهجه فى الكتاب بأنه قام بجمع ما شتته السابقون وأضاف إليه ما أهملوه ورتبه على حروف المعجم ، ووضعه وضع أهل اللغة المحكم ، وأبان عن كل حرف من الاسم هل هو ساكن أو مفتوح أو مضموم أو مكسور ، ثم ذكر اشتقاقه إنْ كان عربياً ، ومعناه إن أحاط به علمًا إنْ كان أعجميًّا ، وفى أى إقليم هو وأى شىء طالعه ، ومن بناه وأى بلد من المشهورات يجاوره ... إلخ .

لقد وصل ياقوت الحموى بهذا الفن الجغرافى فى القرن السابع الهجرى إلى غاية كبيرة من الكمال . ومع أن ياقوتًا لم يطّلع على معجم البكرى ، رغم بحثه عنه وتطلبه له (١) إلا أن معجم البلدان احتوى معجمات كاملة ضمنها ياقوت فى كتابه ، من ذلك كتاب الزمخشرى : « الجبال والمياه والأمكنة » ، وكتاب « الأمكنة » لنصر بن عبد الرحمن الإسكندرى ، و « الأماكن » لأبى بكر محمد ابن موسى الحازمى ، كما أفاد من كتاب « تهذيب اللغة » للأزهرى ، ونوادر أبى زيد الأعرابى ، وغيرهما من أصحاب اللغة .

وبالمقارنة بين معجمى البكرى وياقوت ، يمكن أن نخرج ببعض الملاحظات :

١ - كتب البكرى كتابه معتمداً على ما بين يديه من الكتب ، وكان احتمال الخطأ فى معجمه يتفق مع التصحيف أو التحريف الذى لا يخلو منه كتاب ، ومن تلك التصحيفات ما يقود إلى أخطاء أخرى كقوله أن « بَارِق على وزن فاعل من برق : جبل بالسواد قريب من الكوفة » وهو خطأ ، فبارق جبل بالسراة

---

(١) ياقوت الحموى : معجم البلدان (١ / ٧) .
(٢) معجم ما استعجم : (١ / ١٥٢) .

وعندما صحف السراة فقال السواد أضاف الكوفة حتى يستقيم المعنى [٢] . وقد نبّهنى أستاذنا الشيخ حمد الجاسر إلى كثير من أسماء الأعلام الجغرافية وردت مصحفة ، منها :

آنقة = آنِقَة (ص : ١٤)[١]

الأيسر = الأنْسَر (ص : ٩٧)

بديع = يَدِيع (ص : ٢٣٢)

بق = نَفْء (ص : ٢٦٣)

بنيان = بَنْبَان (ص : ٢٨١)

وقد فطن القدماء إلى الأخطاء الواردة فى كتاب البكرى ، فتعرض السُّهيلى فى « الروض الأنف » للكثير من تلك الأخطاء ، وذكر ابن دحية (ت ٦٣٣ هـ) فى ترجمته لأبى الحكم على بن محمد بن عبد الملك اللخمى أنه أخذ عنه استدراكه على الوزير أبى عبيد البكرى فى معجم ما استعجم وذلك نحو من أربعمئة موضع[٢] .

ولا نريد أن نبرئ معجم ياقوت الحموى من أخطاء التصحيف ، وبعض تلك الأخطاء سبق أن صوبها البكرى فى معجمه ، مثال ذلك قول ياقوت : « قُراضِمْ » بالضم ، وبعد الألف ضاد معجمة وميم ، يقال : قرضت الشىء أو قطعته وهو اسم موضع بالمدينة[٣] .

أما البكرى ، فذكر أن ذلك الموضع بين المشلل والخيمتين ، وقال « قال الهجرى : وكنا نرويها قُراضم بالقاف ، حتى سألت أعرابيًا عن تلك الناحية ، فقال فُراضم بالفاء عندنا ، ووصف الموضع »[٤] .

غير أن أخطاء ياقوت فى معجمه أقل بكثير من أخطاء البكرى ، فالرحلات التى قام بها ياقوت قد قللت إلى حد كبير من خطر التصحيف ، وقد رحل ياقوت إلى الشام ومصر وتبريز ونيسابور إلى أن بلغ مرو ، فأتاحت له تلك الرحلات تحقيق أسماء معجمه على الطبيعة .

٢ - استعان ياقوت بعدد كبير من كتب الجغرافيا اليونانية والعربية لم تتهيأ للبكرى فى فترة انشغاله بعمل المعجم ، ولعل اقتصار الأخير على ما ورد فى أخبار العرب وأشعارهم

(١) معجم ما استعجم : (١ / ١٥٢) .
(٢) معجم ما استعجم : (١ / ١٥٢) .
(٣) معجم ما استعجم : (١ / ١٥٢) .
(٤) معجم ما استعجم : (١ / ١٥٢) .

من أسماء المواضع ، وهو الذى كَثَّف المادة الجغرافية الخاصة بالجزيرة العربية دون غيرها من المواضع ، حتى اضطر البكرى إلى التمهيد لمعجمه بفصل خاص بجغرافية الجزيرة العربية ، فبدا معجم البكرى كأنه معجم خاص بالجزيرة فقط .

أما ياقوت فإن معجمه عامٌ شمل أجزاء كبيرة من الإمبراطورية الإسلامية ، وأجزاء أخرى خارجة عن بلاد الإسلام كبلاد الروم والصين .

٣ - عنصر التوازن مفتقد فى معجم البكرى ، فقد تناول بالتفصيل الأجزاء العربية من جزيرة العرب كالحجاز وتهامة والأجزاء الشمالية الغربية من نجد ، أما الأجزاء الأخرى من الجزيرة فنصيبها ضئيل قياسًا بتلك المناطق .

٤ - يركز البكرى على مناهل المياه ومنازل العرب الواردة فى الشعر ، أما ياقوت ، فإنه يركز على المدن ، فيذكر التعليل الأسطورى لنشأة المدينة ، ويذكر أحيانًا خطّى الطول والعرض اللذين تقع عليهما المدينة ، ومن اشتهر بها من العلماء وما قيل فيها من الشعر، وخصائصها المميزة ، وقد يستطرد فى الوصف فى المواضع والمدن بحسب أهمية ذلك الموضع ، فالصين مثلاً عندما تكلم عنها نقل رسالة كاملة كان أبو دلف الخزرجى كتبها عن الصين بعد رحلته إليها فى النصف الأول من القرن الرابع الهجرى .

المرحلة الثالثة : الدراسات والمعجمات الحديثة

مضت بعد ياقوت الحموى أجيال متعاقبة دُرِسَتْ خلالها بلاد أو انتقل اسمها إلى مكان مجاور غير المكان الأصلى ، أو ردمتها الرياح السافية ، أو خُربت بفعل الحروب ونوائب الدهر . وتغيرت بعض الطرق والدروب ، وهاجر كثير من السكان من مواطنهم إلى مواطنَ جديدةٍ أطلقوا عليها أسماء بعض أماكنهم القديمة المحبَّبة إليهم .

وفى العصر الحديث برزت مجموعة من العوامل التى ساعدت على مزيد من التغيير والتحريف والنسيان لكثير من أسماء الأعلام الجغرافية القديمة ، نورد فيما يلى بعضًا منها :

١ - إن التحضر و التوسع المدنى الذى نشاهده فى مختلف أرجاء العالم الإسلامى ،

والعالم العربى بشكل خاص قد أدى إلى انضواء أعلام جغرافية كثيرة كانت سابقًا خارج إطار المدن ، فأصبحت الآن أحياء من تلك المدن واتخذ الكثير من تلك المواضع أسماء جديدة بعيدة كل البعد عن الأسماء القديمة التى لم يبق منها سوى أعلام قليلة جداً أصبحت تُطلق على الأحياء . ومدينتنا الرياض والقاهرة مثلان بارزان فى الوطن العربى على التوسع العمرانى الذى ضم فى إطاره العديد من الأعلام الجغرافية القديمة التى اختفت معالمها اليوم .

٢ - أدّت التغيرات الكبيرة فى اقتصاديات الدول الصحراوية ، وبخاصة فى شبه الجزيرة العربية والصحراء الكبرى إلى هجرة أبناء البادية إلى الحواضر العربية منها على أمل الاستفادة من الرعاية والخدمات المبذولة بسخاء لأبناء المدن . وفقدنا بانتقالهم تراثاً مهمًا فقد كانوا هم البقية الذين حافظوا على المعارف المختلفة المتعلقة بالبادية مجتمعًا وأرضًا ومناخًا ، وكانوا هم الذين يمكن أن يميزوا بين أسماء الأعلام الجغرافية فى الصحراء ، فهم يدركون بخبرتهم الطويلة ومعايشتهم لتلك البيئة الفروق الضئيلة بين منطقة وأخرى فى البادية المترامية الأطراف ، مما لا يدركه سكان المدن ، وقد يكون ذلك الاختلاف ناشئًا عن تغير فى نوع النبات أو انتشار أحياء معينة أو تغير طفيف فى تضاريس الأرض أو غير ذلك .

٣ - المحاولات المقصودة ذات الدوافع الدينية أو السياسية لطمس بعض المعالم ذات المدلول الدينى أو الوطنى ، ونجد المثال الصارخ على ذلك استبدال اليهود لكثير من أسماء الأعلام الجغرافية القديمة بفلسطين بأسماء عبرية . ومحاولات الأنظمة السياسية فى بعض الدول الإسلامية تغيير الأسماء التى لها علاقة بتراث الإسلام وحضارته فى تلك الدول .

ومنذ بداية الأربعينيات بدأت جهود جديدة فى الجزيرة العربية هدفت إلى ضبط الأعلام الجغرافية وتصحيح ما وقع فيه القدماء من أوهام ، والاجتهاد فى تحقيق مواقع تلك الأعلام عن طريق الرحلة والبحث المتواصل ، وتتمثل تلك الجهود فى نمطين من الأعمال :

(١) الدراسات والكتب :

كانت بداية تلك الجهود على يد العلامة الشيخ حمد الجاسر - أطال الله عمره - ويتمثل ذلك أولاً فيما نشره من أبحاث فى جريدة « أم القرى » ومجلة « المنهل » منذ

عام ١٩٤١ م . وفى عام ١٣٦٧ هـ نشر فى جريدة الفتح التى يحررها المرحوم الأستاذ محب الدين الخطيب وفى ثلاثة أعداد متوالية (٨٥٤ ، ٨٥٥ ، ٨٥٦) نقداً قيِّمًا للطبعة التى حققها المرحوم مصطفى السقا من كتاب «معجم ما استعجم من أسماء المواضع» وتتابعت جهوده فى هذا المضمار فانتظمت أول مجلة عربية تختص بشكل أساسى فى قضية تحديد المواضع فى شبه الجزيرة العربية ، وهى مجلة « العرب » التى تحفل مجلداتها التى تربو الآن على ثلاثين مجلداً بمعلومات فريدة عن المواضع فى داخل الجزيرة العربية ، ثم قام بالتعاون مع تلامذته ومحبيه بإصدار مشروع «المعجم الجغرافى للمملكة العربية السعودية» وقد عانى المسهمون فى هذا المعجم مشقة وجهداً لا يخفى على من سلك هذا الطريق الصعب ، فقد قاموا بجمع مؤلفاتهم اعتماداً على مشاهداتهم الخاصة فى رحلاتهم المتكررة إلى المناطق التى تحدثوا عنها ، وقد خبر الكاتب مصاعب مثل تلك الرحلات فى داخل الجزيرة العربية وعرف عن قرب مقدار ما قاسوه من وعورة الطرق وانقطاع السبُل قبل أن تمتد معالم الحضارة الحديثة فى المملكة العربية السعودية إلى أرجائها المختلفة ، ويضاف إلى ذلك ما لاقوه من عناء البحث فى المصادر القديمة المتعلقة بالمواضع التى حددوها . وهم لم يقتصروا فى البحث عن الموضع فى المعاجم الجغرافية فقط ، بل تتبعوه فى كُتب اللغة وشروح الشعر ، ووجدوا هناك ثروة أخرى لم تتضمنها المعاجم المتخصصة . وقد أورد الشيخ حمد الجاسر فى مقدمته للمنطقة الشرقية من المعجم الجغرافى أن فى كتابى « التكملة » للإمام الصاغانى مواضع كثيرة لم يتضمنها معجم البلدان ، منها « بيسان » وادٍ قريب من الطائف ، و « خَمُومَة » جبل يُطل على بلدة جُرش القديمة ببلاد عسير ، و « دغُبَج » القريب من مَرَّان .

ويقول الشيخ حمد : إن غرض المعجم الجغرافى لا يقتصر على تحديد الموضع المعروف ، بل يمتد إلى دراسة المواضع التى ورد ذكرها فى الأخبار أو الأشعار أو فى مؤلفات المتقدمين ، وهذا جانب مهم لا يصح إغفاله ، فالأمة العربية أحوج ما تكون إلى ربط حاضرها بماضيها . وكثير من النصوص القديمة فى الأدب أو الشعر أو التاريخ لا يمكن فهمها فهمًا تامًا دون معرفة ما يتصل بها من بيئة . وكيف نفهم الوقائع التاريخية كالغزوات النبوية ، ووقعات حروب الردة إذا لم نعرف المواضع التى حدثت تلك الغزوات والوقعات فيها ؟! . وكيف نتصور حياة أى شاعر من الشعراء

المتقدمين تصوراً تاماً دون معرفة مرابع صباه ومراتع هواه .

ويورد الجاسر والمسهمون الآخرون فى المعجم أمثلة كثيرة على ما وقع فيه المتقدمون والمحدثون من أوهام سببها جهلهم بتلك المواقع واعتمادهم على الرواية دون المعاينة والمشاهدة .

● ومما صدر من « المعجم الجغرافى للبلاد العربية السعودية » ما يلى :

● حمد الجاسر : المنطقة الشرقية : البحرين قديماً ، الرياض ١٩٧٩

حمد الجاسر : شمال المملكة : إمارات حايل والجوف وتبوك وعرعر والقريات ، الرياض ١٩٧٧

سعد بن جنيدل : عالية نجد : إمارات الدوادمى والقويعية والخاصرة وعفيف ووادى الدواسر وغيرها ، الرياض ١٩٦٨

● عبد الله بن خميس : معجم اليمامة ، الرياض ١٩٧٨

● على بن صالح الزهرانى : بلاد غامد وزهران ، الرياض ١٩٧١

● عمر غرامة العمروى : بلاد بارق ، جدة ١٩٧٩

● عمر غرامة العمروى : بلاد رجال الحجر، الرياض ١٩٧٩

● محمد بن أحمد العقيلى : مقاطعة جازان ، المخلاف السليمانى ، الرياض ١٩٧٩

محمد بن ناصر العبودى : بلاد القصيم ، الرياض ١٩٧٩

ويزيد عدد مجلدات هذا المعجم على عشرين مجلّداً تُعَدُّ فى مجملها إضافة عالية القيمة للمكتبة العربية ، ومصدراً لابد من الرجوع إليه لكل باحث فى التراث العربى القديم أدبًا وتاريخًا .

وقد عُزِّز هذا المعجم بمجموعة كبيرة من الدراسات التى نُشر معظمها فى مجلة « العرب » بالإضافة إلى الكتب التى وضعها الشيخ حمد الجاسر عن رحلاته فى شمال غرب الجزيرة العربية وفى بلاد غامد وزهران وغيرها . وما دمنا بصدد الحديث عن المعُجمات التى تناولت المواضع ، فإننا لابد أن نشير إلى معجمين مهمين لم يصدرا ضمن سلسلة الجغرافى للبلاد العربية السعودية ، وهما :

١ - معجم معالم الحجاز الذى وضعه عاتق ابن غيث البلادى فى عشرة مجلدات ، وصدر

فى مكة المكرمة ابتداء من عام ١٩٧٨ . وقد قضى البلادى سبع سنوات فى الإعداد لكتابه من خلال الرحلات التى زادت على ستين رحلة ، فى نواحى الحجاز ، وذكر أنه كان يحرص على تحقيق الأماكن التاريخية ، ويرى أن أكثرها ما يزال على اسمه القديم وبعضها قد تغير كليًا ، وأما المواضع التى لم يعثر عليها فهى القليل .

وتكلم البلادى عن الأخطاء التى وقع فيها الأقدمون ، وذكر أن عرام بن الأصبغ السلمى كتب رسالته عن أسماء جبال تهامة وسكانها ، وهو بعيد عن الحجاز فى بلاد فارس ، وكان يأخذ مادته من الأعراب الذين اتخذ بعضهم - فى تلك الأيام - من الرواية حرفةً يتعايش منها ؛ فجاءت رسالته مليئة بالأغلاط مختلة التعابير غير واضحة التحديدات (ص : ٦) .

وأشار فى كتابه إلى إحدى المشكلات التى تتعرض لها الأعلام الجغرافية فى الحجاز ، وربما كان هذا أيضًا فى مناطق أخرى من شبه الجزيرة العربية . فأمراء النواحى الصغيرة يعمدون إلى إعطاء أسماء شعاب وآبار وآكام يسمونها قرى ويحصون لها سكانًا رجاء أن تكبر فى نظر المسئولين فى الدولة فيعيرونها اهتماماً يفضى إلى المأرب المنشود (ص : ٧).

والمعجم بشكل عامٍّ يسير على المنهج نفسه الذى سار عليه أصحاب المعجم الجغرافى للبلاد العربية السعودية ، إلا أن الأخير أكثر تفصيلاً فى مراجعة اسم الموضع سواء فى المعاجم الجغرافية أو فى كتب الأدب وشروح الشعر ، أما البلادى فأكثر اعتماده على ياقوت الحموى ، إضافة إلى ما قام به من رحلات ميدانية فى مناطق الحجاز المختلفة .

٢ - مجموع بلدان اليمن وقبائلها جمعه المرحوم القاضى محمد بن أحمد الحَجْرى اليمانى ، المتوفى عام ١٩٦٠ ، وحققه القاضى إسماعيل بن على الأكوع . وقد صدر من هذا الكتاب جزآن ينتهيان بحرف الزاى ، وذكر أنه هدفه من تأليف هذا الكتاب هو للمساعدة فى معرفة المواضع المساعدة المتصلة ببلاد اليمن الواردة فى كتب الأخبار والسيَّر ، والتعريف بمواضع القرى الخاربة التى لها ذكر فى التاريخ وأشعار العرب ، كبلدة أثافث ويراقش ومعين والشَّجة وغيرها ، وبيان المحلات والمخاليف التى تبدلت أسماؤها ، وكذلك معرفة البلدان المتفقة الأسماء المختلفة الجهات كظفار داود فى بلاد حاشد وظفار يحصب عاصمة التبابعة فى

بلاد يـريم ، وظفـار الحَبـوضى عـلى سـاحل بحر العرب .

ولابد من الإشارة هنا إلى جهد آخر لا يقل أهمية عن الجهود المذكورة فقد تضمن الكثير من المعلومات النافعة التى كانت مادة للحوار فى أمـر المواضع فى شبـه الجزيرة العربيـة ، ويتمثل ذلك فى عملين للشيخ محمد بن عبد الله بن بليهد ، أولهما كتاب « صحيح الأخبار عما فى بلاد العرب من الآثار » الذى نُشر فى القاهرة فى خمسة مجلدات عام ١٩٥١ ، ويختص بدراسة المواقع الواردة فى المعلقات ، وكتاب « ما تقارب سماعه وتباينت أمكنته وبقاعه » وقد نُشر فى الرياض بعد وفاة المؤلف رحمه الله (بدون تاريخ) ويسير على النمط الذى سار عليه ياقوت فى « المشترك وضعًا والمختلف صقعاً » .

وقـد تركنا الحـديث عن هذين الكتـابين لكونهما لا يدخلان بشكل مباشر فى إطار المعجمات الجغرافية المنظمة منهجيًا كما هو الحال بالنسبة للمعجمات المذكورة .

وقـد أشار الحجرى فى كتـابه أيضًا إلى طائفة من أوهام القدماء فى تحديد المواضع ، كما فعل من سبقه .

(٢) **الخرائط** :

يدخل فى نطاق الجهود الحديثة لتحديد وضبط الأعلام الجغرافية فى جزيرة العرب ، ذلك الجهد الذى قامت به مصلحة المساحة الجيولوجية الأمريكية وشركة الزيت العربية الأمـريكيـة (أرامكو) تحت رعـاية المملكة العربية السعودية ووزارة الخارجية الأمريكية ، فقد نشرت ابتداء من عام ١٩٥٦ مجموعتين مـن الخـرائط الجيـولوجية والجغرافية بمقياس ١ / ٥٠٠,٠٠٠ غطت معظم شبه الجزيرة العربية فيما عدا أجزاء من اليمن وعدن وعُمان . ثم نشرت نفس الهيئة فى سنة ١٩٦٣ خريطة جيـولوجيـة بمقيـاس ١ / ٢,٠٠٠,٠٠٠ اشتملت على كل شبه الجزيرة العربية .

وقـد صدرت الخـرائط المذكـورة باللغـتين العـربيـة والإنجليـزية ، وتتـضـمن الملامح الطبوغرافية العامة كالجبال والهضاب والأودية وغيرها من معالم السطح ، فضلاً عن أسماء المدن والقرى وغيرها من الأعلام الجغرافية .

ومع أهمية هذا العمل الكبير الذى استغرق

سنوات طويلة من العمل الميدانى إلا أنه قد وقعت فى تلك الخرائط العديد من الأخطاء ، ويعود ذلك لعدة أسباب منها أن تلك الخرائط كانت تُكتب بالأحرف اللاتينية ثم تُترجم إلى العربية ومنها ما هو ناشئ عن اختلاف اللهجات بين أرجاء شبه الجزيرة العربية ، إضافة إلى التصحيف وأخطاء الطباعة .

ومن أمثلة تلك الأخطاء :

جبل الضورين حرفت إلى جبل الزورين (منطقة عسير)

كرم حرفت إلى كروم (منطقة عسير)

عَرْدان حرفت إلى الأردن (نجد الجنوبى)

● ضرغد حرفت إلى زرغط (الحجاز الشمالى الشرقى)

وهناك أمثلة كثيرة على التحريف درسها بعناية الدكتور أسعد عبده الأستاذ بقسم الجغرافيا بجامعة الملك سعود ، وأصدر مجموعة من الدراسات لبحث هذه القضية ، وانتهى إلى وضع معجم سمَّاه معجم الأسماء الجغرافية المكتوبة على خرائط المملكة العربية السعودية مقاس ١ / ٥٠٠,٠٠٠ كان من أهم أهدافه تصحيح أخطاء الخرائط ، ومراجعة كل اسم فى الخرائط على أحد الكتب التى تعنى بأسماء الأماكن فى المملكة ، وقد تبين له أن عدد الأسماء الواردة فى الخرائط ٥١٣١ اسمًا يطابق ما فى الكتب منها ٢٢٣٨ اسمًا ، وتختلف عما فى الكتب ١١٣١٦ اسمًا ، أما بقية الأسماء وعددها ١٥٧٧ اسمًا فليس له ذكر فى الكتب المذكورة .

ويعتبر هذا الجهد القَيِّم متممًا لجهود الشيخ حمد الجاسر وصحبه وجهود المنشئين للخرائط التفصيلية ، إذ يسرد الكتاب قائمة بأسماء الأعلام الجغرافية مع بيان اختلاف رسمها عن الخريطة إن وجد ، ثم الموقع الفلكى والصفة الطبوغرافية ورقم اللوحة من مجموعة الخرائط وأخيراً المصدر أو المصادر التى استند إليها فى مراجعة الاسم الجغرافى .

خـــاتمة

استعرضت الدراسة السابقة الجهود العربية فى ضبط الأعلام الجغرافية فى شبه الجزيرة العربية ، منذ عصر التدوين إلى الوقت الحاضر. ومن الواضح أن تلك الجهود سابقة على الاهتمامات الدولية الخاصة بدراسة كيفية توحيد

كتابة أسماء الأعلام الجغرافية فى جميع خرائط العالم بطريقة دولية موحدة «قدر الإمكان» . فقد أصدر المجلس الاقتصادى والاجتماعى القرار رقم ٦٠٠ / ٤ أ يرجو فيه الأمين العام للأمم المتحدة أن يضع بالتعاون مع المنظمات الدولية ذات العلاقة برنامجًا يهدف إلى تقرير أسلوب موحد لكتابة الأسماء الجغرافية ، وانتظم فى جنيف عام ١٩٦٧ أول مؤتمر دولى تحت عنوان « تنميط الأسماء الجغرافية » تضمن قراراً ينصُّ على أن يكون رسم الاسم الجغرافى متفقًا بقدر الإمكان مع قواعد الإملاء المتَّبعة فى الدولة المعنية .

وإذا كان ذلك الجهد الدولى يهدف أساسًا إلى المحافظة على اسم العلم الجغرافى ويضع الطريقة المناسبة لتهجئته وفق نطقه المحلى بما يفيد الثقافة والمعرفة فى هذا المجال ، فإن ما قام به العرب عبر تاريخهم إلى يومنا هذا يرتبط ارتباطًا وثيقًا بفهم طبيعة المواطن التى انتشرت فيها الحضارة العربية والإسلامية والطرق التى سلكها الإسلام فى استفاضته الأولى من جزيرة العرب إلى مختلف أنحاء العالم الإسلامى ، فضلاً عن تصور البيئة التى نشأ فيها الشعر والأدب العربى ، فعملية تحديد المواضع الجغرافية وضبطها وتحقيق ما ورد فى النصوص القديمة عنها ، ثم إدراج كل ذلك فى خرائط جغرافية تفصيلية ، يجعل من اليسير تتبع الأحداث وتحليلها بصورة أدق . نظراً لأن كثيراً من كتب التاريخ المعاصرة تحوى مبالغات أو أوهامًا سببها نقص فى التصور الجغرافى لمنطقة البحث .

وننتهى فى هذه الدراسة المسحية إلى توصيتين نراهما مهمتين فى هذا الصدد :

أولهما - إعداد مشروع يتولى تجميع الجهود المتناثرة فى مختلف أنحاء العالم الإسلامى الهادفة إلى دراسة الأعلام الجغرافية القديمة التى لها صلة بحضارة الإسلام وإعداد معجم جغرافى شامل ييسر السبيل أمام الباحثين ، ويقدم لهم المعلومات المناسبة عن كل علم جغرافى سبق وروده فى كتاب من كتب الحضارة العربية .

ولا ننسى أن هناك بعض الجهود القيِّمة التى تمثل أساسًا طيبًا لهذا المعجم ، مثل كتاب « القاموس الجغرافى للبلاد المصرية » للمرحوم محمد رمزى ، وكتاب « تاريخ تركستان من الفتح الإسلامى إلى الغزو المغولى »

لبارتولد ، وتحقيقات مقبول أحمد عن المواضع التى أوردها الإدريسى عن الهند ، وغيرها .

إن مثل هذا العمل العلمى الكبير سوف يخدم الدراسات الأدبية والتاريخية والأثرية . كما يخدم الدارسين فى حقل علم الزلازل للتعرف على الأعلام الدارسة بفعل هذه الظاهرة الجغرافية .

ثانيتهما - ضرورة الاستفادة من أسماء الأعلام الجغرافية العربية فى وضع المصطلحات الخاصة بأشكال سطح الأرض ، فالأسماء المذكورة تعبِّرغالبًا عن ظاهرة أو صورة معينة ، فاللغة العربية لغة بيئية كتب بها العربى ما شاهده بدقة لا نظير لها فى اللغات الأخرى .

ويمكننا من خلال تتبع أسماء الأعلام الجغرافية المتكررة ومدلولاتها فى شبه الجزيرة العربية أن نكشف عن مصطلح عربى لم يستخدمه الكُتَّاب المعاصرون بلفظه العربى على الرغم من العلاقة الوثيقة بين اللفظ وطبيعة المكان ، واستبدلوا به مصطلحًا أجنبيًّا فما كان يمكن للفظ « كويستا » - على سبيل المثال - أن يشيع استخدامه لو كان إقرار هذا اللفظ الدخيل جاء مبنيًا على دراسة علمية ميدانية ، ومسح للأعلام الجغرافية فى المنطقة العربية وتحليل معانيها ، فهذا اللفظ يدل على ظاهرة منتشرة فى صحارينا العربية ، يطلق عليها اسم « الجالات » مفردها « جال » وهى عبارة عن حواف صخرية رسوبية ناهضة ذات جروف رأسية وعرة من جانب وانحدار لطيف من الجانب الآخر . ولفظ « جال » الذى استخدمه السكان هناك منذ مئات السنين هو لفظٌ ذو جرس عربى سهل فى النطق وفى التصريف . وهو مشتق من البناء اللغوى العربى . فقد أطلق العرب على جدار البئر وجانبى الوادى وشاطئ البحر اسم « الجال » بمعنى الحافة ، ومن هنا جاء استخدام أهل الجزيرة العربية لهذا المصطلح ؛ لأن أهم ما يميز « الكويستا » هو جانبها الوعر الذى هو أشبه بالحافة ، ولذلك شاع لفظ « الجال » للدلالة على هذه الظاهرة فى البيئة العربية . وثمة أمثلة كثيرة تؤيد أهمية ما ذهبنا إليه من استخدام المصطلحات العربية فى هذا المجال .

ومن الله تعالى نستمد العون والتوفيق .

عبد الله يوسف الغنيم
عضو المجمع المراسل
من الكويت

المراجع

١ - إبراهيم أحمد المقحفي : معجم البلدان والقبائل اليمنية ، منشورات دار الكلمة ، صنعاء ، ١٩٨٥

٢ - أسعد سليمان عبده : معجم الأسماء الجغرافية المكتوبة على خرائط المملكة العربية السعودية مقياس ١ : ٥٠٠,٠٠٠ ، مكتبة المدنى ، المملكة العربية السعودية ، ١٩٨٤.

٣ - أسعد سليمان عبده : معجم أسماء الأماكن فى المملكة العربية السعودية المكتوبة على خريطة الجزيرة العربية مقياس ١ : ٢,٠٠٠,٠٠٠ ، مكتبة المدنى ، المملكة العربية السعودية ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٤.

٤ - أسعد سليمان عبده : تصحيح الأسماء الجغرافية المكتوبة على خرائط المملكة العربية السعودية مقياس ١ : ٥٠٠,٠٠٠ ، مكتبة المدنى ، المملكة العربية السعودية الطبعة الأولى ، ١٩٨٤

٥ - أسعد سليمان عبده : تأثير القدرة الإملائية فى رسم الأسماء الجغرافية ، تجربة على طلاب من قسم الجغرافيا فى جامعة الملك سعود ، مجلة جامعة الملك سعود ، المجلد الخامس ، ١٩٩٣

٦ - أسعد سليمان عبده : بعض أوجه الاختلاف فى رسم اسم المكان الواحد بحروف اللغة العربية فى المملكة العربية السعودية ، إصدارات وحدة البحث والترجمة ، الكويت ، ١٩٨٥ .

٧ - البكرى ، عبد الله عبد العزيز : معجم ما استعجم ، تحقيق مصطفى السقا ، القاهرة ، ١٩٤٥ .

٨ - ابن بليهد ، محمد بن عبد الله ، صحيح الأخبار عما فى بلاد العرب من الآثار ، الطبعة الثانية ، مراجعة : محمد محيى الدين عبد الحميد ، ١٩٧٢

٩ - ابن بليهد ، محمد بن عبد الله ، ما تقارب سماعه وتباينت أمكنته وبقاعه ، ١٣١٠ - ١٣٧٧ هـ تحقيق وتعليق : محمد بن سعد بن حسين ، الرياض ١٤٠٢ هـ .

١٠ - الحازمى ، محمد بن موسى : الأماكن (ما اتفق لفظه وافترق مسماه فى الأمكنة) ، الجزء الأول (أ - ض) ، إعداد : حمد الجاسر، دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر ، ١٤١٥ هـ .

١١ - حمد الجاسر ، نقد الطبعة الأخيرة من (معجم ما استعجم للبكرى) ، مجلة الفتح ، العدد ٨٥٤ ، مارس ١٩٤٨ .

١٢ - حمد الجاسر : المعجم الجغرافى للبلاد العربية السعودية ، المنطقة الشرقية (البحرين قديمًا) ، القسم الأول ، منشورات دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر ، الرياض ، المملكة العربية السعودية ، ١٩٧٩ .

١٣ - حمد الجاسر : المعجم الجغرافى للبلاد العربية السعودية - شمال المملكة ، إمارات : حايل وتبوك وعرعر والقريات ، القسم الأول ، منشورات دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر - الرياض - المملكة العربية السعودية .

١٤ - الحموى ، ياقوت بن عبد الله : كتاب المشترك وضعًا والمفترق صقعًا ١٨٤٦

١٥ - الحموى : ياقوت بن عبد الله : معجم البلدان ، طهران ١٩٦٥ (مصورة عن طبعة وستنفلد) .

١٦ - الزمخشرى ، محمود بن عمر : الجبال والأمكنة والمياه ، المكتبة المرتضوية ومطبعتها الحيدرية - النجف الأشرف ، العراق ، الطبعة الأولى ، ١٩١٧ .

١٧ - عاتق بن غيث البلادى : معجم معالم الحجاز ، الجزء الأول ، دار مكة للنشر والتوزيع ١٩٧٨ .

١٨ - عبد الله بن محمد بن خميس : معجم اليمامة ، المعجم الجغرافى للمملكة العربية السعودية ، مطبعة الفرزدق ، السعودية ١٩٧٨ .

١٩- عبد الله يوسف الغنيم : مصادر البكرى ومنهجه الجغرافى ، ذات السلاسل للطباعة والنشر والتوزيع ، الطبعة الثانية ، ١٩٧٩.

٢٠ - عبد الله يوسف الغنيم : منتخبات من المصطلحات العربية لأشكال سطح الأرض ، إصدارات وحدة البحث والترجمة ، الكويت ، ١٩٨٤ .

٢١ - على بن صالح السلوك الزهرانى : المعجم الجغرافى للبلاد العربية السعودية ، بلاد غامد وزهران ، الجزء الثانى ، منشورات دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر ، الرياض ١٩٧١ .

٢٢ - عمر غرامة العمروى : المعجم الجغرافى للبلاد العربية السعودية الجزء الثالث ، دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر ، ١٣٩٨ هـ .

٢٣ - محمد بن أحمد العقيلى : المعجم الجغرافى للبلاد العربية السعودية ، مقاطعة جازان ، المخلاف السليمانى ، منشورات دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر ، الرياض ، ١٩٦٩ .

٢٤ - محمد رمزى : القاموس الجغرافى للبلاد المصرية من عهد قدماء المصريين إلى سنة ١٩٤٥ ، مطبعة دار الكتب المصرية ١٩٥٣ - ١٩٥٤ .

٢٥ - محمد بن سعيد بن حسين : الشيخ محمد بن عبد الله بن بليهد وآثاره الأدبية ، الجزء الأول ، مطابع اليمامة - الرياض ، ١٩٧٩.

٢٦ - محمد سيد نصر : توحيد نطق الأعلام الجغرافية وكتابتها ، رابطة أساتذة العلوم الاجتماعية ، مطبوعات الرابطة - السلسلة الجغرافية ، ١٩٧٣ .

٢٧ - محمد بن ناصر العبودى : المعجم الجغرافى للبلاد العربية السعودية ، بلاد القصيم ، القسم الأول منشورات دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر ، الرياض ١٩٧٩ .

٢٨ - الهجرى ، هارون بن زكريا : التعليقات والنوادر ، دراسة ومختارات ، القسم الثالث اللغة والمواضع ، ترتيب : حمد الجاسر .

٢٩ - اليمانى ، بن أحمد الحجرى : مجموع بلدان اليمن وقبائلها ، تحقيق وتصحيح ومراجعة إسماعيل بن على الأكوع ، منشورات وزارة الإعلام والثقافة ، مشروع الكتاب - اليمن ١٩٨٤ .

أعلام الجغرافيا فى موريتانيا ومكانتها عند شعرائهم

للأستاذ الدكتور محمد المختار ولد إبّاه

١ - زمان يمر ومكان مستقر :

يحيط بالإنسان فى حياته إطاران ، هما الزمان والمكان . يشعر بالزمان وهو يفر بين يديه ، لا تتوقف ساعاته ولا تغير وجهتها ، تمضى سهامها مسرعة تحمل معها ماضيا ولى بغير رجعة ، وتترك أسئلة ، يستحيل الجواب عنها حول مستقبل الأيام .

أما المكان فإنه يظل ماثلا أمام أعيننا ، ثابتا تحت أقدامنا ، وكأنه يحاول أن يسعفنا باستعادة ذكريات الماضى الذى بقى مستودعا لها ، ومع ما لذلك من تحرك وجريان ، وما لهذا من سكون وثبات ، فإن بينهما صلة وثيقة أوحت لبعض العلماء المحدثين ، بنظرية النسبية المحدودة ، التى لم تر فى الزمان سوى بُعدٍ رابعٍ للمكان ، ويعتقد أصحابها أن فى إمكاننا أن نطوى صفحات الزمان حينما نقترب من السير بسرعة انتشار الضياء ، لكن بعض الفلاسفة سخر من هذا الرأى قائلا " إنها ليست الطريقة المثلى لمكافحة الشيخوخة " .

غير أن هذه المقولة لا تعنى فك ارتباط بين الزمان والمكان ، ولعل أكثر من يحس هذا الارتباط ، هم الشعراء الذين تهتز مشاعرهم كلما وقفوا على المواضيع التى قضوا فيها فتراتٍ من حياتهم ، فنراهم يخاطبونها بالتحية والسلام ، ويسائلونها من مُتَدَيِّريها ، « والدار لو كلمتهم ذات أخبار » .

لكنها تستعجم ، وتواجههم بصمت يبلغ أوجه فيما يرمز إليه أبو الهول من تعبير صامت رهيب وأمام هذا الصمت ، يلوذ الشاعر بالبكاء ، مثل ما بكى ابن حذام ، وامرؤ القيس بين الدَّخُول وحَوملِ وزهير بن أبى سُلمى بين الرسّ والرسيس وعاقل ، ومن اتبع طريقهم مثل ذى الرُّمة وجرير بن الخطفى .

٢ - حب الوطن من الإيمان :

ثم لم يقتصر هذا الحب والحنين على الشعراء ، فكان من المأثور أن حب الوطن من الإيمان ، ونرى أن الرسول عليه الصلاة والسلام اشتاق إلى رحاب مكةَ لما أخبره أصيل الغفارى

(أو الهذلى) أنه تركها وقد اخضرت جنباتها وابيضت بطحاؤها ، وأينق إذخرها ، وانتشر سلمُها فقال له صلى الله عليه وسلم : حسبك يا أصيل لا تخزنا ودع القلوب تقر .

وكان بلال بن حمامة يتشوق إلى مكة ، وينشد قول الشاعر :

ألا ليت شعرى هل أبيتن ليلة

بواد وحولى إذ خر وجليل

وهل أرين يوما مياه مجنة

وهل يبدون لى شامت وطفيل

وتذكرنا هذه الأبيات بمقطوعة لشاعر شنقيطى عرف بلقب بُفمَيْن ، بحنينه إلى "تاركة" حيث يقول :

أحن إلى ترقى ووادى أضائها

وهل لى إلى وادى الأضاء سبيل

وهل أرينٌ أنيا شَوَانَ وقد بدا

من أهلى مقيم عنده ونزول

رسوم بِتِنيافَيلَ منهم محيلة

حنينى إلى أيامهن طويل

وهذا ولم تك العواطف الشعرية أو الوطنية هى وحدها التى حملت العرب والمسلمين على العناية بالأعلام الجغرافية فقد عنوا ، كما هو معلوم ، بالخطط والمسالك ، وطرق الحج والقوافل ، والمناهل ، والحواضر ، فكتبوا المؤلفات العلمية فى هذا المجال .

فرسم الشريف الإدريسى صورة الأرض ، وألف الهمدانى إكليله ووصف جزيرة العرب ، ودون ياقوت الحموى معجمه للبلدان الذى كان بمثابة موسوعة أدبية متميزة ، ووضع المقريزى خططه المشهورة ، والبكرى مسالكه .

وتواصل هذا العمل عند العلماء المعاصرين أمثال العلامة حمد الجاسر ، وعبد الله بن خميس فى المشرق ، ومحمد حجى ود . أحمد توفيق فى المغرب .

٣ - بعض ما كتِب عن الأعلام الجغرافية فى موريتانيا :

وفيما يخص موريتانيا ، فإن أعلامها الجغرافية ما زالت تحتاج إلى مزيد من التعريف على مستوى العالم العربى ، وقد كُتِب عنها إلى الآن ثلاثة كتب مطبوعة ، أولها كتاب الوسيط فى تاريخ أدباء شنقيط ، ومؤلفه أحمد ابن الأمين الذى احتضنته القاهرة طيلة عقدين من الزمن ، استطاع خلالهما أن يغتنم فرصة

المناخ الثقافى فى مصر المعطاء ، فألف مصنفاته المشهورة فى اللغة والأدب ، وقد ذيّل كتابه المعروف بالوسيط فى تراجم أدباء شنقيط بقسم أسماه : «الكلام على شنقيط تخطيطها» وسنقدم عنه ملخصا فى هذه الورقة .

والكتاب الثانى هو كتاب إخبار الأحبار بأخبار الآبار ، للشاعر محمد بن أحمد يوره الديمانى ، وقد اقتصر فيه على منطقة "إيكيدى" وذكر أن معناه بالبربرية الأرض ذات الآبار اللينة التربة، والبعيدة الماء وقدم له بنبذة عن سكان "إيكيدى" من بنى المغافرة من بنى حسان واعتاد أن يفسر معانى أسماء المواضيع التى ذكرها ، وهى فى أغلبها من لغة صنهاجة- والملاحظ أن أكثرها يبتدأ "تن" إذا كان المكان مؤنثا مثل " تنشيكل" أو " تنيافيل " و "تندكسمى " ، أو بـ"إنْ" إذا كان المكان مذكرا مثل بـ "تن" مثل إنزمدّ ، اندومرى ، انواكشط ، وقسرة بالأصلم .

وكلما ذكر موضعًا استطرد ما اشتهر به ، من ذكر فى الشعر ، أو وجود مدفن مشهور ، أو وقعة من أيام الحروب بين السكان .

ففى كلامه عن تِنْيَاشِلْ ، عربها بـ"ذات الحى" وأتى بأبيات لعبد الله بن الشين الديمانى ، من نمط ما كان يردده بلال ، وبوفمين وهى :

ألا ليت شعرى هل أبيتن ليلة
وللنَّفس بين المأمنين ثلوج
وهل لى بذات الحى عيش ألذهُ
منازلنا قدما وحيث نروج

وفى معرض حديثه عن موضع "دمان" جاء بخبر الحرب بين أبناء أحمد بن دمان ، وأبناء دمان ، وعن الوقعة المشهورة فى هذا المكان .

وفى كلامه عن "انتفاشين" قال إنها تعنى بالبربرية « ذو الكثيب الأبيض » وأن بها مقبرة عظيمة . فيها العلامة النظامة أحمد فال ابن محمد فال اليعقوبى .

وقد سلك العلامة المؤرخ والشاعر الأديب المرحوم المختار بن حامد ، نفس المنهج فى كتاب "جغرافية موريتانيا" تناول فيه الأعلام الجغرافية إلا أن كتابه شمل موريتانيا كلها ، وبدأه بأنساب جميع قبائلها وجغرافيتها مُركزًا على التنظيم الإدارى الحالى ، ثم تحدث فى كل محافظة عن أقسامها الطبيعية ومدنها وقراها ، ومراكزها الإدارية ، ولقد أفاد من ما كتب ابن أحمد يورى وابن الأمين ، معتمدا الضوابط الثلاثة التى ينتقل المكان بسببها عن مجرد اسم

معروف محليا إلى درجة علم جغرافية معروف إقليميًا أو عالميًا . ونذكر بضوابط التحويل ، وهى الشهرة فى الأدب ، أو بالوقائع التاريخية ، أو بمقابر العظماء .

وفيما يلى ملخص عن ما كتبه ابن الأمين .

٤ - ملخص تخطيط شنقيط عند ابن الأمين :

لقد قلنا إن أول محاولة لتدوين الأعلام الجغرافية هى التى قام بها أحمد ابن الأمين فى كتاب الوسيط ، وتحدث فيها عن القطر الواقع فى أطراف العالم العربى ، والذى اشتهر ببلاد شنقيط .

فبيّن حدود البلاد ومناطقها الطبيعية وفى كل منطقة ذكر ما اشتهر من الأماكن ، وما عرفت به من وقائع فى الحروب ، أو أقوال الشعراء فيها ، أو ما يتميز به إنتاجه الزراعى، وها هى أهم هذه المناطق :

(أ) آدرار :

بدأ بمنطقة "آدرار" وذكر أن معناه بالبربرية "الجبل" وتحدث عن الطريق المؤدية إليه ، وقال إنها ثلاثة عشر مسلكا ، نذكر منها الطريق المدعوة بـ "شاة" وقال إنها شاة الجنّ - فلا يمر أحد بها إلا سمع صوت طبول الجن ، فإن هذا شائع عند أهل تلك البلاد .

وتكلم ثانيا عن "الظهر" أى متن آدرار وأن أشهر مدنه شنقيط ، ووادن وأوجفت . وقال إن مدينة شنقيط هى أقدم هذه المدن ، واشتهرت بجودة تمرها وأن النخلة الواحدة قد تحمل خمسة أوسق ، ثم استعرض ستة وعشرين موضعا ، منها مدينة "تنيك" التى يضرب المثل بخرابها ، وذكر أن سببه ما وقع من حرب بها بين أهلها . ومن هذه مواضع " اظهر" وادى "الحفير" وهو تصغير الحفرة. "وفى جودة تمره يقول أحد الظرفاء".

حسبى بمبسمها الألمى إذا ابتسمت من تمر "لحفير" أو من تمر وادان .

وذكر تعليق العلامة الحسن بن زين القنانى ، أن هذا البيت لمتأخر ثقيل .

وذكر تسعة من مواضع آدرار الشرقى ، وقال كلمة موجزة عن تاريخ مدينة وادان" .

وفى كلامه عن "باطن" آدرار ، ذكر مدينة "آطار" فقال إنها مدينة عظيمة ، وتجاورها أودية كثيرة . ولم يذكر فى "الباطن"، سوى ستة مواضع منها "الجريف"وكانوال : الذى عناه امحمد ابن الطلبة بقوله :

هاج قــرح الغــرام بعــد اندمــال

ظُعن ظعـن الخـليـط يـوم إنـال

يوم ولّت كــأنهــا حين جــدت

باســقــات النخــيل من كــانوال

(ب) لعصايب ومقطير :

وبعد آدرار ، الذى قال إنه يتوسط قُطر شنقيط أراد أن يتحدث عـما حوله من المناطق ، فبدأ بالكلام على لعصايب ومقطير .

وذكر فـيهـما اثنى عـشر مـوضعـا . منها بئر تسمى "بشـار" وقـد بنى بهـا أحـد أمـراء آدرار دورا ووجـد فـيـهـا آثارا قـديمة ، وكـذلك بئـر الطالب ابن الخليل وقـد زارها المؤلف ، وقـال إنها لما حفرها الطالب وجد فيها قسيا ورماحا قديمة .

(ج) الساقية الحمراء :

ثم بعد ذلك تكلم عن الساقية الحمراء ، وأشار إلى أبيات ابن الشيخ سيدى التى يقول فيها .

أحـمـراء الســواقى مـاورائى

ألان غـريت أيهـا الانتـشـائى

ثم قـال إن الشيـخ محـمـد المصطفى بن مـامين المشهـور بماء العنين ، قد عـمرها وغـرس فيـها النخل فـسهلت المواصلة بين شنقيط وغيرها من المواضع المغربية التابعة للمخزن وذكر أنها فى الأصل للركيبات

(د) اينشيرى :

ويقول ابن الأمين: "بعد آدرار من الجهة الغربية توجد منطقة "إنشيرى" ولم يذكر من معالمها إلا موضعين ، ولعله لم يعرف غيرهما ، ولم يك دقيقا فى تحديد جهتهما ، لأن إينشيرى فى جنوب آدرار وتوجد فيه أعلام جغرافية مذكورة فى الأدب الشنقـيطى ، منهـا "ذربع مـال إشكدان" الذى يعنيه امحمد بن الطلبة بقوله :

على م الأسى ان لم نلم ونجـزع

ونبكى على أطلال رأس الذريع

وقـد بسط المختـار بن حـامـد القـول فى ذكـر مواضع إينشيرى ، وخصائصها .

(هـ) تيرس :

وقد كـان حظ منطقـة "تيـرس" أوفرعند ابن الأمين ، لأنه أجاد فى وصفها ، وعدَّد أكثر من ثلاثين مـوضـعـا منها .فـقـال إن المطر إذا نزل يبتهج الناس به لجودة تربتها وبعد نزوله بصدق فيها قول العرب "شهرثرى" و"شهر مرعى" ، و"شهر ترى"

وذكر من أعلامها " كدية الجلّ " وفيها معدن للملح المعروف بالسبْخة ، وهى التى اكتشفت فيها أخبار مناجم الحديد فى موريتانيا . ومن أماكنها المشهورة جبلا "عيش اذخيرة ، وبنعميرة" وأورد ابن الأمين قول ابن الطلبة عنها :

يسقى الذراع فيتجريت مدوّما

من خبت "عيش" إلى مدافع تنضُل

(و) تكانت :

ثم تحدث ابن الأمين عن منطقة تكانت ، وفسر معناها مبينا أنها "الغابة" وأنها حلقة جبلية مثل آدرار يفصل بينهما الخط الذى قال إنه لايعرف عنه شيئا بينما أوضح معرفته الدقيقة لتكانت التى قال إنه سلك خمسة من الطرق الموصلة إليها ، وذكر خمسين من أماكنها مثل مدينة تجكجة ، وأورد تاريخ بنائها وسبب تشييدها من قبل العلويين النازحين من مدينة شنقيط .

ومن هذه الأماكن ، "اللبيبة" وتعرف اليوم بمقسم "ابن عامر " وبها قبر سلطان مراكش " ابو بكر بن عامر" ، مؤسس دولة المرابطين وحاكمها قبل ابن عمه يوسف بن تاشفين ، ومنها أيضاً القبة وبها قبر العلامة سيدى عبد الله بن الحاج إبراهيم ومعه العلامة سيدى محمود الحاجى ولم يذكر ابن الأمين وابن حامد بعض ما قاله الشعراء لأن أكثره كان باللغة الحسانية العامية ونكتفى بإيراد مقطع واحد من شعر المرحوم محمد بن آدبٌ الكنتى ، يستعيد فيها عهد وادى أشاريم ، ووادى اشو ، وهما من منطقة الرشيد فيقول :

أيام عَرفتْ اشو الخيّام

فاشِوَ مَزال اشِو نَعِيمْ

وأشاريمْ عَرَفْتُ فايّامْ

مَزَالْ أشاريمْ أشاريمْ

(ز) اراضى الرقيبة واحوازها :

وقسم ابن الأمين أرض الرقيبة قسمين : الرقيبة البيضاء ، والرقيباء السوداء . وتحدث عن أربعة عشر موضعا منها ، ومن أشهرها : كُنْدَيكة وهى التى وقع فيها يوم مشهور بين أهل سيدى محمود ، وقبيلة كنتة : وذكر أيضًا "انواملين" الذى اشتهر بالوقعة بين جيوش المجاهدين تحت إمرة الشريف مولاى إدريس الفاسى ، ضد الغزاة الفرنسيين ، وانتصار المجاهدين فيها .

ومن المواضع التى ذكرها ، "كيفة" التى كانت فى عهده بئرا ماؤها ملح ، وأصبحت اليوم مدينة كبيرة من عواصم المحافظات الموريتانية .

وفى الرقيبة السوداء ذكر ثمانية مواضع أكثرها أودية وقيعان ثم تابع حديثه عن الركيز الشرقى ، وأَفَلَّة ، وأوكار الشَّرقى ، واعترف فى بعضها أنه لا علم لديه بتفاصيلها ، وهذا واضح فى بعض الأوهام التى وقعت له فى سرد بعض الأماكن فى "أوكار" الشرقى بينما هى من منطقة أفلة .

(ح) الحوض والظهر وأوزواد:

وبعد أوكار الشرقى ، استعرض مواضع الحوض ، والظهر وأزواد ، وتحدث عن مدينة "أروان" وقال إن المطر لا ينزل على بيوتها بسبب دعاء أحد الصالحين فيها . واستدل على ذلك بشهادة رجل من أهلها لقيه فى الحج عام 1317 . ثم ذكر منطقة لِمْرَيَّه (وهى تصغير المرآة ووصف خطورتها على أهل القوافل ، وهى أرض مستوية لا ماء فيها ولا شجر . وكثيراً ما يضل الدليل فيها . مما يجعل المسافرين فيها يضطرون إلى شرب السوائل الموجودة فى بطون جمالهم .

وخصص فقرات مختصرة للمدن القديمة فى هذه المناطق مثل تيشيت وأغْرَيْجِيت ، وَوَلاَتَه ، والنَّعمة ، ويُوجْبَيها وسبْخَت تاودنى ، تينبكتو التى قال إنها خارجة عن شنقيط .

(ط) منطقة الترارزة:

لقد كان لابن الأمين معرفة شاملة لهذه المنطقة التى نشأ فيها ، وتربى فى ربوعها ؛ لأنه ولد فى منطقة العُقل . موطن قبيلته العلويين فى "القبلة" ودرس فى آبار تاكَنانَت على شيخ الأساتذة العلامة يحظيه ابن عبد الودود . وعرف معاهد أوكار الغربى ، وإيكيدى وأقطوط الساحلى .

وسنرى أن هذه المناطق استأثرت بأكثر ما دُوِّن من الشعر الموريتانى ، باستثناء ما قيل فى منطقة "تيرس" .

وعلى العموم فإن كلام ابن الأمين عن جغرافية شنقيط احتذى فيه منهجه فى شعر أدباء شنقيط ذلك أنه اعتمد على معارفه الخاصة ، فأسعفته حافظته القوية ، ومشاهداته فى رحلاته ، ذلك أنه نشأ فى أرض القبلة ، وعرف مناطقها ، مثل العقل ، وإيكيدى ، وآبار تاكنانت ، وأوكار . ثم تردد على تكانت وسلك طرقاتها ، ومَرَّ بآدرار . ثم إلى الساقية

الحمراء . فى كل هذه المناطق كانت معلوماته دقيقة ، وصحيحة غير أنه فى باقى المناطق ، وقعت له بعض الأغلاط ولعل عذره فى ذلك أنه من أول من كتب فى هذا الموضوع ، فكان لابد أن يؤدى ثمن الريادة .

٥ - كلمة عن بعض شعراء الأعلام الجغرافية :

إن أغلبية شعراء شنقيط كانوا ينتمون إلى العشائر الرحل ، ولكل منهم مواطن معهودة ، يرتادها بحسب الفصول ، فإذا نأى عن بعضها اشتاق ، وإذا عاد إليها تذكر عهودها القديمة .

وفى تلك الحالتين ، يقع له ما وصفه الشاعر بقوله :

إذا رأى البرق فى نجد بكى شجنا
وإن رأى النار فى نجد بكر طربا

ومن أشهر شعراء المعاهد .

(أ) امحمد بن الطلبة اليعقوبى :

شاعر الأعلام الجغرافية فى شنقيط بلا منازع هو امحمد بن الطلبة اليعقوبى الذى مسحت أشعاره خريطة عريضة امتدت من الساقية الحمراء شمالا إلى مقربة من نهر السنغال جنوبا . ورسم على هذه "الخريطة" نحو قرابة مئة موضع ، واعتاد أن يخصص كل قصيدة لمنطقة معينة فجيميته التى يعارض بها الشماخ بن ضرار ، تضمنت خمسة وثلاثين من تلك المنازل التى قال عنها :

منازل قد كان السرور محالفى
بها فهى عندى بين سلمى ومنعج

ومن بعض ما قال فى هذه القصيدة :

وذكرة أطغان تربعن باللّوى
لوى الموج فالخبتين من نصف دوكج
إلى البير فالحواء فالفج فالصوى
صوى تِشْلَ فالأجواد فالنهج من إج
تحد بأكناف الزِّفال فتيرس
إلى زَبز فالأزوينين والأعوج
إلى أبلقى وَنْكَارَ ، فالْكَرب ترتعى
به حيث شاءت من حزوز وحندج

إلى أن يقول

من القمع أو من نحو نكجير يمّمت
معاطن جلوى لا تريع لمن وجى

جواعل ذات الرمث فالواد ذى الصفا

يمينا وعن أيسارها أم هودج

وتزوَرّ عن ذى المِرّسِيط فوركت

لمسى ثلاث جُبّه لم تُعرّج

أو احتملت من صلب لحريش تنتحى

رُغَيْوية الأملاح لم تتلجلج

أو السُّهب سهب التوأمين فغلّست

بواكرها والصبح لم يتبلج

ومرَّت على قلب الظليم كأنها

خذا طيل زوزت من نعام مهيج

فما أنس لا أنسى الحدوج روائحا

من أدوية البطحاء فالمتموج

عوامد للسّلطين أو هضب مادسٍ

نواكب عن وادى الخليج فعفلج

صوادر من ميناء جوز تحثها

نواتيها فى زاخر متموج

أو العُمّ من نخل ابن بوصٍ تمايلت

شماريخها من مُرطب ومُنضج

مجانينُ رِقل من كناوال ناوحت

فروعَ الثريا لا تُنال بمعرج

كأنهم إذ ضحضح الال دونهم

خلايا سفين مثقل متمعج

ففى هذه القصيدة كاد أن يستقصى مواضع تيرسن كما أنه ذكر مجمل مواضع "امِسَّاكَ" وإنشيرى فى قصائده الأخرى " مثل ما قاله فى لاميته التى مطلعها :

صاح قف واستلح على صحن جال

سجه النيش هل ترى من جمال

وعينيته التى يقول فى أولها .

قف بالمرابيع من جو المبيديع

سقى المبيديع مربابُ المرابيع

سقياله ولجرعاء المشاقر من

غور الشقيقة ذات الخلد فالريع

إلى الشواجن من وادى الحساء إلى

طود الحصان فُعلان المقاطيع

(جـ) **ابن سيدى شاعر أوكار :**

وأوكار الساحلى ، وهى المنطقة التى ارتضع ابن الشيخ سيدى أفاويق الصفاء فى ربوعها ، ففرض على نفسه البكاء فى مغانيها كلما تراءى له منها تل أنار ، وخط الشقارى ، وذواتا عليان ، والميامين أو روابى الكناوين فيقول :

هنالك لا تدع منهن رسما

بدا إلا مررت به مرارا

كما قال :

على دوران أوكار التحايا

تواصل بالغدايا والعشايا

فبيضاء التماشن فالروابى

روابى التوأمات فذى السرايا

إلى هضب السيال فأيدمات

معاهد حبهن لنا سجايا

يفضضها الهجير ولكل بدر

وتذهبها الغدايا والعشايا

ترى الأسباط منها والأراطى

كزين البيض أيام الضحايا

يود ذوو البُلَهْنية اضطجاعا

بها بدل الطنافس والحشايا

ومن مقطعاته المؤثرة قوله فى بئر تامرزكيت التى يعربها ميمونة السعدى عند ما انهارت وعجز أهلها عن إصلاحها .

لعمرك ما ترتاب ميمونة السعدى

بأنا تركنا السعى فى أمرها عمدا

سوى أنا كنا عبيد مشيئة

ولا عار فى أن يُعجز السيد العبدا

حبسنا عليها وهى جدب سوامنا

فما صدنا السعدان عنها ولا صدا

ومرجع سانيها جعلنا مخيما

ليلا تصون الشيب عنها ولا المُردا

ويشرب كل الناس صفو مياههم

ونشرب منها الطين نحسبه شهدا

(جـ) **ولد حنبل الحسنى :**

شاعر آخر من الذين أسهموا فى رفع ذكر الأعلام الجغرافية فى منطقته ، ألا وهو محمد ابن حنبل الحسنى ، المشهور برائعته الرملية التى مطلعها

أضرم الهم سحيرا فالتهب

لمع برق بربيات الذهب

ولقد كثر وقوفه على مغانى أرضه، وشوقه، فى دمن النقا. ومرقب الصيران وأضل الرعود، كل هذه مواضع فى سهل يعرف بآفطوط الشرقى . ومما يلفت الانتباه أن هذا السهل ينبت أشجارا عالية ، تعرف محليا بالتيدوم وتعرب فى الشعر بالدوم ، قد يبلغ قطر جذع الواحدة منها ثلاثة أمتار ولكل منها اسم علم عليها وقد تغنى الشاعر بها قائلا :

فأضا الرعود فملتقى أعراضها

فالدومة البيضاء فالسندان

إلى أن يقول :

والأرض مترعة زلالا باردا

تحنو عليه نواعم الأغصان

فظلاله لشبابنا متنزه

وفروعه للطير والغلمان

وقد تميزت من بين هذا الشجر ، دومة تسمى ذات الحبال ، وقد اعتاد الزوار التردد عليها والمقيل فى ظلها ، وكتابة ما يريدون تخليده على جذعها . ولقد خاطبها محمد بن حنبل بقوله :

أذات الحبال الشُّم مَالكِ غضة

وفيك نقوشُ الأقدمين الأوائل

تعاطوك قرنا بعد قرن فأصبحوا

رميما رفاتًا تحت صُمِّ الجنادل

وكم فتية قالوا بظلّك قَبْلها

لهم حَسَب فى الأكرمين الأفاضل

وقبل عشر سنوات ، لم تصمد ذات الحبال على مر القرون وسنى الجفاف فأجابت داعى ربها ، دون أن تحظى برثاء أو تأبين ، وسقطت معها الدومة البيضاء ، والسندان . ودومة العين ، التى يخاطبها الشاعر العلوى محمد عبد الله بن أحمد فال ، فيقول :

دومةَ العين سرُّ العين مَرْآك

لا زال يعلو على الأشجار أعلاك

ما أنت إلا عجوز من عجائزنا

فأنت أمٌّ لنا ونحن أبناك

نفيدك بالدُّوم والأشجار قاطبة

لطيب ما مر من عيش بمغناك

(د) شعراء العُقل :

والعُـقل : تطلق على مجموعة من الآبار القصيرة ، والواحدة تسمى بعُقلة ، ولعل اشتقاقها أنها فى بعض الفصول يمكن امتياحها بجبل قصير ، مثل العِقال . ولقد كانت مواطن لكثير من الشعراء ، ويقول عنها والدنا محمد فال بن بابه العلوى .

وكـان العُـقْلُ لى وطنًا قـديمًا
ومـيلادى بجنب أبى عـقـال

وفى أبى عقال ؛ يقول محمد عبد الله بن أحمد فال العلوى

أيا وادى الأراك وذا العـقـال
ضـلالى عنكما عين الضـال
فمن ضاليكما ما مِزْتُ ضالًّا
وما مزت السَّيَال من السيال
كـأنى لم أقِم بكما زمـانًا
ولا شَـهـرا أقـمت ولا ليـالى

ويذكر محمدو بن محمدى العُقلَ فى قوله :

شـمّـر لعل رسيم الأينق الذلل
من بعد عشرين يدنى ساكنى العُقل

ويستسقى لها بقوله :

أرض العـقـيـلات يا برق الحيـا
وعلى أحيائها لعيون الشائمين لُح

ويقول عنها محمدن بن السالم الحسنى :

تضاحك الركب لما أن رأوا طربى
لما أضـاء روابى سـهلة الجلمُ
واعتن لى نَقَيَا لَمَغاسَ واعترضت
لِمْحـيْـدَتانِ ومن تَاتِيلَتَ العلم
يومى إلى بعضهم بالضحك بعضهم
أنْ قد صبا ويحهم ذا القاحل الهرم
لم أصب ويحكم لكن ذا وطن
لم ينسنيه بعـاد العـهـد والقـدم

وقد أورد ابن حامد مقطعات كثيرة لمحمد بن محمد المختار العلوى

منها قوله :

لدى الينبـوع منزلة علىّ
لهـا ولنا بهـا زمن رخى
إذا هَبَّ النسيم بفوح منهـا
على الأرجـاء هندى ندى

معاهد خيم الوسمى فيها

وولى فيضه فيها الولّى

(هـ) شعراء إيكيدى :

ومن شعراء إيكيدى ، نعطى مثالين من مجموعة كثيرة أحدها يتعلق بمحمد فى الشعر كثيرا . وفيها يقول والدنا .

ذهابى لأرض البحر فى سورة الشتا

وكنت أوان البرد لا آلف البحرا

يعز على نفسى اصطباراً وإنما

يُهونّه أنى أمرُّ على البترا

٦ - خاتمة :

إن من الضرورى أن ننبه على أننا فى هذا المقال ، اقتصرنا على عيّنات محدودة من شعر الأعلام الجغرافية ، فاكتفينا من القلادة بما يحيط بالعنق ، ولو حاولنا إحصاء الأماكن المذكورة فى الأدب الشنقيطى لتطلب ذلك كتابا مستقلا على أقل تقديرى ؛ وإذا ما أضفنا إليه ما قيل فى الشعر الحسانى ، الشعبى ، لاحتجنا إلى عدة مصنفات .

غير أن الفكرة التى أردنا توضيحها ، هى أن بلاد شنقيط ، أى موريتانيا - أراضى مترامية الأطراف ، مليئة بأعلام جغرافية ، يلتقى فيها الأدب والتاريخ ، كما أنها ، بطبيعتها الصحراوية ، وعادات شعرائها البدوية ، تعطى صورة تكاد تكون طبق الأصل من الشعر القديم فى جزيرة العرب ، وتجعل من شعراء شنقيط فيما قبل العهد المعاصر خلفاء امرئ القيس بن حجر ، وزهير بن أبى سُلمى ، وذو الرمة ، وجرير ومن اتبع طريقهم .

ولعل فى هذا دليلًا - إن كان النهار يحتاج إلى دليل - على وحدة الحضارة العربية ، وأهمية التركيز على أصولها الثقافية ، التى تعتمد أساسا على القيم الإسلامية الصحيحة . ومما لا شك فيه أن أعمال مجمعنا الموقر ، تسهم بحظ وافر فى توثيق روابط هذه الحضارة ، وإن بحوثه فى الأعلام الجغرافية تقوى عُرى التواصل بين أبناء الأمة العربية فى كل مكان وتوطد أركان التعارف والتعاون بينها .

والله الموفق

محمد المختار ولد إبّاه

عضو المجمع المراسل

من موريتانيا

الأعــلام الجغرافيــة العربيــة

للأستاذ الدكتور فؤاد فخر الدين

الأعلام جمع « علم » وهى شخصيات بارزة كأن على رؤوسها النار ، يشار إليها بالبنان ، ظهرت فى الوجود حاملة لواء الشهرة ، بما لها من شجاعة أو بطولة أو مهارة فى فن من الفنون أو علم من العلوم أو مهنة من المهن أو عمل من الأعمال أو أدب من الآداب شعرا كان أو نثرا ، لها أثر يحكى عنه فى المجتمع أو يبقى مع الأيام لا يزول ولا يذهب أدراج الرياح ، ولكنه يرمز على الحضارة من الحضارات أو مدنية من المدنيات التى يتباهى بها الإنسان بل الأمم فى إظهار كيانها التقدمى ووجودها القومى أو تاريخها الإنسانى أمام العالم الذى يخاطب الناس بفخر عن مميزاته الخاصة يمتاز بها ، ويتميز عن غيره من أبناء الجيل المتقدم .

والجغرافيا كلمة مأخوذة من كلمة أجنبية ، وهى علم يتصل بأديم الأرض والثرى ومساحتها وما يحيط بها من مواقع الحياة النامية ، والتضاريس والجبال والأوتاد ، والبراكين والسهول ، والوديان والأحراش ، والحاصلات والمنتجات الطبيعية والمائية والجوية ، وما يواجهها من أجواء وأنواء ، وكل فى حيز قُرِّر مكانه ومقره وموقعه حتى لا يتعدى على غيره ، فهو فى وطن له حدوده الطبيعية وروحه القومية ، ولغته الوطنية . فالأرض منطقة يابسة قسمت إلى أوطان ففى كل وطن جنس من البشر ، له حريته وحقه الأساسى يدافع عنه بكل ما لديه من قوة مادية ومعنوية .

والعرب جنس من هذا البشر ، عاشوا منذ الجاهلية الأولى فى شبه الجزيرة العربية ، وعرفوا كقوم لهم تاريخ ولا سيما فى الأدب شعره ونثره . فالفصاحة والبلاغة ميزة خاصة بهم ، وهما سلاح خاص بهم فى إشعال نار الحماس فى الحروب والخطوب وإشعال نار الحب فى قلوب النساء الفاتنات العاريات الكاسيات ، فاللغة مادة غزيرة سابحة فى بحر لجى ملآى باللآلى والمرجان والأسماك ذات الألوان ، فصارت اللغة وسيلة التخاطب فى كل مسائل الحياة تقرب الفهم والود والوئام حتى

أصبحت اللغة العربية لغة سائدة قائدة منذ أن كلم الله آدم عليه السلام وعلمه الأسماء كلها ، كميزة خاصة بالإنسان فلا يفهمها الملائكة واعترفوا بهذا العجز اعترافا بمعنى سمو المخلوق الإنسانى .

هذه الميزة الخاصة باللغة العربية استمر وجودها لغة دين قويم دين الله الوحيد ، ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين .

انتقلت اللغة العربية مع الإسلام إلى قومية أخرى أكثر فعالية ومفعولية وأوسع مجالا وساحة فى الوطنية ، إذ كل البلاد الإسلامية وطن للمسلم ، ولا يعرف الإسلام ولا يعترف بالوطنية الضيقة المقيدة بجنس معين من البشر والدين أقوى من صلة الدم ، وأقرب من القرابة النسبية ، والسلالة الجنسية ، ولا سيما أصبحت اللغة العربية إحدى مقومات القومية الإسلامية الخمس ، إذ نزل القرآن بها واختار الله واصطفى الرسول صلى الله عليه وسلم محمداً ممن يتكلم بها ، ولا شك أن الله جعل هذه اللغة رابطة دينية قومية ، فى أخوة وطنية، وفي وحدة شعورية لبناء مجتمع إسلامى فى صورة موحدة الجوانب ، واللسان أقوى هذه الجوانب فالمرء بأصغريه لسانه وقلبه ، إذ اللسان آلة التعبير والتحبير والتصوير حتى قال الفرنسيون :

(il faut tourner sa langue sept fois dans sa bouche avant de parler) .

أى يجب أن تلف لسانك سبع مرات فى فمك قبل أن تتفوه بكلمة ، وحيث هذه اللغة من الله كلفة دينية للإسلام ، بل هى لغته الخاصة به وفضلها على سائر اللغات فعلينا أن نرجعها اليه كحقه ومميزاته كما يقول الفرنسيون فى مثلهم : (il faut rendre à Céser ce qui appertient à Céser,et à Dieu ce quiest à Dieu) .

أعط لقيصر ما لقيصر وأعط لله ما لله .

وقد حدد الله مهمة القرآن فى توحيد الصفوف ، وتوجيه القلوب . وتكوين العقول والأفكار ، وتأليف أمة ذات صيغة خاصة ، ومقومات مميزة عن غيرها فقال سبحانه : « إنا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون » (يوسف ٢)، وقال : « وكذلك أنزلناه حُكْمًا عَربيا ، ولَئِن اتبعتَ أهواءهم بعد ما جاءك من العِلْمِ مَالكَ مِنَ اللهِ مِنْ وَلِىٍ ولا وَاقٍ » (الرعد ٣٧) ، وقال : « وكذلكَ أنزلناه قرآنا عربيا وصَرَّفْنا فيه مِنَ الوعيدِ لعلهم يتقون أو يُحْدِثُ لهم ذِكْرًا . فتعالى اللهُ الملكُ الحقُ ،

ولاتَعْـجَلْ بالقـرآنِ مِنْ قَـبْلِ أن يُقْـضَى إليـكَ وَحْيُهُ، وقل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ، ولقد عَهِدْنا إلى آدمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ ولم نَجِدْ له عَزْمًا » (طه ١١٣ - ١١٥) وقال تعالى « قُرآنا عربيًا غيرَ ذِي عِوَجٍ لعلهمْ يَتَّقُون « (الزمر ٢٨) ، وغير ذلك من الآيات المبينات حاكية عن مهمة القرآن فى تكوين أمة إسلامية غير ذات عوج ، وهى رحمة للعالمين ، وخير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله .

والإسلام غير العرب ، ولم يغير اللغة العربية وأن رفعها إلى أسمى اللغات قيمة وقدرا ، ونحن فى الواقع مجمع لغة القرآن لسان الإسلام ، إذا اتسعت مهمتها ، ويجب أن نرفع من شأنها فى الوحدة القومية التى بها نوحد الخطط السياسية ، والشئون الاقتصادية ، والمشاكل الثقافية ، والاختلافات المذهبية ونؤدى مهمتنا العليا فى الرسالة الإلاهية حتى تجد إسرائيل سم حاجتها فى تغيير جامعة الدول العربية الى جامعة دول الشرق الأوسط فالأولى بنا أن نجعلها جامعة الدول الإسلامية ، وهذا المجمع مجمع اللغة الإسلامية لنسد كل فراغ يمكن أن تدخل منها بجانب أننا نقوى صفوفنا القومية وروحنا الإسلامية ، ونرقى مشاعرنا اللغوية ، وننظر إلى سياسة أبعد مدى وأكثر فعالية ومفعولية ، فلا نضع العربة خلف الحصان كما يقول المثل الفرنسى : (Mettre la charrue devant les boeufs) .

ومميزات العرب فى الجاهلية لم تصل بعد إلى درجة التقدم العلمى وإلى الرقى الأخلاقى ، ولم تمتد حدودهم عن المناطق العربية المجاورة فى تجارة ما وللحصول على الضروريات الملحة ، ولم تكن لهم رسالة واسعة النطاق بل هم قوم رحل للبحث عن قوت يومهم حول الصحراء القاحلة والفيافى النائية ، وعلومهم لم تفدهم فى أداء هذه المهمة الضيقة ولا سيما العداوة بينهم كانت قبلية وشعوبية وعزة قومية ، وعلومهم لا تتجاوز حدود الاحتياجات المطلوبة فكانت علومهم بدائية للتغلب على الطبيعة القاسية والعوارض النفسية من الأهواء فى صورة ضغائن للأخذ بالثأر ، فأتقنوا علم القيافة والنجوم وغيرها من العلوم التى تواجه الطبيعة القاسية وتتغلب على الظروف المحيطة ، وعلى الطبائع الإنسانية الشريرة ، فتلك العلوم خاصة بمنطقة لم تخرج عن حيزها الضيق ، فالجهل صفة عدم

إدراك الطبيعة الإنسانية الشاملة ، فالعرب فى الجاهلية لم يخرجوا بعقولهم فى معالجة الأمور ، فسلاحهم لم يكن العلوم الفعلية بمشاعرها الإنسانية بل هى علوم طبيعية لمواجهة القوة كقانون الغاب وأسلوب الوحوش .

فلا يمكن أن نقول بملء الفيه إن هناك جغرافيين من العرب ولا سيما الأعلام منهم ، فإن وجد شخص ما فلم يكن مقياسا فالندرة شذوذ لا يقاس عليه : « وما شذ فعلى تقل قُصِر » كما يقول ابن مالك فى ألفيته ، وهو أنأى من الكواكب ، وأبعد من مناط الثريا وبيض الأنوق .

الإسلام هو الكمال المطلق ، وهذا ليس تعبيرا رمزيا ، بل هو تعبير إلهى شامل لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه إذ قال تعالى : « ويَمْحُ اللهُ الباطلَ ويحقُّ الحقَّ بكلمتِهِ » (الشورى٢٤) ، ما جاء الإسلام كدين الله إلا ليعطى للعلم قدره ، وللعقل مكانه وللتفكير صورته فى لون من الاجتهاد ، وفى وضع العلماء ورثة الأنبياء ، وهل يستوى الأعمى والبصير ، والجاهل والعالم المنير ، فكل فى فلك يسبحون .

لا شك أن العلماء فى جميع العلوم ظهروا مع الإسلام ، فالأشهر الإسلامية قمرية ، والقمر يظهر فى الليالى الليلاء ، فينير الطريق لمن ضل السبيل ، فجعلت اللغة العربية القمر مذكرا لأنه حارس ذلك الليل المخيف الذى يهلك الإنسان خوفا ورعبا من الأخطار المهددة لسلامة الإنسان وأمنه حتى يصل إلى هدفه تحت حراسة دين قويم فى عدالته ومساواته وإعطائه الحقوق دون نقص ولا خلل ولأن الإسلام شامل كامل وجامع مانع فلابد له من علوم تحميه وتحرسه من كل أخطار الدنيا ، والجغرافيا أحد العلوم الهامة لحراسة الكيان الإسلامى فى أداء دعوته وحفظ بلاده وصون وطنه ، وهذا العلم تعريف عن كل قطعة من المناطق الإسلامية حتى يلم المسلم بأحوال بلاده ووطنه ، ولا سيما الإسلام يدعو إلى القيام بأداء الرسالة لعامة الناس ، وادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن فالإسلام سلام فى رحمة لإنقاذ البشرية من ظلم مقيم واستعمار بغيض كما نراه فى الحروب المتتالية من الصليبية وحرب الصرب القائمة إلى وقتنا الحاضر وغيرها من الحروب الانتقامية ضد الإسلام والمسلمين .
فلا بد للمسلمين من مجلس أمن إسلامى يحدد

موقفهم إزاء هذه الأعمال الإجرامية التى تتنافى مع الأديان بل مع الشعور الإنسانى والأمن البشرى ، ومجلس الأمن الإسلامى له قواعده ومطالبه ومكانته .

وعلم الجغرافيا لدى المسلمين مهد الطريق لهم لمعرفة بلاد العالم والخروج من حيز بلادهم الضيقة إلى عالم واسع ، وهذا من رسالة الحج إذ قال الله لنبيه إبراهيم عليه السلام : « وأَذِّنْ فى الناسِ بالحَج يأتوكَ رِجَالًا وعلى كُلِّ ضَامرٍ يَأْتِينَ مِنْ كلِ فَجٍ عميقٍ ليشهدوا مَنافعَ لهم ويذكروا اسمَ اللهِ فى أيامٍ معلومات على ما رزقهم من بَهيمةِ الأنعامِ » (الحج ٢٧-٢٨) .

فهجرة المسلمين من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة انتقال أمة استوفت الشروط بعد اختبار أفرادها من أحسن الناس إيمانا وعقيدة وإسلاما ، واصطفاهم الرسول فردا فردا من أعلى طبقة العرب روحا ونفسا ، وأنفعهم جهادا ودفاعا عن الإسلام ، وأتى بهم من أم القرى إلى مدينة الرسول لتكوين دولة إسلامية بعد أن ألفهم فى أخوة صادقة وفية ، وفى تعاون مالى ودى وصفاء إسلامى وروح كلها تعايش سلمى وضمان اجتماعى وعدالة إنسانية شريفة .

هذه الأمة والدولة معا هما الإسلام فى صورته الحقيقية ، وهى صورة مصغرة لدولة إسلامية كبرى فحدود الإسلام العربية جعلت هذه اللغة لغته الدينية فالإسلام لا يعترف بالعنصرية ، واللغة العربية فى وضعها الطبيعى والسماوى ليست بلغة عنصرية ، ولا سيما العربية فى معناها الوضعى الإيضاح والظهور فى جلاء دون خفاء تتفق والإسلام دين الوضوح الحى المعبر عن حقيقة الأمور . والدعوة الإسلامية جعلت الرسول صلوات الله عليه يتعرض للصين فى قوله « اطلبوا العلم ولو بالصين » ، مهما كان وضع هذا الحديث فإنه يشير إلى المدى الذى يجب أن ينتشر الإسلام إلى المناطق النائية ، فهذا الحديث فتح للجغرافية الإسلامية ، وقد جاء وفد صينى فى عهد الخليفة الثالث عثمان بن عفان لمطالبة مساعدة عسكرية يستطيع بها إمبراطور الصين مواجهة الثوار ضد حكمه وسلطانه . قد تكون التجارة من الأمور الهامة ، ولكن لا يمكن الاعتماد عليها فى الدعوة الإسلامية ، وقد تكون سندا ماديا ، ولكن الإسلام رسالة روحية معنوية ، والمعنويات أعلى شأنا من الماديات إذ المعنويات لا تزول مهما عارضتها الماديات ، هذا الذى أبقى الإسلام حيا فى مناطق كثيرة رغم محاولة الاستعمار محوه وإزالته مع طول بقائه فى محاربته قرونا وقرونا بل ومئات القرون .

فعلا اشتهر الجغرافيون الإسلاميون من العرب وغير العرب ، ولهم تاريخ طويل فى الجهاد العلمى المجيد ، وتركوا آثارا خالدة تسجل للإسلام مجدا فاخرا تعتز به فى هذه الأيام الخالدة ، فعلينا الاهتمام بدراسة جغرافية العالم الإسلامى وإعطاء الأهمية الكبرى للبلاد التى تحمل تاريخا إسلاميا بارزا مثل فلسطين وأفغانستان مما يعطى فكرة الحفاظ على التراث الإسلامى ، وعلى شخصيته الحقيقية لمواجهة الاعتداءات والمساعى لطمس معالمه الإسلامية كما فعلت إسرائيل فى المسجد الأقصى لإعادة هيكل سليمان المدعى .

ومما حافظ دائما الكيان الإسلامى فى وحدة قومية وإيجاد أسرة إسلامية متحدة العقيدة والشريعة فى كل حركاتها وسكناتها هو جعل الله الجزيرة العربية مركزا لبيته العظيم ، ومصدرا لظهور رسله وأنبيائه عليهم السلام ومهبطا للأديان الثلاثة العظمى ، هو تلك الإشارة على أهمية الجغرافية الدينية وبالأخص الإسلامية لأن الإسلام هو منبع كل الأديان السماوية من يهودية ومسيحية ، وبجانب هذا كله فهذا الجزء من العالم هو مركزه العالمى إذ يتوسطه كنقطة الارتكاز للكرة الأرضية ، من هنا انتشر الإسلام ، وإلى هنا يتجه المسلمون فى صلواتهم وأداء مناسك حجهم وجمع كلمتهم .

ولانتشار الإسلام عن طريق الجزيرة العربية وقد أعد الله العرب من البداية أصحاب سفن ومواصلات بحرية للانتقال إلى ما وراء بحارهم ، فاشتهروا بالتجارة ، بها تنتقل البضائع من الشرق إلى الغرب ، ولهم رحلة الصيف والشتاء التى ذكرها القرآن الكريم تسجيلا لفائدة التجارة ، وللانتقال من مكان إلى مكان لتوسعة المدارك العلمية ، والخبرة والتجارب الاجتماعية ولهذا وصل العرب إلى الصين وغيرها للبحث عن الحرير والتوابل والبهارات والإفادية ولفتح مصادر الرزق .

من هذه الناحية لم نجد للعرب تاريخا خاصا بهم بل انضووا تحت لواء الإسلام وكانوا قادته، وأصحاب الزعامة لحملها تلك المسئولية الدينية فى الرسالة الإسلامية وفى أداء الأمانة التى ورثوها عن سيد العرب رسول الإسلام سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام ، والإسلام لا يفرق بين العرب والعجم فهو دين المساواة فالإنسان لديه كأسنان المشط ، والرسول قد قام بالرحلة التجارية كمثال للحياة العملية .

وصلات العرب بالبلاد الأخرى قبل الإسلام كانت صلات فردية ليست ذات أثر فى فكرة ما ، ولكن صلات الإسلام أنشأت أمة واسعة النطاق فى مساحة شاسعة من العالم ، وقال الدكتور يوسف أبو الحجار فى مقاله تحت عنوان مسالك انتشار الإسلام نشر فى صفحة ٣٣ من المجلد الرابع لبحوث المؤتمر الجغرافى الإسلامى الأول لجامعة الإمام محمد ابن سعود الإسلامية سنة ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤ م «فالعالم الإسلامى دنيا فسيحة الأرجاء ، حتى لو قصرنا هذا التعريف على الوحدات السياسية التى يؤلف المسلمون أكثر من نصف سكانها بإجماع التقديرات . فهو يمتد نحو ١٤٠ درجة طولية ، من درجة ١٢٠ الشرقية ، شرقى أندونيسيا حتى درجة ١٨ الغربية حيث سواحل السنغال التى هى أقصى أقطار العالم الإسلامى فى الاتجاه الغربى » .

وهو يمتد نحو ٧٠ درجة عرضية من أعالى نهر الفولجا عند درجة عرض ٦٠ الشمالية حتى درجة عرض ٦ جنوب خط الاستواء حيث جزيرة زنجبار « وتلك مساحة هائلة ، أكثر مثلا من مساحة كل القارة الأفريقية ، وأكثر من مساحة قارتى أوربا وأمريكا الجنوبية مجتمعين ، فهى تبلغ نحو اثنى عشر مليونا من الأميال المربعة ولعلها تصل إلى نحو أربعة عشر مليونا إذا أضفنا إليها المساحة التى تشغلها الأقليات المسلمة فى الدول غير الإسلامية » .

« وفى هذه المساحة يعيش نحو ٨٠٠ مليون مسلم أو يزيدون ، مما يجعل الإسلام يحتل المركز الثانى بعد المسيحية من حيث عدد معتنقى الأديان السماوية » .

ولا شك إسرائيل العدو اللدود للإسلام والمسلمين أخذت تغير الأسماء الإسلامية للبلاد التى استولت عليها فى فلسطين مما جعل أجزاء من تلك البلاد الإسلامية مشوهة الأصل ، وفى ذلك سياسة ماكرة لاسترجاع تلك البلاد بأسمائها الإسرائيلية المصطنعة ولقد لعبت إسرائيل فى هذا الصدد فى المؤتمر المتتالى عقده لتنميط الأسماء الجغرافية وعقد أخيراً بأثينا فى ١٧ أغسطس ١٩٧٧ ، وكان الدكتور عبد الهادى التازى رئيسا للوفد المغربى فيه » .

والعلماء المسلمون قد درسوا تطور الفكر الإسلامى فى فترة كان ازدهار العلوم الإسلامية يضع اهتماما خاصا فى تاريخ علم الجغرافيا ويتدرج أفكاره الرئيسية ، والإسلام فى نفس الوقت قد دعا الأمة الإسلامية إلى التأمل فى

السمـاوات والأرض ، وإلى النظر فى الكون وإلى الطبيعة التى لعبت دورا فى التغيرات الجوية ، ومن سقوط الأمطار وغير ذلك من الأحوال على حياة الإنسان حتى أمر صيام رمضان برؤية الهلال وكذلك انتهائه ، ودورة الفلك ، كل أولئك داخل فى علم الجغرافيا فشموله على وضع الإنسان فى البحر والبر ، وحياته على أنشطة البحر والبر اللذين عليهما يعتمد الإنسان فى حياته وتنقلاته وجولاته . وعلم الجغرافيا هو الذى وحد المسلمين وهو الذى مهد لهم طريق الوصول إلى أداء فريضة الحج وغير ذلك من الأمور الهامة فى تكوين الوطن الإسلامى الموحد ، وفى نشر فكرة الاتحاد الأخوى .

من هذه الناحية الحساسة غير المسلمون العلوم الجاهلية المقصورة على مطالع النجوم ومضاربها إذ حددوا منازل القمر بين النجوم بثمانية وعشرين منزلا ، وسموها منازل القمر وأطلقوا على كل منزل منها اسما عربيا خالصا ، وأخذوا بأسباب العلوم فى القرون الأولى للهجرة وترجموا تراث القدماء سواء الهنود منهم أو المجوس أو الفرس أو اليونان ، وتوسعوا فى العلوم العملية بدور الإبداع وإظهار مهارتهم العلمية والفنية بالإسهامات الحقيقية فى نشاط الفكر العلمى عامة ، فعلينا أن نقدر تلك الثروة الضخمة ليكون لنا تاريخ علمى نفخر به أمام الحضارة الغربية المتوغلة فى المدنية المعاصرة التى قد طغت على الحضارة الإسلامية لإهمالنا وعدم اهتمامنا وتساهلنا وعدم إظهارنا تلك الحضارة فى مركز علمى إسلامى يضاهى ما لدى الغرب من معاهد عالية تدرس الحضارة القديمة الإسلامية وغير الإسلامية حتى أصبحنا نلتجئ إلى تلك المعاهد للتخصص فى العلوم الإسلامية مما يحط من كرامتنا العلمية والثقافية بل الإسلامية .

ويعتبر كتاب « المسالك والممالك » لابن خرداذبة (٨٢٠ -٩١٣) جغرافى فارسى الأصل ، وهو مصور هام لتعريف صفة الأرض، يرسم هدفا ومنهجا للجغرافية ، ويعتبر أول مصنف فى الجغرافيا الوصفية فى المدرسة الجغرافية الإسلامية ، وابن خرداذبة هو (أبو القاسم عبد الله بن عبد الله بن خرداذبة) شغل وظيفة صاحب البريد بنواحى الجبال بإيران.

ويقول د/ محمد الأمير غلاف فى مقاله تحت عنوان « الجغرافيون المسلمون ودورهم فى تطور الفكر الجغرافى فى الصفحة ١٣٦ من كتاب بحوث المؤتمر الجغرافى الإسلامى الأول بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض المنعقد سنة ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤ م ».

المجلد الثالث : « وتظهر طريقة الاستقصاء فى جمع المادة الجغرافية من مقدمة الجغرافى والمؤرخ إلى العباس أحمد بن يعقوب اليعقوبى لكتابه « البلدان» إذ يقول : « إنى عنيف فى عنفوان شبابى » بعلم أخبار البلدان ومسافة ما بين كل بلد وبلد « لأنى سافرت حديث السن ، واتصلت أسفارى ، ودام تغربى ، فكنت كلما لقيت رجلا من تلك البلدان سألته عن وطنه ومصره ، فإذا ذكر لى محل داره وموضوع قراره سألته عن بلده وزرعه ما هو وسأكتبه من هم من عرب أو عجمُ ... ودياناتهم ومقالاتهم» ...

« ولكى نفهم ما يقصده الجغرافيون المسلمون بالممالك أو البلدان نورد خطة كتاب البلدان هذا . إذ هو يتحدث أولا عن بغداد «وسُر ّمن رأى» لأنهما مدينتا الملك ودار الخلافة . ثم عن إيران وتركستان وأفغانستان . ثم عن غربى وجنوبى الجزيرة العربية ثم العراق الجنوبى والشرقى وشرقى شبه الجزيرة العربية والهند والصين أما الرابع فبيزنطة ومصر والنوبة وشمال أفريقيا » .

ومن أنماط الكتب الجغرافية التى ظهرت فى هذا العصر «كتاب فتوح البلدان للبلازرى» الذى يعتبر بحق قطعة ممتازة فى الجغرافيا التاريخية وهو ذو قيمة كبرى فى التاريخ الإسلامى - وكتابان فى تاريخ مكة أحدهما للأزرقى (المتوفى عام ٢٤٤هـ - ٨٥٨م) والآخر الفاكهى (المتوفى حوالى ٢٧٢هـ - ٨٨٥ م) وينتسب لنفس النمط كتاب تاريخ بغداد لأحمد بن أبى طاهر طبفور (المتوفى عام ٢٨٠هـ - ٨٩٣م) وان كانت ضئيلة الحظ من الجغرافيا وكتاب تاريخ دمشق لأبى عساكر (توفى ٥٧١هـ - ١١٧٦م) .

والقرن الرابع الهجرى يعتبر تاريخيا عصر ازدهار الحضارة الإسلامية وفى نفس الوقت عهد ازدهار الجغرافيا الإسلامية وقد سمى العصر الكلاسيكى للجغرافيا الإسلامية إذ بدأت بالفلك ثم توسعت إلى رحلات وأدى ذلك إلى وجود الجغرافيا الوصفية .

وقد تطورت الجغرافيا الإسلامية إلى ظهور الجغرافيا الاجتماعية التى قادها عبد الرحمن ابن خلدون (١٣٣٢م- ١٤٠٦م)بكتابه «العِبر» المشهور بمقدمة ابن خلدون وفى الواقع الجغرافيا الإسلامية لها أن تفخر بعالم بارز آخر وهو البيرونى (أبو الريحان ٩٧٣م ـ ١٠٤٨م) من أصل فارسى ومن أهم كتبه «الآثار الباقية من القرون الخالية » وهناك بعض علماء مجهولى الأسماء من إخوان الصفا تلك الجمعية السياسية الشيعية ظهرت فى القرن العاشر بالبصرة .

وأبو الحسن المسعودى وذلك المؤرخ الجغرافى الذى نشأ فى بغداد وطاف فارس وكرمان والهند وسيلان والصين ومدغسكر وما وراء النهر وأذربيجان وجرجان والشام وفلسطين ومصر وتوفى سنة ١٩٥٦م وضع فيما سمعه ورآه عشرات المؤلفات وأشهر ما بقى منها «مروج الذهب ومعادن الجوهر» وهو من أشهر جغرافى القرن الرابع الهجرى وهو عربى صرف ونسبه يرجع إلى الصحابى عبد الله بن مسعود وقيل إنه قد زار الصين وأرخبيل الملايو .

فغرَّبت حتى لم أجد ذكر مشرق

وشرقت حتى قد نسيت المغاربا

وأحمد بن فضلان له مكانة خاصة لدى الرحالة المسلمين إذ أوفده الخليفة المقتدر بالله بهدايا إلى أمراء بلغار الفلجا وبلاد الترك وطرق أبواب عالم بربرى وعاد إلى بغداد وكتب «رسالة فى الرومى» عن رحلته واهتم بها الغربيون باعتبارها أحد المصادر النادرة الأصلية عن رحلات أجدادهم من البلغار والروس والجزر وبدأت هذة الرحلة باثنين صفر (عام ٣٠٩ هـ - يونيو ٩٢١م) ولكننا لا نعلم متى انتهت . ويقول الدكتور محمد السيد غلاب فى نفس مقاله ص ١٣٩ ما يلى : ويحتفظ باتوت بشذرات عديدة من رحلة طريفة قام بها رحالة أحاط به وبصحبة رحلته كثير من الريب والشكوك ، وهو أبودلف الينبص الخزرجى . وكان أبودلف شاعرا مداحا التحق ببلاط نصر الثانى بن أحمد السامانى (٣٠١- ٣٣١هـ - ٩١٤-٩٤٣ م) وقد انتهز أبودلف فرصة وصول سفارة صينية إلى بخارى فاصطحبها وهى عائدة إلى بلادها ويبدو أن أبادلف كتب ذكرياته عن رحلته بعد عودته من الذاكرة . وخلط بها ما سمع من قصص وأساطير .

«غرب الرحالة العرب ووصلوا إلى أوربا ليس من الشرق فقط ، بل من الغرب أيضا وقد حفظ لنا البكرى الجغرافى الأندلسى (عبد الله) (توفى فى قرطبة ١٠٩٤م) والقزوينى (زكريا ١٢٠٣- ١٢٨٣) كثيرا من مشاهدات الرحالة إبراهيم بن يعقوب الإسرائيلى الطرطوشى ، وكان عالما أندلسيا يهوديا اشتغل بتجارة الرقيق ، وأخذته رحلاته التجارية إلى جنوب ألمانيا فى القرن الرابع الهجرى (٩٦٥م) وقابل الإمبراطور الألمانى أوتونى مجد برج (Otton) وحفظ لنا معلومات واسعة عن، إمارات الصقالية فى أوربا فى ذلك العصر، ويحدثنا عن أربعة منها ؛ بلغاريا وبولندا والتشيك وإمارة ناكون الاندوريتى كما يورد تفاصيل واقعة عن بعض المدن الساحلية أو القريبة من الساحل بفرنسا وهولندا وألمانيا.

استمرت رحلة المسلمين إلى بلاد مختلفة مما فتح آفاقا واسعة زادت فى معرفة الناس للعالم ومواقع البلاد إلى أن وصلنا إلى آخر الممثلين الكبار للمدرسة الكلاسيكية وهو المقدسى (أبو عبد الله) أكبر جغرافى عرفته البشرية قاطبة ، ولد فى عام ٣٣٥هـ - ٩٤٦-٩٤٧ م، وتوفى نحو سنة ٩٨٥م تجول أكثر البلاد الإسلامية وقام فى سنه الأربعين بتأليف كتاب « أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم » (٣٧٥هـ - ٩٨٥-٩٨٦م) ونقله الأوربيون إلى لغاتهم واستفادوا منه ، وهو لم يذكر غير الممالك الإسلامية ولم يتعرض لممالك غير إسلامية لأنه لم يدخلها ولم ير فائدة من ذكرها غير أنه تعرض لمواضع المسلمين فيها .

وفى هذا العصر ذاته برز فى الجغرافيا كأحد العلوم الفلسفية إذ تعرض لها كتاب « إخوان الصفاء وخلال الوفاء » كموسوعة ذات صبغة خاصة وحيدة من نوعها ألفتها نخبة من المفكرين والعلماء أخفوا أسماءهم وهذا الكتاب يشتمل على علوم مختلفة فى مبادئ الرياضيات والمنطق وعلم النفس والطبيعة والتصوف والتنجيم ، وهو مجموعة من الرسائل مكونة من إحدى وخمسين رسالة وللجغرافيا الرسالة الخامسة .

فهناك البيرونى ، والبكرى فى الأندلس ، والإدريسى فى صقلية ، وكل منهم له أثر استفاد منه الناس عامة من المسلمين وغير المسلمين ، ولناصرى خسرو (٣٩٤-٤٨١ هـ = ١٠٠٣-١٠٨٨م) الذى نشأ فى مدينة مرد ، كتابٌ باللغة الفارسية يعرف باسم « سفرنامه » وهو شاعر اعتنق المذهب الإسماعيلى ، وفى كتابه هذا تناول رحلته إلى مكة المكرمة .

وحمود الكاشفرى قد ترك كتابا باللغة العربية ، وهو سلجوكى ، وعرف هذا الكتاب الوحيد باسم « ديوان لغات الترك » دون فى بغداد بين عامى ٤٦٤ و ٤٦٦ = ١٠٧٢ و ١٠٧٤م ، وهذا الكتاب قد ترك لنا مادة غزيرة عن الشعب التركى فى مراحل تكوينه الأولى ، وتم طبعه أثناء الحرب العالمية الأولى .

وهناك كتاب « طبائع الحيوان » يتناول فى جوهره علم الحيوان بيد أنه تعرض للحديث عن الأصناف البشرية والجغرافيا ، ويمتاز بما تضمنه عن الشرق الأقصى « أى الهند والتبت والصين » .

وفى الأندلس والغرب قد ظهر ثلاثة أعلام ، وهم أبو عبد الله البكرى (توفى فى قرطبة ١٠٩٤ م) أقدم من بقيت مؤلفاتهم لدينا

كأكبر جغرافى أنجبته الأندلس - كما قال المستشرق دوزى (Duzy) - ١٨٢٠ - ١٨٨٤ م الهولندى ، ومدرس اللغة العربية فى كلية ليدن «Leiden» واشتغل فى تواريخ الدول الإسلامية فى الأندلس والمغرب ، ومن أهم مؤلفاته « ملحق وتكملة القواميس العربية » ، ذكر فيها الكلمات التى لم ترد فى المعاجم . ومن مؤلفات البكرى « المسالك والممالك » وكتاب «معجم ماستعجم » والثانى الإدريسى (أبو عبد الله المعروف بالشريف (١٠٩٩ - ١١٥٣ م) ولد فى الأندلس واشتهر بأنه أكثر الجغرافيين المسلمين مكانة بين العلماء المحدثين ، ونسبه يرجع إلى الأدارسة العلويين ولهذا عرف بالشريف الإدريسى .

والإدريسى يختلف سلوكا عن الجغرافيين المسلمين الكلاسكيين حيث لم يقتصر على البلاد الإسلامية فحسب ، ولكنه ألف كتابه وخطط خرائطه وهو فى بالرمو «Palarme» عاصمة صقلية بدعوة من الملك روجر الثانى «Rager II» فاحتوى كتابه على وصف جذاب لأوربا الغربية (فرنسا وسكتلاندا وألمانيا وأيرلندا وسواحل بحر الشمال) .

والبكرى (عبدالله) من أقدم ما لدينا من مؤلفاتهم عن جغرافيى الأندلس وكتابه المعجم « ليس كتابا جغرافيا بل كتاب لغوى ، ولكن اهتم فيه البكرى بشبه الجزيرة العربية على وجه الخصوص ، واستغرق فى ذكر الأسماء المذكورة فى القرآن الكريم والحديث الشريف وقصص المغازى الأولى والشعر الجاهلى .

كان فى الأندلس معاصرا للإدريسى «أبو حامد الغرناطى» ، ولد فى غرناطة عام ٤٧٣ هـ - ١٠٨٠ م ، شغوفاً بالرحلات وزار مصر وصقلية وسردينيا ، وبغداد وبحر قزوين وإيران ، وله كتاب تحت عنوان « تحفة الألباب ونخبة الإعجاب » .

ومن هؤلاء محمد بن أحمد بن جبير الكنانى (١١٤٥ - ١٢١٧ م) . ولد فى بلنسية بالأندلس وتوفى فى الإسكندرية ، درس الفقه والحديث فى شاطبة ، شرب الخمر صدفة فحج تكفيرا ، زار الإسكندرية والقاهرة ومكة والمدينة والكوفة والموصل وحلب ودمشق وعكا وصقلية ثم عاد إلى غرناطة عن طريق قرطاجنة وقد حج عن طريق النيل إلى الصعيد ثم عبر الصحراء إلى عيذاب (مرفأ على ساحل البحر الأحمر) وقد وصف ابن جبير ما رآه فى الإسكندرية ومصر .

ومن جغرافى هذا العصر أبو المكارم أسعد مماتى المصرى توفى فى حلب ٦٠٦ هـ -١٢٠٩م ، وينتمى إلى أسرة قبطية عريقة ، وتولى رئيس ديوان الجيش للملك الناصر بالقاهرة ، اعتنق الإسلام وتولى منصباً كبيراً فى عهد صلاح الدين وخلفائه . له كتاب « قوانين الدواوين » فيه قواعد إدارة مصر فى عهد صلاح الدين الأيوبى ، وقد فصل نظام الأراضى بمصر ، وبين مساحتها وخراجها ، ويعتبر هذا الكتاب وثيقة هامة فى تاريخ مصر الاقتصادى .

بعد تغيير الوضع السياسى والاجتماعى فى الشرق الأوسط وتبديل النظام الإدارى فى العراق إثر استيلاء المغول على بغداد وتحطيمها للحضارة الإسلامية وتخريبها مكتباتها العلمية والثقافية تحول معمل الإشعاع الفكرى الإسلامى نحو الغرب أى إلى دمشق وحلب وأخيراً تمركز فى القاهرة مما جعل القرنين الهجريين السابع والثامن بروز المجهودات العلمية فى موسوعات عربية كبرى وبالأخص فى مصر ، وكان من قبل ياقوت الحموى قد أقدم على هذا العمل العلمى الجليل بمعجمه ، وكفى فخرا أن المعجم يتكون من ثلاثة آلاف وثمانمئة وأربع وتسعين صفحة ، وهو فى واقع الأمر مرجع للجغرافيا فى وصفها المختلف .

وياقوت هذا أى يعقوب الرومى (١١٧٩- ١٢٢٩) كان أصله بلاد الروم ، أسر صغيراً إذ ابتاعه تاجر بغدادى يعرف بعسكر الحموى ، علمه وشغله بالأسفار ثم أطلق سراحه فأتم رحلته إلى مدن إيران والشام والعراق ومصر إذ راجع فيها المكتبات فجمع حاصلات علمية وفيرة وضعها فى كتابه « معجم البلدان فى معرفة المدن والقرى فى كل مكان » .

وممن عاصر ياقوت المؤلف موفق الدين عبد اللطيف بن يونس البغدادى (١١٦٢ - ١٢٣١م) وقد ترك معلوماتٍ هامةً عن مصر إذ ولد فى بغداد وأقام فى مصر ، درس الطب والأدب والكيمياء ، وله كتاب صغير تحت عنوان « الإفادة والاعتبار فى الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر » وقد وُلِد أبو الفداء (أبو الفداء عماد الدين إسماعيل المؤيد ١٢٧٣- ١٣٣١م) بمدينة دمشق ، وهو الأديب الإدارى المحارب إذ اشترك فى عدة حملات ضد الصليبيين ، واستقر أخيرا مع الأيوبيين بمصر ، فعُيِّن حاكما فى حماة ، ومؤلفه المشهور فى الجغرافيا تحت اسم « تقويم البلدان » .

فى عصر المماليك ظهرت موسوعتان إحداهما لشهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب

البكرى النويرى (٦٧٧-٧٣٢ هـ = ١٢٧٩-١٣٣٢م) والثانية لابن فضل الله العمرى (١٣٠٠ - ١٣٨٤) وكتابه « مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار »

والقلقشندى أحمد (١٣٥٥ - ١٤١٨) المنسوب إلى قرية مصرية فى القليوبية المعروفة باسم قلقشنده ، وهو من علماء الأدب العربى ، وقد عرف بكتابه «صبح الأعشى فى صناعة الإنشاء » ، وفيه مايحتاج المتعلم من معارف عامة منها الجغرافيا ، وعن الأرض وأبعادها والأقاليم السبعة ، والجبال والبحار والجزر والأنهار ، والبحيرات والبلدان المختلفة والمدن وسكانها .

والعلامة المصرى أحمد زكى باشا (المتوفى ١٩٣٤) جمع هذا الكتاب القيم فى واحد وثلاثين جزءا .

ثم ظهر ابن بطوطة (١٣٠٤ -١٣٧٨ م) الرحالة المولود فى طنجة تجول فى العالم فى ثلاث رحلات استغرقت زهاء ٢٩ سنة ، وهو أبو عبدالله محمد بن عبدالله اللوائى الطنجى ، وصل ابن بطوطة إلى إندونيسيا ، وهو ذلك المزواج الذواق . ترك آثاراً من سلالته فى كثير من البلاد . وذات مرة رأى الملك فى منطقة أتشيه يخرج لصلاة الجمعة حافى القدمين متمثلا فى ذلك بالآية الشريفة : ﴿ فاخلع نعليك إنك بالوادِ المقدَّس طوى ﴾ (طه ١٢) .

وهناك رحلات جغرافية قليلة الأثر قام بها بعض الشخصيات لغرض المتعة والترفيه، ولكنهم تركوا شيئا من آثار رحلاتهم هذه ، وذلك مثل الأمير محمد على ولى عهد المملكة المصرية ، وقد زار إندونيسيا وتحدث عنها ، ومما قاله : « عند نزول الإنسان فى أى فندق من الفنادق فإنه يجد على سريره مخدة محشوة طويلة مدورة يحتضنها النائم كمرافقة له تعرف باسم الفتاة الهولندية « Dutch fady» وكأن الهولنديين يرفهون عن الزوار بإعطائهم فرصة التمتع بفتاة هولندية افتخارا بكرمهم وحسن ضيافتهم كما يسمى الغربيون «البامية» للذتها بأصابع المرأة «Lady'S fingers» ما أحلاها من اسم ، وفى الواقع البامية لذيذة وأنا من محبيها - خلاصة القول ، أنى أرى أن موضوع بحثنا أعلام الجغرافيين العرب لايصلح لأن يكون موضوع الحديث بعد أن عرفنا أن الإسلام رفع العرب شأنا وجعلهم فى مقدمة الصفوف الدينية والعلمية والثقافية بل هم أصحاب الفضل فى فتح أبواب العلوم ؛ فلهذا أرى أن الأولى بنا أن ندرس أعلام الجغرافيين الإسلاميين الذين عاشوا فى التاريخ وأغلبهم

من العنصر العربى ومن فطاحل هذا الجنس البشرى الذى اختار الله رسوله من بين صفوفه .

واختصاراً للبحث عن هذا الموضوع فأمامنا دراسة مستفيضة عن الجغرافيين الإسلاميين إذ عقدت جامعة الإمام محمد بن مسعود الإسلامية بالرياض مؤتمرا خاصا لدراسة هذا الموضوع تحت عنوان « المؤتمر الجغرافى الإسلامى الأول » فى الفترة من (٢٢ إلى ١٣٩٩/٢/٢٨هـ الموافق من ٢٠ إلى ١٩٧٩/١/٢٦ م) .

وقد استضافت الجامعة نحو مئة وخمسين عالما من علماء الجغرافيا المسلمين ، وفدوا على الرياض من أرجاء العالم ، وأُلقيتْ بحوثُهم القيمة التى جُمِعتْ فى ثمانية عشر مجلداً . فالأحرى بنا مراجعة ذلك المحصول العلمى ، والمجهود الفكرى ، والإنتاج الجماعى عن التاريخ الإسلامى فى الموضوع الجغرافى ، حتى نختصر الطريق فى الوصول إلى الهدف المنشود الذى نبتغيه ، ويمكن لاختصار الوقت أيضًا أن نكوِّن لجنة من شخصيات أعضائنا أو الأعلام الجغرافيين خارج مجمعنا لبحث هذا الموضوع والخروج منه بنتيجة مرجوة ، ولابأس أن نطلب من جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية إتحافنا بتلك الكتب التى تبلغ ثمانية عشر مجلداً ..

الفرنسيون يؤنثون لفظ « القمر » « La Lune» ويُذكِّرون كلمة « الشمس » «Le Soleil»، ولهم فى ذلك فلسفة خاصة لهدوء القمر وثورة الشمس ، ولكن العرب اعتبروا أن القمر يحرس السارى ليلا فى البيداء الموحشة بينما الشمس تحدث تلك الحرارة التى تثير وتدفئ الجسم الهادئ الساكن .

ولكن العرب كالفرنسيين استعملوا هذه الكلمة بحسب معناها المراد ، فيتغازلون بالقمر ، فيقولون « ياقمر ، ياقمر » عند مغازلة المرأة والإعجاب بها .

غير أن هناك مغنية فريدة هى التى استعملت لفظ القمر فى معناه الحقيقى فتقول «ياما ، القمر على الباب » .

بعض اقتراحات لغوية

بمراجعة الاستعمالات اللغوية بل بالتأمل فى الناحية الخاصة ببناء الكلمات العربية ولاسيما الوضع الحركى فى النحو وقواعد

الإعراب ، فإنى أرى أن هناك أمورا يجب أن نستفيد منها فى إظهار فلسفة لغوية ولاسيما فيما يتصل بالشريعة الإسلامية فى استعماله للألفاظ ومعانيها فى إظهار الأحكام الفقهية ، بل هناك اصطلاحات لايصلح استعمالها لتعارضها مع حقيقة المعانى التى تحملها وقد تؤدى إلى سوء الأدب بالنظر إلى ارتباطها بالمعانى الحقيقية لها ، وذلك :

١ - الفلسفة اللغوية :

لايمكن أن نترك اللغة العربية بدون أن ننظر إلى فلسفة تركيب كلماتها وما الذى دفع واضعى قواعد النحو إلى تحريك الكلمات حسب وضعها الإعرابى مصورة تحقيق الغرض الحقيقى الذى تؤديه تلك الكلمات فى تركيب الجمل . مثلا يقول النحويون الفاعل مرفوع وعلامة رفعه الضمة وما إلى ذلك .

فبالتأمل نجد فلسفة هذه التسمية ملاحظة الاعتبارات الطبيعة فى المجتمع الإنسانى ، فالفاعل عمدة كما يقولون، وصاحب الشأن فى تركيب الجملة فلمركزه هذا فهو مرفوع، وإذا رآه الناس ضموه احتراما وتبجيلا تقديرا لوضعه الاجتماعى ، والمفعول به عبارة عن شىء واقع عليه الأذى كأنه مضروب ، فإذا هو مضرب مطروح أرضا ، وعلامة هذه الحادثة أثر فى جسمه وهى الفتحة أو الجرح ، وأما المجرور فإنه انجر فانكسر .

والاسم لايكون مجزوما أو ميتا ، بمعنى ليست له مهمة فى الجملة ، فهو متحرك أى له فعل ظاهر فى أداء مهمةٍ ما فى الجملة ، والفعل قد يكون مجزوما لعلة سبب ذلك مثل حروف الجزم التى دخلت عليه فمنعته من الحركة أى منعته من أداء مهمته فمثلا لا تفعل هذا ، ومعناه لاتؤدى هذا الفعل أى منعته من الحركة، وكذلك الأمر .

وإذا استطردنا البحث فوجدنا مثلا علامة التأنيث ، فللمفرد تاء التأنيث المربوطة وفوقها نقطتان بمعنى أن الأنثى إذا كانت منفردة وحيدة فلا يسمح لها الاختلاء بمفردها أو الخروج وحيدة، فهى مربوطة وهناك نقطتان تلاحظان تحركاتها ، أما إذا كانت أكثر فعلامتها تاء مفتوحة ولكنْ هناك النقطتان أى العينان اللتان تلاحظان تحركاتهن ، وعدد من النساء إذا خرجن معا لا مانع فى ذلك غير أنهن تحت رقابة دائمة للأثونة الفاتنة .

فهناك نوع آخر من مميزات هذه اللغة من حيث اشتراك كلمات فى مصدر أصلى واحد مثل فرج بسكون الراء والفرج بفتح الراء ، إذ بينهما ترابط روحى فى المعنى ، إذ الفرج بسكون الراء يفرج عن الإنسان همومة وضيقه فى حالات هو فيها مضطر للبحث عن الفرج ، ولهذا قال (رسول الله صلى الله عليه وسلم) « إذا أحدكم أعجبته المرأة فوقصت فى نفسه فليعد إلى امرأته فليواقعها ، فإن ذلك يرد ن نفسه» هذه أمثلة فحسب ، وهناك الكثير من أمور تستحق الملاحظة وآخذ الاعتبار منها ، فأرى لا بد من إبراز هذه الفلسفة اللغوية لإعطاء العربية مميزاتها الخاصة ، ولا سيما الفقهاء قد لاحظوا هذه الأمور فى وضع الأحكام الشرعية فمثلا قول الرسول صلى الله عليه وسلم : « من رأى منكم منكرا فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، وإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان » فهناك ظهرت فلسفة الإعراب من فاعل ومفعول به والمجرور ، فالفاعل القوى وضعا هو الذى يغير المنكر بيده ، والمفعول به فهو الذى يغيره بلسانه أما المجرور المكسور فلم يستطع تغييره إلا بقلبه ، وقال بعض العلماء : إن الأول هو الحكومة صاحبة السلطة والقوة ، والثانى هم الدعاة الذين لهم الألسن والدعوة والنداء ، وأما الثالث فعامة الشعب الذى لا قوة له ولا حيلة .

٢ - الألقاب :

هناك ألقاب سائدة فى المجتمع تضع أناسا فى مقامات مختلفة وتناديهم بصفات ذات صبغة خاصة مميزة كل منهم عن غيرهم ، وهذه الألقاب أصبحت لاصقة لكل صاحب منصب ومكانة فى الدولة ، اصطلح عليها المجتمع العالمى فى التطور السياسى والدبلوماسى والاجتماعى حتى أصبح لكل منصب لقب خاص له ينادى به ولا يتنازل بل يعاقب من تساهل فيه أو أهمله ، ومن تلك الألقاب : صاحب الجلالة أو صاحبة الجلالة ، صاحب الفخامة ، وصاحب السمو الملكى ، صاحب المعالى ، صاحب السيادة ، صاحب العزة ، وصاحب السماحة ، وصاحب الفضيلة وغير ذلك ، ولم تنفض هذه الألقاب بل تزيد مع مرور الزمن ووجود مناصب جديدة ، ففى الأيام الأخيرة فى مصر مثلا زاد لقبان جديدان هما صاحب المقام الرفيع للنحاس باشا كرئيس الوزراء ورئيس الوفد والأمة معا ، وصاحبة العصمة لزوجه السيدة زينب الوكيل .

هذه الألقاب أصبحت لها مميزات خاصة فى المجتمع ، وهى فى الغالب مأخوذة من الدول الأجنبية ، وبالأخص من الدول الغربية كفرنسا مثلا صاحبة السيادة فى الدبلوماسية ، فمثلا منها فى اللغات الأجنبية وفيرة ، وتستعمل فى المكاتبات والنداءات مثل : (His Majesty. His Royal Highness. His Emminence etc) وغير ذلك من الألقاب المشيرة إلى عدم المساواة وتفرقة عنصرية أخرى للعلماء أو تفرقة طبقية تتنافى مع الإسلام ومع الديمقراطية فى مساواة الجنس البشرى فى حقوقه الإنسانية ومنزلته البشرية .

وهذه الصفات مأخوذة من صفات الله سبحانه وتعالى صاحب الجلالة والإكرام والعزة والعصمة والفخامة والسمو ويجب على المجتمع حامل الرسالة الإسلامية واللغة العربية تحديد موقفه وإظهار رأيه إذ هذه الألقاب لم توجد فى اللغة العربية سواء فى العصر الجاهلى أو فى العصر الإسلامى .

وقد شعرت بعض الدول الإسلامية هذه الأعراض الاجتماعية الاستقراطية فأندونيسيا مثلا عقب الاستقلال ألغت كل هذه الألقاب ، واستعملت كلمة « بونج » (BUNG) بمعنى الأخ لكل أبناء البلاد على حد سواء فيقولون بونج كارنو للرئيس سوكارنو ، وبونج حنا للدكتور حنا وغير ذلك ، وفى مصر كذلك عقب الثورة إذ تقرر استعمال لفظ « السيد » لكل أبناء البلاد دون استثناء وفى الواقع هذا هو الأمر الذى نواجهه فى مخاطبة الدول الأجنبية ، ولكن اذا اتخذنا قرارا فلا أحد يستطيع أن يغير نظامنا السياسى أو الاجتماعى ولا عيب فى ذلك بل فى ذلك حفظا لكياننا وشخصيتنا بل ولغتنا وديننا .

٣ - الكلمات المشتركة :

نجد فى اللغة العربية كلمات مشتركة تعطى معنيين أو ثلاثة ، وقد تؤدى إلى اختلاف فى إعطاء المعنى الحقيقى المراد ، ولا سيما فى الأحكام الشرعية كما نجد فى الفقة الإسلامى مما أدى إلى وجود مذاهب أهمها أربعة مثلا فكلمة « لامس » فى قوله تعالى « إذا لامستم النساء » فهذه الكلمة لها معنيان أى اللمس والجماع وقد اختلف العلماء فى إعطاء المراد من معناها فى الحكم الشرعى ، أى هل اللمس فحسب أو الجماع هو الذى ينقض الوضوء .

هذا الاختلاف أدى إلى وجود أربع جماعات فى مواقيت الصلاة فى الجامع الأزهر ، والسبب

فى ذلك فى اختلاف إعطاء المعنى الحقيقى لهذه الكلمة ، فالحنفى مثلا يقول بعدم بطلان الوضوء عند مس / لمس المرأة ، والشافعى خلاف ذلك . فالشافعى لا يصلى وراء الحنفى اعتقادا بأنه غير متوضئ إذا مس امرأة ما .

وقد توغل المذهب الشافعى فى هذا المعنى حتى قال إذا مس المرء عمودا أملس أثار شهوته بطل وضوؤه ومس المرأة المسنة إن لم يثر الشهوة لا يبطل الوضوء . وفى الواقع لا بد من إزالة هذين المعنيين غير المقيدين فنعطى معنى جامعا ومانعا ولا يخرج عن حقيقة المعنى الأصلى الحقيقى المراد .

فالمعنى هو المس بشهوة ، والجماع مجمع الشهوات أما المس واللمس العادى ففيه نظر ، فطالما لا يثير الشهوة فغير مبطل للوضوء كالتاجر فى السوق أو المار فى الطريق أو غير ذلك . هذا لا سيما فى العصر الحاضر عصر الازدحام والاقتحام والانسجام .

ومثل ذلك كلمة قرء فى قوله تعالى : ﴿ والمطلقات يتربصن بأنفسهم ثلاثة قروء ﴾ (البقرة ٢٢٨) والقرء تأتى بمعنى الحيض والطهارة معا ، فللنطلقة أو التى توفى زوجها فعليها أن تتربص « أى المدتين » أوفق لها الطهارة أو الحيض وفى الواقع أن لفظ « قرء » يأتى بمعنى « منجما » ولهذا قال بعض اللغويين القرآن مأخوذ من هذا المعنى لأن القرآن نزل منجما . وإذا تمشينا مع هذا المعنى فالقرء يأتى بمعنى الوقت المنجم الذى لصالح المرأة سواء الطهر أو الحيض فلها حق الاختيار للشىء الذى ينفعها أى الانتهاء من العدة لتتزوج من رجل آخر أو البقاء فى العدة لتستمر النفقة عليها .

هذه الأمور وأمثالها تحتاج إلى تحديد موقفنا لتوحيد الصف الإسلامى الذى فرقت المذاهب وحدته ، ولو أن فى الاختلاف رحمة ، ولكن فى الاتحاد قوة .

٤ - الاختلاف فى إبداء الرأى :

أرى بعض العلماء خرجوا عن حدود المنطق فى إعطاء معانى للكلمات الشرعية ، فمثلا كلمة « المطهرون » فى قوله تعالى :

﴿ فى كتاب مكنون لايمسه إلا المطهرون ﴾ وقد قال العلماء المقصود من هذه الكلمة إما الملائكة أو الإنسان المطهر .

أما إعطاء معنى الملائكة لهذه الكلمة فبعيد عن التصور العقلى ، إذ الملائكة مخلوق طاهر من شأنه والقرآن للجن والأنس :

﴿ ومـا خلقت الجن والأنس إلا ليـعـبـدون ﴾ فـالمقصود بهـذه الكلمـة هم المكلفون المأمورون بتلاوة هذا الكتاب الكريم ، ولهذا قال تعالى :

﴿ إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين ﴾ (البقرة ٢٢٢) وقوله سبحانه :

﴿ فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المتطهرين ﴾ (التوبة ١٠٨) .

فإعـطاء مـعنى « المطهرون » للملائكة فـيـه نوع من التكلف ، لأن القـرآن خـاص بمخلوق الأرض ، وقـد نزل من السـمـاء لأمـر تكليف بشرى .

فـؤاد محمـد فـخر الـدين

عضو المجمع المراسل

من إندونيسيا

★ ★ ★ ★ ★

شارك فى مراجعة هذا الجزء من المجلة

جمال عبد الحى أحمد

المحرر بإدارة التحرير والشؤون الثقافية بالمجمع

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رئيس مجلس الإدارة

محاسب / أحمد محمد صالح

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٩٨/٦٣٢

الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

٩٩٣٨ - ١٩٩٧ - ٢٠١٤

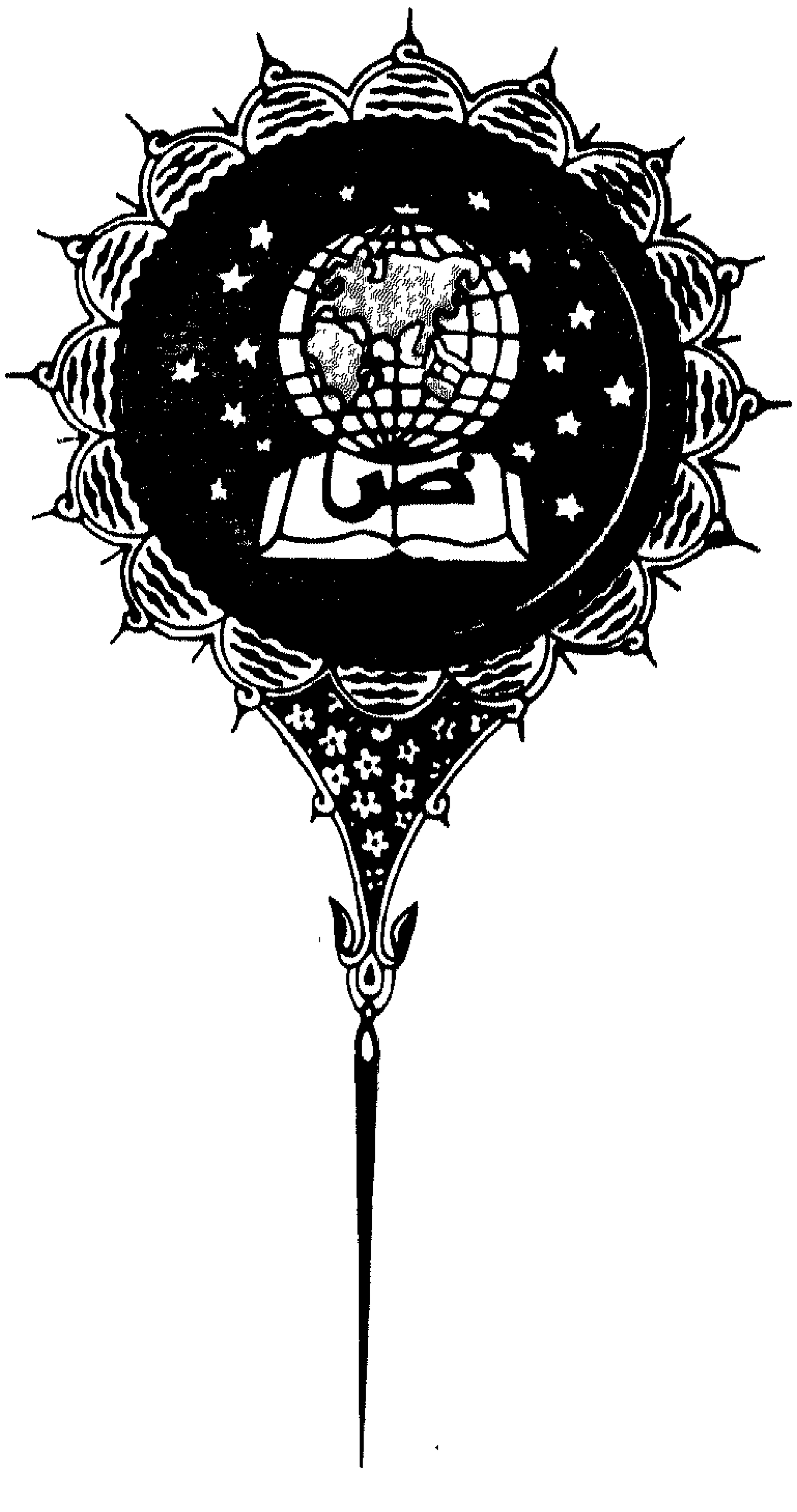
ص